

الكتاب: تفسير القرطبي

المؤلف: القرطبي

الجزء: ١١

الوفاة: ٦٧١

المجموعة: مصادر التفسير عند السنة

تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

الطبعة:

سنة الطبع: ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م

المطبعة:

الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان

ردمك:

ملاحظات: مؤسسة التاريخ العربي

الجامع لاحكام القرآن
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
الجزء الحادي عشر
أعاد طبعه

دار احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق
أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (٥١) ويوم يقول نادوا
شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (٥٢)
ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا (٥٣)
قوله تعالى: (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) قيل:
الضمير عائد على إبليس وذريته، أي لم أشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلق
أنفسهم،

بل خلقتهم على ما أردت. وقيل: ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض
" ولا خلق أنفسهم " أي أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني؟. وقيل:
الكناية

في قوله: " ما أشهدتهم " ترجع إلى المشركين، وإلى الناس بالجملة، فتضمن الآية الرد
على

طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من
يتخوض (١) في هذه

الأشياء. وقال ابن عطية: وسمعت أبي رضي الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله
محمد (٢) بن معاذ المهدي يقول: سمعت عبد الحق الصقلي يقول هذا
القول، ويتأول

هذا التأويل في هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف.
وذكر هذا بعض الأصوليين.

قال ابن عطية وأقول: إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه
يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن، حين
يقولون: أعوذ

بعزيز هذا الوادي، إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا
الجميع، فهم

المراد الأول بالمضلين، وتندرج هذه الطوائف في معناهم. قال الثعلبي: وقال بعض أهل

العلم " ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض " رد على المنجمين أن قالوا: إن الأفلاك
تحدث
في الأرض وفي بعضها في بعض، وقوله: " والأرض " رد على أصحاب الهندسة حيث
قالوا:

-
- (١) من ج وفي ا: ينخرط وفي ك وى والبحر: يتخرص.
(٢) في ك: أبا عبد الله بن عبد الله.

إن الأرض كرية والأفلاك تجري تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله: " ولا خلق

أنفسهم " رد على الطبايعيين حيث زعموا أن الطبايع هي الفاعلة في النفوس. وقرأ أبو جعفر:

" ما أشهدناهم " بالنون والألف على التعظيم. الباقون بالتاء بدليل قوله: (وما كنت متخذ)

يعني ما استعنتهم على خلق السماوات والأرض ولا شاورتهم. (وما كنت متخذ المضلين)

يعني الشياطين. وقيل: الكفار. (عضدا) أي أعوانا يقال: اعتضدت بفلان إذا استعنت به وتقويت. والأصل فيه عضد اليد، ثم يوضع موضع العون، لان اليد قوامها العضد. يقال: عضده وعاضده على كذا إذا أعانه وأعزه. ومنه قوله تعالى: " سنشد عضدك

بأخيك " (١) [القصص: ٣٥] أي سنعينك بأخيك. ولفظ العضد على جهة المثل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج

إلى عون أحد. وخص المضلين بالذكر لزيادة الدم والتويخ. وقرأ أبو جعفر الجحدري: " وما كنت " بفتح التاء أي وما كنت يا محمد متخذ المضلين عضدا. وفي عضد ثمانية أوجه:

" عضدا " بفتح العين وضم الضاد وهي قراءة الجمهور، وهي أفصحها. و " عضدا " بفتح العين

وإسكان الضاد، وهي لغة بني تميم. و " عضدا " بضم العين والضاد، وهي قراءة أبي عمرو

والحسن. و " عضدا " بضم العين وإسكان الضاد، وهي قراءة عكرمة. و " عضدا " بكسر العين

وفتح الضاد، وهي قراءة الضحاك. و " عضدا " بفتح العين والضاد وهي قراءة عيسى بن عمر.

وحكى هارون القارئ " عضدا " واللغة الثامنة " عضدا " على لغة من قال: كتف وفخذ.

قوله تعالى: (ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم) أي اذكروا يوم يقول الله: أين شركائي؟ أي ادعوا الذين أشركتموهم بي فليمنعوكم من عذابي. وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان. وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر " نقول " بنون. الباقون بالياء، لقوله: " شركائي " ولم يقل: شركائنا. (فدعوهم) أي فعلوا ذلك. (فلم يستجيبوا لهم) أي لم يجيبوهم إلى نصرهم ولم يكفوا عنهم شيئا. (وجعلنا بينهم موبقا) قال أنس ابن مالك: هو واد في جهنم من قيح ودم. وقال ابن عباس: أي وجعلنا بين المؤمنين

والكافرين حاجزا. وقيل: بين الأوثان وعبدتها، نحو قوله: " فزيلنا بينهم " (٢).

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٤.

(٢) راجع ج ٨ ص ٣٣٣.

قال ابن الأعرابي: كل شئ حاجز بين شيئين موبق، وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى: " موبقا " قال واد في جهنم يقال له موبق، وكذلك قال نوف البكالي إلا أنه قال: يحجز بينهم وبين المؤمنين. عكرمة: هو نهر في جهنم يسيل نارا على حافتيه

حياة مثل البغال الدهم فإذا ثارت إليهم لتأخذهم استغاثوا منها بالاحتحام في النار. وروى

زيد (١) بن درهم عن أنس بن مالك قال: " موبقا " (واد من قيح ودم في جهنم). وقال عطاء

والضحاك: مهلكا في جهنم، ومنه يقال: أوبقته ذنوبه إيباقا. وقال أبو عبيدة: موعدا للهلاك. الجوهرى: وبق يبق وبوقا هلك، والموبق مثل الموعد مفعل من وعد يعد، ومنه قوله تعالى: " وجعلنا بينهم موبقا ". وفيه لغة أخرى: وبق يوبق وبقا. وفيه لغة ثالثة: وبق يبق بالكسر فيهما، وأوبقه أي أهلكه. وقال زهير:

ومن يشتري حسن الثناء بماله * يصن عرضه من كل شنعاء موبق
قال الفراء: جعل تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة.

قوله تعالى: (ورأى المجرمون النار) " رأى " أصله رأي، قلبت الياء ألفا لانفتاحها وانفتاح ما قبلها، ولهذا زعم الكوفيون أن " رأى " يكتب بالياء، وتابعهم على هذا القول

بعض البصريين. فأما البصريون الحذاق، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: لا يجوز أن يكتب

مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف، ولا فرق بين ذوات الياء وبين [ذوات]

الواو في الخط كما أنه لا فرق، بينهما في اللفظ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب

أن يكتب ذوات الواو بالواو، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء رماه بالألف، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء، ثم يكتبون ضحا جمع ضحوة،

وكسا جمع كسوة، وهما من ذوات الواو بالياء، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل.

(فظنوا أنهم مواقعوها) " فظنوا " هنا بمعنى اليقين والعلم كما قال: (٣)
* فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج *

- (١) في الأصول: يزيد وهو تحريف والتصويب عن (التهذيب).
(٢) الزيادة من ك و (إعراب القرآن)
للنحاس.
(٣) هو دريد بن الصمة، وتمام البيت: * سراتهم في الفارسي المسرد *

أي أيقنوا، وقد تقدم (١). قال ابن عباس: (أيقنوا أنهم مواقعوها) وقيل: رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها، وظنوا أنها تأخذهم في الحال. وفي الخبر: (إن الكافر ليرى

جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة). والمواقعة ملابسة الشيء بشدة. [وعن علقمة أنه قرأ (١)]: " فظنوا أنهم ملاقوها " أي مجتمعون فيها، واللفظ الجمع. (ولم يجدوا

عنها مصرفاً) أي مهرباً لإحاطتها بهم من كل جانب. وقال القتيبي: معدلاً ينصرفون إليه. وقيل: ملجأً يلجئون إليه، والمعنى واحد. وقيل: ولم تجد الأصنام مصرفاً للنار عن المشركين.

قوله تعالى: ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً (٥٤) وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً (٥٥) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا (٥٦) ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا (٥٧) وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً (٥٨) وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً (٥٩)

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٥ فما بعد.
(٢) الزيادة من تفسير (البحر المحيط).

قوله تعالى: (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل) يحتمل وجهين: [أحدهما] ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم

في "سبحان" (١)، فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. (وكان الانسان أكثر شئ جدلا) أي جدالا ومجادلة والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقيل: الآية في أبي بن خلف.

وقال الزجاج: أي الكافر أكثر شئ جدلا، والدليل على أنه أراد الكافر قوله "ويجادل الذين كفروا بالباطل". وروي أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعت فيما أرسلت إليك فيقول رب آمنت بك وصدقت

برسلك وعملت بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شئ من ذلك فيقول يا رب إني

لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم

يا رب وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ

أم الكتاب قد شهد بذلك فقال يا رب ألم تجرني من الظلم قال بلى فقال يا رب لا أقبل إلا شاهدا

علي من نفسي فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذي يشهد

عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يخلى بينه وبين الكلام فيدخل النار

وإن بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكن الله فعنكن كنت أناضل فتقول أعضاؤه لعنك

الله أفتعلم أن الله تعالى يكتفم حديثا فذلك قوله تعالى: "وكان الانسان أكثر شئ جدلا"

أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا. وفي صحيح مسلم عن علي أن النبي صلى الله عليه

وسلم طرقة وفاطمة [ليلا] (٢) فقال: (ألا تصلون) فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا

شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته

وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: " وكان الانسان أكثر شئ جدلا "
قوله تعالى: (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) أي القرآن والاسلام ومحمد
عليه
الصلاة والسلام (ويستغفروا ربهم إلا أن يأتيهم سنة الأولين) أي سنتنا في إهلاكهم

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٦٤ فما بعد.
(٢) من ج.

إي ما منعهم عن الايمان إلا حکمي عليهم بذلك، ولو حکمت عليهم بالايمان آمنوا.
وسنة

الأولين عادة الأولين في عذاب الاستئصال. وقيل: المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا
طلب

أن تأتيهم سنة الأولين فحذف. وسنة الأولين معاينة العذاب، فطلب المشركون ذلك،
وقالوا " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك (١) " [الأنفال: ٣٢] الآية. (أو يأتيهم
العذاب قبلاً) (٢)

نصب على الحال، ومعناه عيانا، قاله ابن عباس. وقال الكلبي: هو السيف يوم بدر.
وقال مقاتل: فجأة. وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي " قبلاً "
بضمين أرادوا به أصناف العذاب كله (٣)، جمع قبيل نحو سبيل وسبل. النحاس:
ومذهب

الفراء أن " قبلاً " جمع قبيل أي متفرقا يتلو بعضه بعضا. ويجوز عنده أن يكون المعنى
عيانا. وقال الأعرج: وكانت قراءته " قبلاً " معناه جميعا. وقال أبو عمرو: وكانت
قراءته

" قبلاً " ومعناه عيانا.

قوله تعالى: (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) أي بالجنة لمن آمن (ومنذرين)
أي مخوفين بالعذاب من الكفر. وقد تقدم. (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به
الحق) قيل: نزلت في المقتسمين كانوا يجادلون في الرسول صلى الله عليه وسلم
فيقولون:

ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدم (٤). ومعنى: " يدحضوا " يزيلوا ويبتلوا
وأصل الدحض

الزلق. يقال: دحضت رجله أي زلقت، تدحض دحضا ودحضت الشمس عن كبد
السماء زالت ودحضت حجته دحوضا بطلت، وأدحضها الله. والادحاض الازلاق.
وفي وصف الصراط: (ويضرب الجسر على جهنم (٥) وتحل الشفاعة فيقولون اللهم
سلم سلم)

قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: " دحض مزلقة " أي تزلق فيه القدم. قال طرفة:
أبا منذر رمت الوفاء فهبته * وحدت كما حاد البعير عن الدحض

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٨.

(٢) هذه قراءة (نافع) التي كان يقرأ بها المفسر رحمه الله تعالى.

(٣) في ك: كأنه.

(٤) راجع ج ١٠ ص ٥٨.

(٥) تحل: تقع ويؤذن فيها وهو (بكسر)

الحاء) وقيل: (بضمها). النووي.

(٦)

(واتخذوا آياتي) يعني القرآن. (وما أنذروا) من الوعيد (هزوا) و " ما " بمعنى المصدر أي والانذار وقيل: بمعنى الذي، أي اتخذوا القرآن والذي أنذروا به من الوعيد هزوا أي لعبا وباطلا، وقد تقدم في " البقرة " (١) بيانه. وقيل: هو قول أبي جهل في الزبد والتمر

هذا هو الزقوم وقيل: هو قولهم في القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأولين، وقالوا للرسول: " هل هذا إلا بشر مثلكم " (٢) [الأنبياء: ٣] " وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من

القريتين عظيم " (٣) [الزخرف: ٣١] و " ماذا أراد الله بهذا مثلا " (٤) [المدثر: ٣١].

قوله تعالى: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه، فتهاون بها وأعرض عن قبولها. (ونسي ما قدمت يداه) أي ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها، فالنسيان هنا بمعنى الترك قيل: المعنى نسي ما قدم لنفسه وحصل من العذاب، والمعنى متقارب. (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم

وقرا) بسبب كفرهم، أي نحن منعنا الايمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم. (وإن تدعهم

إلى الهدى) أي إلى الايمان، (فلن يهتدوا إذا أبدا) نزل في قوم معينين، وهو يرد على القدرية قولهم، وقد تقدم معنى هذه الآية في " سبحان " (٥) [الاسراء: ١] وغيرها.

قوله تعالى: (وربك الغفور ذو الرحمة) أي للذنوب. وهذا يختص به أهل الايمان دون الكفرة بدليل قوله: " إن الله لا يغفر أن يشرك به " (٦) [النساء: ٤٨]. " ذو الرحمة " فيه أربع

تأويلات: أحدها - ذو العفو. الثاني - ذو الثواب، وهو على هذين الوجهين مختص بأهل

الايمان دون الكفر. [الثالث] ذو النعمة. [الرابع] ذو الهدى، وهو على هذين الوجهين يعم أهل الايمان والكفر، لأنه ينعم في الدنيا على الكافر، كإنعامه على المؤمن. وقد أوضح

هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر. ومعنى قوله: (لو يؤاخذهم

بما كسبوا) أي من الكفر والمعاصي. (لعجل لهم العذاب) ولكنه يمهل. (بل لهم موعد) أي أجل مقدر يؤخرون إليه، نظيره: " لكل نأ مستقر " (٧) [الانعام: ٦٧]، " لكل أجل كتاب " (٨) [الرعد: ٣٨]

- (١) راجع ج ٣ ص ١٥٦ فما بعد.
- (٢) راجع ص ٢٦٩ من هذا الجزء.
- (٣) راجع ج ١٦ ص ٨٢.
- (٤) راجع ج ١٩ ص ٨٠.
- (٥) راجع ج ١٠ ص ٢٧١.
- (٦) راجع ج ٥ ص ٢٤٥.
- (٧) راجع ج ٧ ص ١١.
- (٨) راجع ج ٩ ص ٣٢٨.

أي إذا حل لم يتأخر عنهم إما في الدنيا وإما في الآخرة. (لن يجدوا من دونه موثلاً) أي ملجأ، قاله ابن عباس وابن زيد، وحكاها الجوهرى في الصحاح. وقد وأل يئل وألا ووءولا

على فعول أي لجأ، وواءل منه على فاعل أي طلب النجاة. وقال مجاهد: محرزا. قتادة: وليا.

وأبو عبيدة: منجى. وقيل: محيصا، والمعنى واحد. والعرب تقول: لا وألت نفسه أي لا نجت، ومنه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها * للعامرين ولم تكلم
وقال الأعشى:

وقد أحالس رب البيت غفلته * وقد يحاذر مني ثم ما يئل
أي ما ينجو.

قوله تعالى: (وتلك القرى أهلكناهم) " تلك " في موضع رفع بالابتداء. " القرى " نعت أو بدل. و " أهلكناهم " في موضع الخبر محمول على المعنى، لأن المعنى أهل القرى.

ويجوز أن تكون " تلك " في موضع نصب على [قول] (١) من قال: زيدا ضربته، أي وتلك

القرى التي قصصنا عليك نبأهم، نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا

وكفروا. (وجعلنا لمهلكهم موعدا) (٢) أي وقتا معلوما لم تعده. و " مهلك " من أهلكوا. وقرأ

عاصم: " مهلكهم " بفتح الميم واللام وهو مصدر هلك. وأجاز الكسائي والفراء " لمهلكهم "

بكسر اللام وفتح الميم. النحاس: [قال الكسائي] (١) وهو أحب إلي لأنه من هلك. الزجاج:

[مهلك (٣)] اسم للزمان والتقدير: لوقت مهلكهم، كما يقال: أتت الناقة على (٤) مضربها.

قوله تعالى: وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا (٦٠)

(١) الزيادة من (إعراب القرآن) للنحاس.

(٢) هذه قراءة الجمهور كما في البحر وغيره.

(٣) من ك.

(٤) ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها وأتت الناقة على مضربها: أي على الزمن

والموت الذي ضربها الفحل فيه جعلوا الزمان كالمكان.

(أ)

فيه أربه مسائل:
الأولى - قوله تعالى: (وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح) الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نوف البكالي:

إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى

ابن عمران. وقد رد هذا القول ابن عباس في صحيح البخاري وغيره. وفتاه: هو يوشع بن نون.

وقد مضى ذكره في "المائدة" (١) وآخر "يوسف" (٢). ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى

يوشع بن نون. (لا أبرح) أي لا أزال أسير، قال الشاعر: (٣)

وأبرح ما أدام الله قومي * بحمد الله منتظما مجيدا

وقيل: "لا أبرح" لا أفارقك. (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي ملتقاهما. قال قتادة:

وهو بحر فارس والروم، وقاله مجاهد. قال ابن عطية: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط

من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين

مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين على هذا القول. وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم.

وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، قاله محمد بن كعب. وروي عن أبي بن كعب: أنه بأفريقية. وقال السدي: الكر والرس (٤) بأرمينية. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس

من البحر المحيط، حكاه النقاش، وهذا مما يذكر كثيرا. وقالت فرقة: إنما هما موسى والخضر، وهذا قول ضعيف، وحكي عن ابن عباس، ولا يصح، فإن الأمر بين من الأحاديث أنه إنما وسم (٥) له بحر ماء. وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أبي بن

كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن موسى عليه السلام قام خطيبا

(١) راجع ج ٦ ص ١٣٠ فما بعد.

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٠ فما بعد.

(٣) هو خدش بن زهير يقول: لا أزال أجنب فرسي جوادا ويقال: إنه أراد قولاً يستجاد في الشاء على قومي وفي (اللسان): (على الأعداء) يدل (بحمد الله).

(٤) الكر والرس: نهران.
(٥) في ج وك: إنما رسم له بحرتا.

في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله

إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك

حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم) وذكر الحديث، واللفظ للبخاري.

وقال ابن عباس: (لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة

إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، واستخلفهم في الأرض، ثم قال: وكلم الله نبيكم

تكليما، واصطفاه لنفسه، وألقى علي (١) محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل

الأرض، ورزقكم العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالا، فقال له رجل من بني إسرائيل: عرفنا الذي تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟

قال: لا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل: أن يا موسى وما يدريك

أين [أضع] (٢) علمي؟ بلى! إن لي عبدا بمجمع البحرين أعلم منك، وذكر الحديث. قال علماؤنا:

وقوله في الحديث: (هو أعلم منك) أي بأحكام وقائع مفصلة، وحكم نوازل معينة، لا مطلقا

بدليل قول الخضر لموسى: إنك على علم علمك الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه

أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه واحد

منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل

علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك، فعزم فسأل سؤال الدليل بكيف (٣) السبيل،

فأمر بالارتحال على كل حال. وقيل له: احمل معك حوتا مالحا في مكتل - - وهو الزنبيل -

فحيث يحيا وتفقدته فثم السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهدا طلبا قائلا: " لا أبرح

حتى
أبلغ مجمع البحرين ". (أو أمضي حقبا) بضم الحاء والقاف وهو الدهر، والجمع
أحقاب.
وقد تسكن قافه فيقال حقب. وهو ثمانون سنة. ويقال: أكثر من ذلك. والجمع
حقاب. والحقبة بكسر الحاء واحدة الحقب وهي السنون.

-
- (١) في ى: عليه.
(٢) الزيادة من كتب التفسير.
(٣) في ج وك: فكيف.
(٤) في البحر: الحقب السنون.

الثانية - في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم وذلك كان دأب السلف الصالح وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام وضح لهم من الذكر والاجر والفضل أفضل الأقسام.

قال البخاري: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث. الثالثة - قوله تعالى: (وإذ قال موسى لفتاه) للعلماء فيه ثلاثة أقوال: أحدهما - أنه كان معه يخدمه والفتى في كلام العرب الشاب ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا

قيل للخدام: فتى على جهة حسن الأدب وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه

وسلم: (لا يقل أحكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي) فهذا ندب إلى التواضع، وقد تقدم هذا في (يوسف) (١). والفتى في الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم

ابن يوسف عليه السلام. ويقال: هو ابن أخت موسى عليه السلام. وقيل: إنما سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا، وهذا معنى الأول. وقيل: إنما سماه فتى لأنه

قام مقام الفتى وهو العبد قال الله تعالى: (وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ((١))

وقال: (تراود فتاهها عن نفسه (١)) قال ابن العربي: فظاهر القرآن يقتضى أنه عبد وفي الحديث: أنه كان يوشع بن نون. وفي (التفسير) أنه ابن أخته وهذا كله مما لا يقطع به والتوقف فيه أسلم.

الرابعة - قوله تعالى: (أو أمضى حقبا) قال عبد الله بن عمر: والحقب ثمانون سنة. مجاهد: سبعون خريفا. قتادة: زمان، النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطا وقوما مبهم غير محدود: وجمعه أحقاب.

(11)

قوله تعالى: فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢) قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا (٦٣) قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا (٦٤) فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥)

قوله تعالى: (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا) الضمير في قوله: " بينهما " للبحرين، قاله مجاهد. والسرب المسلك، قاله مجاهد [أيضا] (١). وقال

قتادة: جمد الماء فصار كالسرب. وجمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغا، وأن موسى مشى عليه متبعا للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر.

وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر وقوله: " نسيا حوتهما " وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقليل: المعنى، نسي أن يعلم موسى بما رأى من حاله

فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى: " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " (٢) [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج

من الملح، وقوله: " يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم " (٣) وإنما الرسل من الانس

لا من الجن. وفي البخاري: فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت،

قال: ما كلفت كبيرا، فذلك قوله عز وجل: " وإذ قال موسى لفتاه " يوشع بن نون - ليست عن سعيد (٤) - قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان (٥) إذ تضرب (٦) الحوت وموسى نائم

(١) من ك.

(٢) راجع ج ١٧ ص ١٦١.

(٣) راجع ج ٧ ص ٨٥.

(٤) أي قال ابن جريج - هو أحد رواة الحديث - ليست تسمية الفتى عن سعيد بن جبير. (قسطلاني).

(٥) ثريان: يقال مكان ثريان وأرض ثريا إذا كان في ترابهما بلل وندى.

(٦) تضرب: اضطرب وتحرك إذ حيا في المكمل.

فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا أستيقظ نسي أن يخبره، وتضرب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حجر، قال لي عمرو (١): هكذا كأن أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما). وفي رواية. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار [عليه] (٢) مثل الطاق (٣)، فلما أستيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليتتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: " آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا " ولم يجد

موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: " أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ". وقيل: إن النسيان كان منهما لقوله تعالى: " نسيا " فنسب النسيان إليهما، وذلك أن بدو حمل الحوت كان

من موسى لأنه الذي أمر به، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا (فلما جاوزا) يعني الحوت هناك منسيا - أي متروكا - فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى

النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة،

فقد كان موسى شريكا في النسيان لان النسيان التأخير، من ذلك قولهم في الدعاء: أنسأ

الله في أجلك. فلما مضيا من الصخرة أخرتا حوتهما عن حملة فلم يحمله واحد منهما فجاز

أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت.

قوله تعالى: (آتنا غداءنا) فيه مسألة واحدة، وهو اتخاذ الزاد في الاسفار، وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار (٤)، الذين يقتحمون المهامه والقفار، زعما منهم أن ذلك هو التوكل

على الله الواحد القهار، هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته

بربه، وتوكله على رب العباد. وفي صحيح البخاري: إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون

ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى

" وتزودوا " وقد مضى هذا في " البقرة " (٥). واختلف في زاد موسى ما كان، فقال ابن عباس: كان حوتا مملوحا في زنبيل، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء، فلما انتهيا إلى

(١) أي قال ابن جريج قال لي عمرو... الخ.

(٢) من ج وك وى.

(٣) الطاق: عقد البناء.

(٤) الأغمار جمع غمر (بالضم): وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور.

(٥) راجع ج ٢ ص ٤١١ فما بعد.

الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه (١) المكتل، فأصاب الحوت جري البحر فتحرك الحوت

في المكتل، فقلب المكتل وانسرب الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى.

وقيل: إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله في الحديث: (أحمل معك حوتا

في مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثم) على هذا فيكون تزودا شيئا آخر غير الحوت، وهذا

ذكره شيخنا الإمام أبو العباس وأختاره. وقال ابن عطية: قال أبي رضي الله عنه، سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوما لم

يحتج

إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم. وقوله: (نصبا) أي تعباً، والنصب التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا الجوع، وفي هذا دليل على جواز الاخبار بما يجده الانسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدر في الرضا، ولا في التسليم للقضاء

لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط. وفي قوله: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في " أنسانيه "

وهو بدل الظاهر من المضمرة، أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وفي مصحف عبد الله " وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان ". وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الاعتذار لقول موسى:

لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، فقال: ما كلفت كبيراً، فاعتذر بذلك القول.

قوله تعالى: (واتخذ سبيله في البحر عجبا) يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى، أي اتخذ الحوت سبيله عجبا للناس. ويحتمل أن يكون قوله: " واتخذ سبيله في البحر " تمام الخبر، ثم استأنف التعجب فقال من نفسه: " عجبا " لهذا الامر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حي بعد ذلك. قال أبو شجاع في كتاب " الطبري ": رأيت - أتيت به - فإذا هو شق حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء.

قال ابن عطية: وأنا رأيت والشق الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست (٢) تحتها شوكة.

ويحتمل أن يكون قوله: " واتخذ سبيله " إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أي تعجب منه. وإما أن

يخبر

-
- (١) في ك: صاحبه.
(٢) سقط من ك وى: ليست.

عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجبا للناس. ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس من قصص هذه الآية: أن الحوت إنما حيي لأنه مسه ماء عين هناك تدعى عين الحياة، ما مست قط شيئا إلا حيي). وفي التفسير: إن العلامة كانت أن يحيا الحوت، ف قيل: لما نزل موسى بعد ما أجهدته السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شئ من

ذلك الماء فحيي. وقال الترمذي في حديثه قال سفيان: يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها

عين الحياة، ولا يصيب ماؤها شيئا (١) إلا عاش. قال: وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر

عليه الماء عاش. وذكر صاحب كتاب " العروس " أن موسى عليه السلام توضع من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيي، والله أعلم. قوله تعالى: (ذلك ما كنا نبغي) (٢) أي قال موسى لفتاه أمر (٣) الحوت وفقده هو الذي كنا

نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثم، فرجعا يقصان أثارهما لئلا يخطئا طريقهما. وفي البخاري:

فوجدنا خضرا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه،

وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضك من سلام؟!

من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال جئت لتعلمني مما علمت رشدا، الحديث. وقال الثعلبي في كتاب " العرائس ": إن موسى

وفتاه وجدنا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم

عليه موسى، فكشف عن وجهه فقال: وأنى بأرضنا السلام؟! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أدراك بي؟ ومن أخبرك أنني نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أدراك بي وذلك علي (٤)، ثم قال: يا موسى لقد كان

لك في بني إسرائيل شغل، قال موسى: إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك، ثم جلسا يتحدثان، فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء) وذكر الحديث على ما يأتي.

- (١) في ك: ميتا.
(٢) في الأصول: (نبغي) بالياء وهي قراءة (نافع).
(٣) في ك:
لما مر الحوت وفقده.
(٤) الذي في كتاب (العرائس) للثعلبي. (فقال أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟
قال نعم، قال يا موسى لقد كان لك في بني إسرائيل شغل... الخ) ولعل ما هنا زيادة في بعض النسخ.

قوله تعالى: (فوجدنا عبدا من عبادنا) العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة. وخالف من لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر. وحكى أيضا هذا القول القشيري، قال: وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر، بذلك ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء) هذا حديث صحيح غريب. الفروة هنا وجه الأرض، قاله الخطابي وغيره. والخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته لان بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى. وأيضا فان الانسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي. وقيل: كان ملكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن. والأول الصحيح، والله أعلم.

قوله تعالى: (آتيناه رحمة من عندنا) الرحمة في هذه الآية النبوة. وقيل: النعمة. (وعلمناه من لدنا علما) أي علم الغيب. ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الاحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى علم الاحكام والفتيا بظواهر أقوال الناس وأفعالهم.

قوله تعالى: قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معي صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠)

قوله تعالى: (قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) [فيه مسألتان]:
الأولى - قوله تعالى: " قال له موسى هل أتبعك " هذا سؤال الملاطف، والمخاطب
المستنزل (١) المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما
في الحديث:

هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ؟ وعلى بعض
التأويلات

يجئ كذلك قوله تعالى: " هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء " [المائدة:
١١٢] حسب

ما تقدم بيانه في " المائدة " (٢).

الثانية - في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن
أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن
الفاضل

ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه،
لأنه نبي

والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة. والله أعلم. و " رشدا "
مفعول ثان ب " - تعلمني " . (قال) الخضر: (إنك لن تستطيع معي صبرا) أي إنك يا
موسى

لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لان الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف
تصبر

على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب. وهي معنى قوله:
(وكيف

تصبر على ما لم تحط به خبرا) والأنبياء لا يقرون على منكر، لا يجوز لهم التقرير. أي
لا يسعك

السكوت جريا على عادتك وحكمك. وانتصب " خبرا " على التمييز المنقول عن
الفاعل.

وقيل: على المصدر الملاقى في المعنى، لان قوله: " لم تحط " . معناه لم تخبره، فكأنه
قال:

لم تخبره خبرا، وإليه أشار مجاهد. والخبير بالأمر هو العالم بخفاياها وبما يختبر
منها.

قوله تعالى: (قال ستجدني إن شاء الله صابرا) أي سأصبر بمشيئة الله. (ولا أعصى
لك أمرا) أي قد ألزمت نفسي طاعتك وقد اختلف في الاستثناء، هل هو يشمل قوله:
" ولا أعصي لك أمرا " أم لا؟ فقليل: يشمله كقوله: " والذاكرين الله كثيرا والذاكرات "
(٣) [الأحزاب: ٣٥].

وقيل: استثنى في الصبر فصبر، وما استثنى في قوله: " ولا أعصي لك أمرا " فاعترض

-
- (١) في ك: المشترك.
(٢) راجع ج ٦ ص ٣٦٥.
(٣) راجع ج ١٤ ص ١٨٥.

وسأل، قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه، لان الصبر أمر مستقبل ولا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه حاصل في الحال، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه. ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركها، فإن ذلك

كله مكتسب لنا، والله أعلم.

قوله تعالى: (قال فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والاعراض.

قوله تعالى: فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبورا (٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (٧٣) قوله تعالى: (فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) [فيه مسألتان] الأولى - في صحيح مسلم والبخاري: (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة

فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ [موسى] (١)

إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها " لقد جئت شيئا إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبورا. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ". قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وكانت الأولى من موسى نسيانا) قال: وجاء عصفور

فوقع على حرف السفينة فنقر نقر في البحر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله

إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. قال علماؤنا: حرف السفينة طرفها وحرف

كل شيء طرفه، [ومنه حرف الجبل] (٢) وهو أعلاه المحدد. والعلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال:

(١) الزيادة من البخاري.
(٢) الزيادة من كتب اللغة.

" ولا يحيطون بشئ من علمه " (١) [البقرة: ٢٥٥] أي من معلوماته، وهذا من الخضر تمثيل، أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة

إلى ماء البحر، وإنما مثل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز قصد به التمثيل والتفهم، إذ لا نقص في علم الله، ولا نهاية لمعلوماته.

وقد أوضح هذا المعنى البخاري فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ

هذا الطير بمنقاره من البحر وفي (التفسير) عن أبي العالية: لم ير الخضر حين خرق السفينة

غير موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق

السفينة. وقيل: خرج أهل السفينة إلى جزيرة، وتخلف الخضر فخرق السفينة، وقال ابن عباس: (لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنت أصنع

بمصاحبة هذا الرجل! كنت في بني إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية فيطيعونني!

قال له الخضر: يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا قال: صدقت، ذكره الثعلبي في كتاب (العرائس).

الثانية - في خرق السفينة دليل على أن اللولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا، مثل أن يخاف على ريعه ظالما فيخرب بعضه. وقال أبو يوسف: يجوز للولي أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض. وقرأ حمزة والكسائي: " ليغرق " بالياء " أهلها " بالرفع فاعل يغرق، فاللام على قراءة الجماعة في " لتغرق " لام المأل مثل " ليكون لهم عدوا

وحزنا " (٢). وعلى قراءة حمزة لام كي، ولم يقل لتغرقني، لان الذي غلب عليه في الحال فرط

الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم.. (إمرا) معناه عجا، قاله القتيبي، وقيل: منكرا، قاله مجاهد، وقال أبو عبيدة: الامر الداهية العظيمة، وأنشد:

قد لقي الاقران مني نكرا * داهية دهياء إذا إمرا

وقال الأخفش: يقال أمر أمره يأمر [أمرا] (٣) إذا أشتد والاسم الامر.

- (١) راجع ج ٣ ص ٢٦٨.
(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٥٢.
(٣) الزيادة من كتب اللغة.

قوله تعالى: (قال لا تؤاخذني بما نسيت) في معناه قولان: أحدهما - يروى عن ابن عباس، قال: هذا من معاريض الكلام. والآخر - أنه نسي فاعتذر، ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق

ولا غيره، وقد تقدم، ولو نسي في الثانية لاعتذر.

قوله تعالى: فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا (٧٤) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا (٧٦)

قوله تعالى: (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) في البخاري قال يعلى قال سعيد: وجد غلاما يلعبون فأخذ غلاما كافرا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، " قال أقتلت نفسا زكية بغير

نفس " لم تعمل بالحنث (١)، وفي الصحيحين وصحيح الترمذي: ثم خرجا من السفينة فبينما هما

يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه

بيده فقتله، قال له موسى: " أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل

لك إنك لن تستطيع معي صبرا " قال (٢) وهذه أشد من الأولى. " قال إن سألتك عن شيء

بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا " لفظ البخاري. وفي (التفسير): إن الخضر مر بغلمان يلعبون فأخذ بيده (٣) غلاما ليس فيهم أضوا منه، وأخذ حجرا فضرب به

رأسه حتى دمهغه، فقتله. قال أبو العالية: لم يره إلا موسى، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام.

(١) لأنها لم تبلغ الحلم وهو تفسير لقوله: (زكية) أي أقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث بغير نفس. ولأبي ذر: لم تعمل الخبث (بخاء معجمة وموحدة مفتوحتين). قسطلاني كذا في ك.
(٢) هو سفيان بن عيينة كما في القسطلاني. وقيل: كانت هذه أشد من الأولى لما فيها من زيادة (لك).
(٣) في ك وى: بيد غلام.

قلت: ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة، فإنه يحتمل أن يكون دماغه أولاً بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه، والله أعلم بما كان من ذلك وحسبك بما جاء في الصحيح.

وقرأ الجمهور: " زاكية " بالألف. وقرأ الكوفيون وابن عامر: " زكية " بغير ألف وتشديد

الياء، قيل: المعنى واحد، قاله الكسائي. وقال ثعلب: الزكية أبلغ. قال أبو عمرو: الزاكية التي لم تذب قط والزكية التي أذنت ثم تابت.

قوله تعالى: " غلاما " اختلف العلماء في الغلام هل كان بالغاً أم لا؟ فقال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين، وأمه من عظماء

القرية الأخرى، فأخذته الخضر فصرعه، ونزع رأسه عن جسده. قال الكلبي: واسم الغلام

شمعون. وقال الضحاك: حيسون. وقال وهب: اسم أبيه سلاس واسم أمه رحمي. وحكى

السهيلي أن اسم أبيه كازير واسم أمه سهوى. وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قال موسى

زاكية لم تذب، وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام، فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ،

وتقابلة الجارية في النساء. وكان الخضر قتله لما علم من سيره، وأنه طبع كافراً كما في صحيح

الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كافراً، وقتل الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك،

فإن الله تعالى الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء، وفي كتاب العرائس: إن موسى لما قال للخضر " أقتلت نفساً زكية " - الآية - غضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر،

وقشر اللحم عنه، وإذا في عظم كتفه مكتوب: كافر لا يؤمن بالله أبداً. وقد احتج أهل القول الأول بأن العرب تبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلي الأخيلية: (١)

شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام إذا هز القناة سقاها

وقال صفوان لحسان: (٢)

تلق ذباب السيف عني فإنني * غلام إذا هوجيت لست بشاعر

(١) البيت من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف وقبله:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة * تتبع أقصى دائها فشفاهها

(٢) قد كان حسان رضي الله عنه قال شعراً يعرض فيه صفوان بن المعطل ويمن أسلم من العرب من مضر

فاعترضه
ابن المعطل وضربه بالسيف وقال البيت. (راجع القصة في سيرة ابن هشام).

وفي الخبر: إن هذا الغلام كان يفسد في الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما فعل، فيقسمان على قسمه، ويحميانه ممن يطلبه، قالوا وقوله: " بغير نفس " يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبر الغلام، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا. قال ابن عباس: كان شابا يقطع الطريق. وذهب ابن جبير إلى أنه بلغ سن التكليف لقراءة أبي وابن عباس " وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين " والكفر والايمان من صفات المكلفين، ولا يطلق على غير مكلف إلا بحكم التبعية لأبويه، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه اسم الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يصار إليه. والغلام من الاغتيال وهو شدة الشبق. قوله تعالى: " نكرا " اختلف الناس أيهما أبلغ " إمرا " أو قوله " نكرا " فقالت فرقة: هذا قتل بين، وهناك مترقب، ف " - نكرا " أبلغ. وقالت فرقة: هذا قتل واحد وذاك قتل جماعة ف " إمرا " أبلغ. قال ابن عطية: وعندي أنهما لمعنيين وقوله: " إمرا " أفضع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و " نكرا " بين في الفساد لان مكروهه قد وقع، وهذا بين. قوله: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) شرط وهو لازم، والمسلمون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء، والتزم للأنبياء. وقوله: (قد بلغت من لدني عذرا) يدل على قيام الاعتذار (١) بالمرّة الواحدة مطلقا، وقيام الحجة من المرّة الثانية بالقطع، قاله ابن العربي. ابن عطية: ويشبه أن تكون هذه القصة أيضا أصلا للأجل في الاحكام التي هي ثلاثة، وأيام المتلوم (٢) ثلاثة، فتأمله. قوله تعالى: (فلا تصاحبني) كذا قرأ الجمهور أي تتابعني. وقرأ الأعرج: (تصاحبني) بفتح التاء والباء وتشديد النون. وقرئ: (تصاحبني) أي تتبعني. وقرأ يعقوب: (تصاحبني) بضم التاء وكسر الحاء، ورواها سهل عن أبي عمرو قال الكسائي: معناه فلا تتركني أصحابك. " قد بلغت من لدن عذرا " أي بلغت مبلغا تعذر به في ترك مصاحبتي، وقرأ الجمهور: " من لدني " بضم الدال، إلا أن نافعا وعاصما خففا النون، فهي " لدن " اتصلت بها ياء

(١) في ك: الاعذار.
(٢) في ك وى: التلوم. ولعله الأشبه.

المتكلم التي في غلامي وفرنسي، وكسر ما قبل الياء كما كسر في هذه. وقرأ أبو بكر
عن عاصم

"لذني" بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون. وروي عن عاصم "لذني" بضم
اللام

وسكون الدال، قال ابن مجاهد: وهي غلط، قال أبو علي: هذا التخليط يشبه أن يكون
من

جهة الرواية، فأما على قياس العربية فهي صحيحة. وقرأ الجمهور: "عذر". وقرأ
عيسى:

"عذرا" بضم الذال. وحكى الداني (١) أن أبا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "عذري"

بكسر الراء وياء بعدها.

مسألة: أسند الطبري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لاحد بدأ
بنفسه، فقال يوماً: "رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب
ولكنه

قال: "فلا تصاحبني قد بلغت من لذني عذرا". والذي في صحيح مسلم قال رسول
الله صلى

الله عليه وسلم: (رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته
من

صاحبه ذمامة ولو صبر لرأى العجب) قال: وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه:
رحمة الله علينا وعلى أخي كذا. وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(يرحم الله

موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما). الذمامة بالذال المعجمة المفتوحة،
وهو بمعنى المذمة بفتح الدال وكسرها، وهي الرقة والعار من تلك (٢) الحرمة: يقال
أخذتني منك

مذمة ومذمة وذمامة. وكأنه استحيا من تكرار مخالفته، ومما صدر عنه من تخليط
الانكار.

قوله تعالى: فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها
فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال
لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٧٧) قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك
بتأويل ما لم تستطع عليه صبيرا (٧٨)

(١) كذا في ج وك وى. وفي ا: الداراني. وهو غلط.

(٢) في ج وك وى: ترك الحرمة.



(۲۳)

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: (حتى إذا أتيا أهل قرية) في صحيح مسلم عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لثام " فطافا في المجلس (١) ف - استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما

فوجدوا فيها جدار يريد أن ينقض " يقول: مائل قال: " فأقامه " الخضر بيده قال له موسى: قوم أتيانهم فلم يضيفونا، ولم يطعمونا، " لو شئت لاتخذت عليه أجرا، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا " قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: (يرحم الله موسى لو ددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما). الثانية - واختلف العلماء في القرية فقيل: هي أبله، قاله قتادة، وكذلك قال محمد ابن سيرين، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء. وقيل: أنطاكية وقيل: بجزيرة الأندلس، روي ذلك عن أبي هريرة وغيره، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. وقالت فرقة: هي باجروان وهي بناحية أذربيجان. وحكى السهيلي وقال: إنها برقة. الثعلبي: هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، وإليها تنسب النصارى، وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية

من الأرض كانت قصة موسى. والله أعلم بحقيقة ذلك.

الثالثة - كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ابتداء، وفي القرية سألوا القوت، وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة، منها أن موسى كان في حديث مدين منفردا وفي قصة الخضر تبعا (٢) لغيره.

قلت: وعلى هذا المعنى يتمشى قوله في أول الآية لفتاه: " آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا

هذا نصبا " فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع، والله أعلم.

وقيل: لما كان هذا سفر تأديب وكل إلى تكلف المشقة، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت (٣).

الرابعة - في هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافا لجهال (٤) المتصوفة. والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة،

(١) في ك وى: في المجالس.

(٢) في ك: متبعا.

(٣) في ك: والقوة.

(٤) في ك: للجهال من المتصوفة.



(۲۴)

بدليل قوله: " فأبوا أن يضيفوهما " فاستحق أهل القرية لذلك أن يذموا، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام. قال قتادة في هذه الآية: شر

القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألوا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء. وقد تقدم القول في الضيافة في " هود " (١)

والحمد لله. ويعفو الله عن الحريري (٢) حيث استخف في هذه الآية وتمجن، وأتى بخلط من القول وزل، فاستدل بها على الكدية (٣) والالاحاح فيها، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله،

ولا منقصة عليه، فقال:

وإن رددت فما في الرد منقصة * عليك قد رد موسى قبل والخضر قلت: وهذا لعب بالدين، وانسلال عن احترام النبيين، وهي شنشنة أدبية، وهفوة سخافية، ويرحم الله السلف الصالح، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما

كنت لاعبا بشئ فأياك أن تلعب بدينك.

الخامسة - قوله تعالى: (جدارا) الجدار والجدر بمعنى، وفي الخبر: (حتى يبلغ الماء الجدر) (٤). ومكان جدير بني حوالية جدار، وأصله الرفع. وأجدرت الشجرة طلعت،

ومنه الجدري.

السادسة - قوله تعالى: (يريد أن ينقض) أي قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله: (مائل) فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو

مذهب الجمهور. وجميع الافعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد

أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممثلا لذلك الفعل، وهذا في كلام

العرب وأشعارها كثير، فمن ذلك قول الأعشى:

(١) راجع ج ٩ ص ٦٤ فما بعد.

(٢) هو صاحب المقامات المشهورة والبيت

الذي لمح فيه إلى الآية من مقامته (الصعدية)، في ك: تسخف.

(٣) الكدية: تكفف الناس.

(٤) الحديث في مخاصمة الزبير لرجل من الأنصار في سيول شريح الحرة فقال صلى الله عليه وسلم: " إسق

يا زبير

ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر " أراد ما دفع حول المزرعة كالجدار.

أنتهون ولا ينهي ذوي شطط (١) * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل
فأضاف النهي إلى الطعن. ومن ذلك قول الآخر:

يريد الرمح صدر أبي براء * ويرغب عن دماء بني عقيل
وقال آخر:

إن دهرا يلف شملي بجمل * لزمان يهيم بالاحسان
وقال آخر:

في مهمه فلقت به هاماتها * فلق الفؤس إذا أردن نصولا
أي ثبوتا في الأرض، من قولهم: نصل السيف إذا ثبت في الرمية، فشبهه وقع السيوف
على رؤوسهم بوقع الفؤس في الأرض، فإن الفأس يقع فيها ويثبت لا يكاد يخرج. وقال
حسان بن ثابت:

لو أن اللؤم ينسب كان عبدا * قبيح الوجه أعور من ثقيف
وقال عنتره:

فازور من وقع القنا بلبانه * وشكا إلي بعبرة وتحمحم
وقد (٢) فسر هذا المعنى بقوله:

* لو كان يدري ما المحاورة اشتكى *

وهذا في هذا المعنى كثير جدا. ومنه قول الناس: إن داري تنظر إلى دار فلان.
وفي الحديث: (اشتكت النار إلى ربها). وذهب قوم إلى منع المجاز في القرآن، منهم
أبو إسحاق الأسفرايني وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني وغيرهما، فإن كلام الله عز
وجل

وكلام رسوله حملة على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين، لأنه يقص الحق كما أخبر
الله

تعالى في كتابه. ومما احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه
متجاوز

(١) الشطط: الجور والظلم يقول لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن الجائف الذي يغيب فيه الفتل.

(٢) أي عنتره وتمام البيت:

* ولكان لو علم الكلام مكلمي *

أيضا، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة، وهو على الله تعالى محال، قال الله تعالى: " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون " (١) [النور: ٢٤] وقال تعالى: " وتقول هل من مزيد " (٢) [ق: ٣٠] وقال تعالى: " إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها

تغيظا وزفيرا " (٣) [الفرقان: ١٢] وقال تعالى: " تدعو من أدبر وتولى " (٤) [المعارج: ١٧] و (اشتكت النار إلى ربها) واحتجت النار والجنة) وما كان مثلها حقيقة، وأن خالقها الذي أنطق كل شيء أنطقها. وفي صحيح

مسلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم (فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر (٥) من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه).

هذا في الآخرة. وأما في الدنيا، ففي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الانس وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده) [قال أبو عيسى: (٦):

وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب. السابعة - قوله تعالى: (فأقامه) قيل: هدمه ثم قعد بينيه. فقال موسى للخضر: " لو شئت لاتخذت عليه أجرا " لأنه فعل يستحق أجرا. وذكر أبو بكر الأنباري عن ابن

عباس عن أبي بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: " فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد بينيه " قال أبو بكر: وهذا الحديث إن صح سنده فهو جار من الرسول عليه الصلاة

والسلام مجرى التفسير للقرآن، وأن بعض الناقلين أدخل [تفسير] (٧) قرآن في موضع فسرى أن

ذلك قرآن نقص من مصحف عثمان، على ما قاله بعض الطاعنين، وقال سعيد بن جبير: مسحه بيده وأقامه فقام، وهذا القول هو الصحيح، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام، بل والأولياء، وفي بعض الاخبار: إن سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً
بذراع ذلك القرن، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع، وعرضه خمسون ذراعاً، فأقامه
الخنصر

-
- (١) راجع ج ١٢ ص ٢١٠.
 - (٢) راجع ج ١٧ ص ١٨.
 - (٣) راجع ج ١٣ ص ٦.
 - (٤) راجع ج ١٨ ص ٢٨٦ فما بعد.
 - (٥) ليعذر: بالبناء للفاعل من الاعذار والمعنى: ليزيل الله
عذره من قبل نفسه.
 - (٦) الزيادة من صحيح الترمذي.
 - (٧) زيادة يقتضيها السياق.
- وفي الأصول: (أدخل قرآنا... الخ).

عليه السلام أي سواه بيده فاستقام، قاله الثعلبي في كتاب العرايس: فقال موسى للخضر:

" لو شئت لاتخذت عليه أجرا " أي طعاما نأكله، ففي هذا دليل على كرامات الأولياء، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر عليه السلام في هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة، هذا

إذا تنزلنا على أنه ولي لا نبي.

وقول تعالى: " وما فعلته عن أمري " [الكهف: ٨٢] يدل على نبوته وأنه يوحى إليه بالتكليف (١) والاحكام،

كما أوحى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول، والله أعلم. الثامنة - واجب على الانسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع في المشي إذا كان مارا عليه، لان في حديث النبي عليه الصلاة والسلام (إذا مر

أحدكم بطربال مائل فليسرع المشي). قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كان أبو عبيدة يقول:

الطربال شبيه بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصومعة، والبناء المرتفع، قال جرير:

ألوى (٢) بها شذب العروق مشذب * فكأنما وكنت على طربال
يقال منه: وكن يكن إذا جلس، وفي الصحاح: الطربال القطعة العالية من الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطرايب الشام صوامعها. ويقال: طربل بوله إذا مده إلى فوق.

التاسعة - كرامات الأولياء ثابتة، على ما دلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الحائد، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم

من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء - على ما تقدم - وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهي ليست بنبية، على الخلاف. ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. قال بعض العلماء: ولا يجوز أن يقال كان نبيا، لان إثبات النبوة لا يجوز بأخبار

(١) كذا في كوى. وفي اوج و ح: التكليف.

(٢) ألوى: ذهب بها حيث أراد.

شذب العروق: ظاهر العروق لقلة اللحم، من قولهم: رجل مشذب أي خفيف قليل اللحم.

الآحاد، لا سيما وقد روي من طريق التواتر - من غير أن يحتمل تأويلا - بإجماع الأمة قوله عليه

الصلاة والسلام: (لا نبي بعدي) وقال تعالى: " وخاتم النبيين " (١) [الأحزاب: ٤٠] والخضر و [إلياس] (٢) جميعا باقيان مع هذه الكرامة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا

عليه الصلاة والسلام نبي، إلا ما قامت الدلالة في حديث عيسى أنه ينزل بعده. قلت: [الجمهور أن] (٣) الحضرة كان نبيا - على ما تقدم - وليس بعد نبينا عليه الصلاة

والسلام نبي، أي يدعي النبوة بعده ابتداء الله أعلم. العاشرة - اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي أم لا؟ على قولين: أحدهما - أنه لا يجوز، وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن

يكون مكررا واستدراجا له، وقد حكى عن السري أنه كان يقول: لو أن رجلا دخل بستانا

فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح: السلام عليك يا ولي الله فلو لم يخف أن يكون

ذلك مكررا لكان ممكورا به، ولأنه لو علم أنه ولي لزال عنه الخوف، وحصل له الامن. ومن

شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: " تنزل عليهم

الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا " (٤) [فصلت: ٣٠] ولأن الولي من كان مختوما له بالسعادة، والعواقب مستورة

ولا يدري أحد ما يختم له به، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام (إنما الأعمال بالخواتيم).

القول الثاني - أنه يجوز للولي أن يعلم أنه ولي، ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام يجوز

أن يعلم أنه ولي، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم (٥) أنه ولي الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك.

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام من حال العشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن

في ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وهيبه، فإذا جاز

للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم. وكان الشبلي يقول: أنا أمان
هذا
الجانب، فلما مات ودفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، واستولوا على بغداد، ويقول
الناس:
مصبيتان موت الشبلي وعبور الديلم. ولا يقال: إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجا لأنه

-
- (١) راجع ج ١٤ ص ١٩٦.
 - (٢) في الأصول: (دانيال) وهو تحريف.
 - (٣) من ج وك وى.
 - (٤) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧.
 - (٥) في ك وى: أن يعرفه.

لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبي وولي الله، لجواز أن يكون ذلك استدراجاً، فلما لم يجر ذلك لان فيه إبطال المعجزات لم يجر هذا، لان فيه إبطال الكرامات. وما روي من ظهور الكرامات على يدي بلعام وانسلاخه عن الدين بعدها لقوله: " فانسلخ منها " (١) [الأعراف: ١٧٥] فليس في الآية أنه كان ولياً ثم انسلاخت عنه الولاية. وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجري مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم، والله أعلم. والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الاظهار. وقيل: الكرامة ما تظهر من غير دعوى والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك. وقد تقدم في مقدمة الكتاب شرائط المعجزة، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له. وأما الأحاديث الواردة في الدلالة على ثبوت الكرامات، فمن ذلك ما خرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري (٢) وهو جد (٣) عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهي بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فنفروا إليهم قريباً من مائتي راجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا ماكلهم تمرًا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم، فلما رأهم عاصم وأصحابه لجؤا إلى فدغد (٤)، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: أنزلوا فأعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما فوالله لا أنزل اليوم في ذمة الكافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموا بالنبل فقتلوا عاصمًا في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم خبيب الأنصاري وابن الدثنة ورجل آخر (٥)، فلما

استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر!
والله
لا أصحابكم، إن لي في هؤلاء لأسوة - يريد القتل - فجزروه وعالجوه على أن
يصحبهم
فلم يفعل فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع
خبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحرث
بن

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٩ (٢) وقيل: أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي (٣) قال القسطلاني: هذا وهم،
وإنما هو حال عاصم لان أم عاصم جميلة بنت ثابت (٤) فدغد: رابية مشرفة (٥) الرجل الآخر هو عبد الله
بن طارق

عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا، فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته، فأخذ ابن لي وأنا غافلة حتى

أتاه، قالت: فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، [قالت] (١): ففزعت فرعة عرفها خبيب

في وجهي، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لافعل ذلك. قالت: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل [من] (٢) قطف عنب في يده، وإنه لموثق

بالحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله تعالى خبيبا، فلما خرجوا به

من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: دعوني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين ثم قال:

لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لزدت (٣)، ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم

بدا، ولا تبق منهم أحدا، ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما * على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله بنو الحرث، وكان خبيب هو الذي سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبورا، فاستجاب

الله تعالى لعاصم يوم أصيب، فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا.

وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشئ منه يعرفونه، وكان

قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله على عاصم مثل الظلة من الدبر (٤) فحتمته من رسلهم،

فلم يقدر على أن يقطعوا من لحمه شيئا. وقال ابن إسحاق في هذه القصة: وقد كانت هذيل

حين قتل عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد (٥)، وقد كانت

نذرت حين أصاب ابنها بأحد لئن قدرت على رأسه لتشربن في قحفه (٦) الخمر فمنعهم الدبر،

فلما حالت بينه وبينهم قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله تعالى الوادي

فاحتمل عاصما فذهب، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدا ألا يمس مشركا ولا
يمسه مشرك
أبدا في حياته، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما امتنع منه في حياته. وعن عمرو بن أمية
الضمري:

-
- (١) من ج وك وى.
(٢) من ج وى.
(٣) في ك: لطولتهما.
(٤) الدبر: الزنابير أو ذكور
النحل.
(٥) في ج وى: الشهيد.
(٦) القحف: الجمجمة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه عينا وحده فقال: جئت إلى خشبة خبيب
فرقيت فيها
وأنا أتخوف العيون فأطلقتها، فوقع في الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا، ثم ألتفت
فكأنما
ابتلعتة الأرض. وفي رواية أخرى زيادة: فلم نذكر لخبيب رمة حتى الساعة، ذكره
البيهقي.
الحادية عشرة - ولا ينكر أن يكون للولي مال وضیعة يصون بها وجهه (١) وعياله،
وحسبك
بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم، وهم الحجة على غيرهم. وفي صحيح مسلم
عن أبي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا في
سحابة
اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فافرغ ماءه في حرة (٢) فإذا شرجة من تلك
الشراج قد
استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته
(٣) فقال
يا عبد الله ما أسمك قال فلان الاسم الذي سمعه في السحابة فقال له يا عبد الله لم
سألتنني عن
اسمي قال إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان
لاسمك
فما تصنع فيها قال أما إذ قلت هذا فإنني أنظر إلى ما يخرج منها فأصدق بثلثه وأكل أنا
وعيالي
ثلثا وأرد فيها ثلثه) وفي رواية (وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل).
قلت: وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام: (لا تتخذوا الضیعة فتركنوا
إلى الدنيا) خرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن، فإنه محمول
على
من اتخذها مستكثرا أو متنعما وامتتعا بزهرتها، وأما من اتخذها معاشا يصون بها دينه
وعياله
فاتخذها بهذه النية من أفضل الأعمال، وهي من أفضل الأموال، قال عليه الصلاة
والسلام:
(نعم المال الصالح للرجل الصالح). وقد أكثر الناس في كرامات الأولياء وما ذكرناه فيه
كفاية، والله الموفق للهداية.
الثانية عشرة - قوله تعالى: " لاتخذت عليه أجرا " فيه دليل على صحة جواز الإجارة،

وهي سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانه في سورة " القصص " (٤) إن شاء الله
تعالى. وقرأ
الجمهور " لاتخذت " وأبو عمرو " لتخذت " وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة،
وهما

-
- (١) من ج وك وى. وهذا أشبه.
(٢) حرة: أرض ذات حجارة سود. والشرجة: طريق الماء ومسيله.
(٣) المسحاة: المحرفة من الحديد.
(٤) راجع ج ١٣ ص ٢٦٧.

لغتان بمعنى واحد من الاخذ، مثل قولك: تبع واتبع، وتقى واتقى. وأدغم بعض القراء
الذال
في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أبي بن كعب: لو شئت لأوتيت أجرا).
وهذه
صدرت من موسى سؤالا على جهة العرض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: "
هذا
فراق بيني وبينك " بحكم ما شرطت على نفسك. وتكريره " بيني وبينك " وعدوله عن
بيننا لمعنى
التأكيد. قال سيبويه: كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك، أي منا. وقال ابن
عباس:
وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من
الدينا،
فكان سبب الفراق. وقال وهب بن منبه: كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة
ذراع.
الثالثة عشرة - قوله تعالى: (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) تأويل الشيء
مآله أي قال له: إني أخبرك لم فعلت ما فعلت. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت
لموسى مع الخضر: إنها حجة على موسى لا عجبا له. وذلك أنه لما أنكر أمر حرق
السفينة
نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في الثابوت مطروحا في اليم! فلما أنكر
أمر
الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكرك القبطي وقضائك عليه! فلما أنكر إقامة الجدار
نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجرا!
قوله تعالى: أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت
أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام
فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا
أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار
فكان لغلामين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما
صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك
وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٨٢)

قوله تعالى: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) استدلال بهذا من قال: إن المسكين أحسن حالا من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفي في سورة "براءة" (١).

وقد وقيل: إنهم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون على قلت (٢) في لجة بحر، وبحال

ضعف عن مدافعة خطب عبر عنهم بمساكين، إذ هم في حالة يشفق عليهم بسببها، وهذا

كما تقول لرجل غني وقع في وهلة أو خطب: مسكين. وقال كعب وغيره: كانت عشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم خمسة زمني، وخمسة يعملون في البحر. وقيل: كانوا سبعة لكل واحد منهم زمانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقاش أسماءهم، فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما، والثاني أعور، والثالث أعرج، والرابع آدر، والخامس محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم، والخمسة الذين لا يطيقون

العمل: أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس

والروم، ذكره الثعلبي. وقرأت فرقة: "لمساكين" بتشديد السين، واختلف في ذلك فقيل: هم ملاحو السفينة، وذلك أن المساك هو الذي يمسك رجل السفينة، وكل الخدمة

تصلح لامساكه فسمى الجميع مساكين. وقالت فرقة: أراد بالمساكين دبغة المسوك وهي

الجلود واحدها مسك. والأظهر قراءة: "مساكين" بالتخفيف جمع مسكين، وأن معناها:

إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم. والله أعلم.

قوله تعالى: (فأردت أن أعيبها) أي أجعلها ذات عيب، يقال: عبت الشيء فعاب إذا صار ذا عيب، فهو معيب وعائب. وقوله: (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا)

قرأ ابن عباس وابن جبير: (صحيحة) وقرأ أيضا ابن عباس وعثمان بن عفان (صالحة). و (وراء) أصلها بمعنى خلف، فقال بعض المفسرين: إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه.

والأكثر على أن معنى (وراء) هنا أمام، يعضده قراءة ابن عباس وابن جبير "وكان أمامهم ملك

يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا". قال ابن عطية: "وراءهم" هو عندي على بابه، وذلك

(١) راجع ج ٨ ص ١٦٨ فما بعد.
(٢) من ج وك وى: أي على شرف هلاك أو خوف. في ط الأولى قلة وليست بصواب.

أن هذه الألفاظ إنما تجئ مراعى بها الزمان وذلك أن الحدث (١) المقدم الموجود هو الامام،

والذي يأتي بعده هو الوراثة وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بايدي الرأي، وتأمل هذه

الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، فهذه الآية معناها: إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك، ومن قرأ " أمامهم " أراد في المكان، أي

كأنهم يسيرون إلى بلد، وقوله عليه الصلاة والسلام: (الصلاة أمامك) (٢) يريد في المكان،

وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان، وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من

شغب هذه الألفاظ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري " وكان وراءهم ملك " قال قتادة: أمامهم ألا تراه يقول: من " ورائهم جهنم " (٣) وهي بين أيديهم، وهذا القول غير مستقيم،

وهذه هي العجمة التي كان الحسن بن أبي الحسن يضح منها، قاله الزجاج. قلت: وما اختاره هذا الامام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة، قال الهروي قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال " من ورائه " وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو علي قطرب أن هذا من الأضداد، وأن وراء في معنى قدام، وهذا غير محصل، لان أمام ضد وراء، وإنما يصلح هذا [في الأماكن] (٤) والأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعدا في رجب لرمضان ثم قال: ومن ورائك شعبان لجاز وإن كان أمامه، لأنه يخلفه إلى وقت وعده، وأشار إلى هذا القول أيضا القشيري وقال: إنما يقال هذا في الأوقات، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك، قال الفراء: وجوزه غيره، والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك، فأخبر الله تعالى

الخضر حتى عيب السفينة، وذكره الزجاج. وقال الماوردي: اختلف أهل العربية في استعمال

وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال: أحدها - يجوز استعمالها بكل حال وفي كل مكان وهو

من الأضداد قال الله تعالى: " من ورائهم جهنم " [الجاثية: ١٠] أي من أمامهم: وقال الشاعر: (٥)

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي * وقومي تميم والفلاة ورائيا

(١) في ج وك وى: الحادث المقدم الموجود.

(٢) الحديث في الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة.

- (٣) راجع ج ١٦ ص ١٥٩.
- (٤) من ج وك وى.
- (٥) هو سوار بن المضرب.

يعني أمامي. والثاني - أن وراء تستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان لان الانسان قد يجوزها فتصير وراءه ولا يجوز في غيرها. الثالث - أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز في غيرهما، وهذا قول

علي بن عيسى. واختلف في اسم هذا الملك فقيل: هدد بن بدد. وقيل: الجلندي، وقاله السهيلي. وذكر البخاري اسم الملك الآخذ لكل سفينة غضبا فقال: هو [هدد بن بدد والغلام المقتول] (١) اسمه جيسور، وهكذا قيدناه في (الجامع) من رواية يزيد المروزي، وفي غير

هذه الرواية جيسور بالحاء وعندني في حاشية الكتاب رواية ثالثة: وهي حيسون. وكان يأخذ كل سفينة جيدة غضبا فلذلك عابها الخضر وخرقها، ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا

تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه، وقد تقدم. وفي صحيح مسلم وجه

الحكمة بخرق السفينة وذلك قوله: فإذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها، فأصلحوها بخشبة، الحديث. وتحصل من هذا الحض على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن

ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" (٢) [البقرة: ٢١٦].

قوله تعالى: (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين) جاء في صحيح الحديث: (أنه طبع يوم طبع كافرا) وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خيرا عنه مع كونه بالغا،

وقد تقدم. [هذا المعنى] (٣).

قوله تعالى: (فخشينا أن يرهقهما) قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين، أي خفنا (أن يرهقهما طغيانا

وكفرا)، وكان الله قد أباح له الاجتهاد في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو من كلام الله تعالى وعنه عبر الخضر. قال الطبري: معناه فعلمنا، وكذا قال ابن عباس أي فعلمنا،

وهذا كما كنى عن العلم بالخوف في قوله "إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله" (٢) [البقرة: ٢٢٩]. وحكى أن

أبيا قرأ: "فعلم ربك" وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، يقال: فرقت بينهما خشية أن

-
- (١) الزيادة من صحيح البخاري.
(٢) راجع ج ٣ ص ٣٩ و ص ١٣٧.
(٣) من ج وك وى.

يقتتلا، أي كراهة ذلك. قال ابن عطية: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة، أي على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية

الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود " فخاف ربك " وهذا بين في الاستعارة، وهذا نظير ما وقع

في القرآن في جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما في هذا كله من ترج وتوقع وخوف

وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون. و " يرهقهما " يجشمهما ويكلفهما، والمعنى أن

يلقيهما حبه في اتباعه فيضلا ويتدينا بدينه.

قوله تعالى: (فأردنا أن يبدلها ربهما) قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال، وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال، أي أن يرزقهما الله ولدا. (خيرا منه زكاة) أي دينا وصلاحا،

يقال: بدل وأبدل مثل مهل وأمهل ونزل وأنزل. (وأقرب رحما) قرأ ابن عباس " رحما "

بالضم، قال الشاعر:

وكيف بظلم جارية * ومنها اللين والرحم

الباقون بسكونها، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يا منزل الرحم على إدريسا * ومنزل اللعن على إبليسا

واختلف عن أبي عمرو. و " رحما " معطوف على " زكاة " أي رحمة، يقال: رحمه رحمة ورحما، وألفه للتأنيث، ومذكره رحم. وقيل: إن الرحم هنا بمعنى الرحم، قرأها ابن عباس. " وأوصل رحما " أي رحما، وقرأ أيضا " أزكى منه ". وعن ابن جبير وابن جريج أنهما بدلا جارية، قال الكلبي فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى

على يديه أمة من الأمم. قتادة: ولدت أثنى عشر نبيا، وعن ابن جريج أيضا أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا. وعن ابن عباس: فولدت جارية ولدت نبيا، وفي رواية: أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نبيا، وقاله جعفر بن محمد عن أبيه،

قال علمائنا: وهذا بعيد ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم،

ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلم

للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد وحننا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما. فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى،

فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب.

قوله تعالى: (وأما الجدار فكان لغلامين) هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتيم، واسمهما أصرم وصريم (١). وقد قال عليه الصلاة والسلام: (لا يتم بعد بلوغ) هذا

هو الظاهر. وقد يحتمل أن يبقى عليهما أسم اليتيم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة

عليهما. وقد تقدم (٢) أن اليتيم في الناس من قبل فقد الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قبل

فقد الام. ودل قوله: " في المدينة " على أن القرية تسمى مدينة، ومنه الحديث (أمرت بقرية (٣) تأكل القرى) وفي حديث الهجرة (لمن أنت) فقال الرجل: من أهل المدينة، يعني مكة.

قوله تعالى: (وكان تحته كنز لهما) اختلف الناس في الكنز، فقال عكرمة وقتادة: كان مالا جسيما وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو في اللغة المال المجموع، وقد مضى القول (٤)

فيه. وقال ابن عباس: كان علما في صحف مدفونة. وعنه أيضا قال: كان لوحا من ذهب

مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، عجبت لمن يؤمن

بالرزق كيف يتعب، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف

يغفل، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غفرة، ورواه عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي

صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: (وكان أبوهما صالحا) ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنية (٥). وقيل:

هو الأب السابع، قاله جعفر بن محمد. وقيل: العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكر بصلاح، وكان

يسمى كاشحا، قاله مقاتل اسم أمهما دنيا (٦)، ذكره النقاش (٧). ففيه ما يدل على أن

الله تعالى

-
- (١) في ج وك وى: أصيرم.
(٢) راجع ج ٢ ص ١٤.
(٣) القرية هي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام،
ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدي أهلها من المدن ويصيبون من غنائمها.
(٤) راجع ج ٨ ص ١٢٣.
(٥) دنية: لحا وهو الأب الأقرب.
(٦) في روح المعاني: دهننا.
(٧) في ى: النحاس.

يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه. وقد روي أن الله تعالى يحفظ الصالح

في سبعة من ذريته (١)، وعلى هذا يدل قوله تعالى: "إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين" (٢) [الأعراف: ١٩٦].

قوله تعالى: (وما فعلته عن أمري) يقتضي أن الخضر نبي، وقد تقدم الخلاف في ذلك. (ذلك تأويل) أي تفسير. (ما لم تسطع عليه صبرا) قرأت فرقة: "تستطيع". وقرأ الجمهور: "تسطع" قال أبو حاتم: كذا نقرأ كما في خط المصحف. وهنا خمس مسائل:

الأولى - إن قال قائل: لم يسمع لفتى موسى ذكر في أول الآية ولا في آخرها، قيل له: اختلف في ذلك، فقال عكرمة لابن عباس: لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟

فقال: شرب الفتى من الماء فخلد، وأخذ العالم فطبق عليه سفينة (٣) ثم أرسله في البحر،

وإنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه. قال القشيري: وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون، فإن يوشع بن نون قد عمر بعد موسى

وكان خليفته، والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس:

يحتمل أن يكون أكتفي بذكر المتبوع عن التابع والله أعلم.

الثانية - إن قال قائل: كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى، وقال في حرق السفينة: "فأرادت أن أعيبها" فأضاف العيب إلى نفسه؟ قيل له: إنما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في زمن طويل غيب من الغيوب،

فحسن أفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد ذلك فالذي أعلمه الله

تعالى أن يريده. وقيل: لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: "وإذا مرضت فهو يشفين" (٤) فأسند

الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح، وهذا كما

-
- (١) في هامش ج: ذويه.
(٢) راجع ج ٧ ص ٣٤٢.
(٣) في ج وك: سفينته.
(٤) راجع ج ١٣ ص ١١٠.

قال (١) تعالى: " بيدك الخير " (٢) [آل عمران: ٢٦] وأقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير. ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام

عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني واستطعمك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني) فإن ذلك تنزل في الخطاب وتلطف في العتاب مقتضاه

التعريف بفضل ذي الجلال وبمقادير ثواب هذه الأعمال. وقد تقدم هذا المعنى. والله تعالى أعلم. والله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من

الأوصاف الجميلة والافعال الشريفة. جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا. وقال في الغلام: " فأردنا " فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى. والأشد كمال

الخلق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في " الانعام " (٣) والحمد لله.

الثالثة - قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها

على الأنبياء (٤) والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل

إنما يزداد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا:

وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق

الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام

الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى

من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب، لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله

السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته (٥) وكلامه المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم

لذلك، وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: " الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن
الناس

-
- (١) في ج وك وى: قاله.
(٢) راجع ج ٤ ص ٥٥.
(٣) راجع ج ٧ ص ١٣٤ فما بعد.
(٤) كذا في الأصول وهو واضح.
(٥) في ج وك وى: رسالاته.

إن الله سميع بصيرا " (١) [الحج: ٧٥] وقال تعالى: " الله أعلم حيث يجعل رسالته " (٢) [الانعام: ٢٤١] وقال تعالى: " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " (٣) [البقرة: ٢١٣] [الآية] (٤) إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شئ منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقا آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسوله، فلا نبى بعده ولا رسول. وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه [هو] (٤) حكم الله تعالى وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله [رسول الله] (٤) عليه الصلاة والسلام: (إن روح القدس نفث في روعي) الحديث.

الرابعة - ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم. وقالت فرقة: [إنه] (٤) حي لأنه شرب من عين الحياة، وأنه باق في الأرض وأنه يحج البيت. قال ابن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، وكلها لا تقوم على ساق. ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له في ملة الاسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره. ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه السلام: (أرأيتمكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد) (٥).

قلت: إلى هذا ذهب البخاري واختاره القاضي أبو بكر بن العربي، والصحيح القول الثاني وهو أنه حي على ما ذكره. وهذا والحديث خرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله

ابن عمر قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال: (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على

(١) راجع ج ١٢ ص ٩٨.

(٢) هذه قراءة نافع التي كان يقرأ بها المفسر. راجع ج ٧ ص ٧٩.

(٣) راجع ج ٣ ص ٣٠.

(٤) من ج وك وى.

(٥) الحديث كما في الأصول تصحيحه بما يأتي بعد.

ظهر الأرض أحد) قال ابن عمر: فوهل (١) الناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك

فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال [رسول الله] (٢) عليه الصلاة والسلام:

(لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد) يريد بذلك أن ينحرم ذلك القرن. ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت

بشهر: (تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة (٣) تأتي عليها مائة سنة) وفي أخرى قال سالم: تذاكرنا أنها (هي مخلوقة يومئذ).

وفي أخرى: (ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ). وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال: نقص (٤) العمر. وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث

قال علماؤنا: وحاصل ما تضمنه هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته

بشهر أن كل من كان من بني آدم موجودا في ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة، لقوله عليه الصلاة

والسلام: (ما من نفس منفوسة) وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح

عنهم أنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل، لقوله: (ممن هو على ظهر الأرض أحد) وهذا

إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل، فتعين أن المراد بنو آدم. وقد بين ابن عمر هذا المعنى،

فقال: يريد بذلك أن ينحرم ذلك القرن. ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول: إن

الخضر حي لعموم قوله: (ما من نفس منفوسة) لان العموم وإن كان مؤكدا الاستغراق فليس نصا

فيه، بل هو قابل للتخصيص. فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو

حي بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه حي بدليل حديث الجساسة (٥)،

فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهد للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر

ببالهم حالة

مخاطبة بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله. وقد قيل: إن أصحاب الكهف أحياء

(١) وهل إلى الشيء كضرب أي غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب والمعنى أن الصحابة رضي الله عنهم غلطوا وذهب وهمهم إلى خلاف الصواب في تأويل مقالة النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول: تقوم الساعة

عند انقضاء مائة سنة فبين ابن عمر مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن. ويجوز

وهل كتعب.

(٢) من ج وى.

(٣) منقوسة: مولودة.

(٤) في ج وى: بعض العمر.

(٥) الجساسة: دابة الأرض التي تخرج آخر الزمان وسميت جساسة لتجسسها الاخبار للدجال.

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدم. وكذلك فتى موسى في قول ابن عباس
كما ذكرنا. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب (العرائس) له: والصحيح أن الخضر
(١) نبي معمر
محجوب عن الابصار، وروى محمد بن المتوكل عن [ضمرة بن ربيعة] عن عبد الله
ابن [شوذب] (٢) قال: الخضر عليه السلام من ولد فارس، وإلياس من بني إسرائيل
يلتقيان كل
عام في الموسم. وعن عمرو بن دينار قال: إن الخضر وإلياس لا يزالان حيين في
الأرض
ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا. وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي
ابن محمود بن عبد المعطي اللخمي في شرح الرسالة له للقشيري حكايات كثيرة عن
جماعة من الصالحين
والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غلبة الظن بحياته مع
ما ذكره
النقاش والثعلبي وغيرهما. وقد جاء في صحيح مسلم: (أن الدجال ينتهي إلى بعض
السيابح
التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو - من خير الناس)
الحديث،
وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني (٣) أن هذا الرجل هو الخضر. وذكر ابن أبي الدنيا
في كتاب
الهواتف: بسند يرفعه (٤) إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه لقي الخضر
وعلمه
هذا الدعاء، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله في أثر كل صلاة، وهو:
يا من
لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا تغلظه المسائل، ويا من لا يتبرم من إلحاح
الملحين، أذقني
برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا
الدعاء
بعينه نحو ما ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في سماعه من الخضر.
وذكر
أيضا اجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام. وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي
صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت في كل
حول،

وأُنهما يقولان عند افتراقهما: (ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله
الله
ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله ما شاء الله ما شاء الله، توكلت على الله، حسبنا
الله
ونعم الوكيل) وأما خبر إِيّاس فيأتي في " الصافات " (٥) إن شاء الله تعالى. وذكر أبو
عمر

-
- (١) في ج وك: والخضر على جميع الأقوال.
(٢) الزيادة والتصويب من (عقد الجمان) للعيّني نقلاً
عن الثعلبي. وفي ج وك وى: روى محمد بن المتوكل عن ضمرة عن عبد الله بن سوار ".
(٣) في ج وك
وى: يقال (٤) كذا في ا وك وفي ج: يوقفه (٥) راجع ج ١٥ ص ١١٥.

ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) عن علي رضي الله تعالى عنه قال: لما توفي النبي صلى الله

عليه وسلم وسجي بثوب هتف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم أهل البيت " كل نفس ذائقة الموت " (١) [أل عمران: ١٨٥]

- الآية - إن في الله خلفا من كل هالك، وعوضا من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب. فكانوا يرون أنه الخضر عليه الصلاة والسلام. يعني أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام. والألف واللام في قوله: (علي الأرض) للعهد لا للجنس وهي أرض العرب، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالبا دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه.

ولا جواب عن الدجال.

قال السهيلي: واختلف في اسم الخضر اختلافا متباينا، فعن ابن منبه أنه قال: أيليا ابن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو ابن عاميل بن سماقحين

ابن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق، وأن أباه كان ملكا، وأن أمه كانت بنت فارس واسمها

ألمى، وأنها ولدتها في مغارة، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه في كل يوم من غنم رجل من القرية،

فأخذه الرجل فرباه، فلما شب وطلب الملك - أبوه - كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممن أقدم عليه من الكتاب ابنه الخضر

وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطه ومعرفته وبحث عن جلية أمره عرف أنه ابنه (٢) فضمه

لنفسه (٣) وولاه أمر الناس ثم إن الخضر فر من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين

الحياة فشرب منها، فهو حي إلى أن يخرج الدجال، وأنه الرجل الذي يقتله الدجال ويقطعه

ثم يحييه الله تعالى. وقيل: لم يدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يصح. وقال

البخاري وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى: إنه مات قبل

انقضاء المائة، من قوله عليه الصلاة والسلام: (إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد) يعني من كان حيا حين قال هذه المقالة.

(١) راجع ج ٤ ص ٢٩٧.

(٢) في ج: عرف اسمه.

(٣) في ك: إلى نفسه.

قلت: قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه، وبيننا حياة الخضر إلى الآن، والله أعلم.
الخامسة - قيل إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أوصني،
قال: كن بساما ولا تكن ضحاکا، ودع اللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب
على

الخطائين خطاياهم وابك على خطيئتک يا ابن عمران.
قوله تعالى: ويسئلونک عن ذي القرنين قل سأتلوا علیکم منه
ذکرا (٨٣) إنا مکنا له في الأرض وآتيناه من کل شیء سببا (٨٤)
فأتبع سببا (٨٥) حتی إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين
حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب
وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم یرد
إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله
جزاء الحسنی وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨) ثم أتبع سببا (٨٩)
حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم
من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا (٩١)
قوله تعالى: (ويسئلونک عن ذي القرنين قل سأتلوا علیکم منه ذکرا) قال ابن إسحاق:
وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتى ما لم يؤت غيره،
فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد
إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا يطاء أرضا إلا سلط على أهلها، حتى انتهى من المشرق
والمغرب إلى ما ليس وراءه شیء من الخلق. قال ابن إسحاق: حدثني من يسوق
الأحاديث

عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان [رجلا] (١) من أهل
مصر اسمه مرزبان
ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح. قال ابن هشام: واسمه الإسكندر

(١) من ج وك وی.

وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه. قال ابن إسحاق: وقد حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلاعي - وكان خالد رجلا قد أدرك الناس - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذي القرنين فقال: (ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب). وقال خالد: وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين، فقال: [عمر] (١)

اللهم غفرا (٢) أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة! فقال ابن إسحاق:

فأله أعلم أي ذلك كان؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا؟ والحق ما قال.

قلت: وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه مثل قول عمر، سمع رجل يدعو آخر يا ذا القرنين، فقال علي: أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء

الملائكة! وعنه أنه عبد ملك (بكسر اللام) صالح نصح الله فأيده. وقيل: هو نبي مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض. وذكر الدارقطني في كتاب الاخبار أن ملكا يقال له

رباقيل (٣) كان ينزل على ذي القرنين، وذلك الملك هو الذي يطوي الأرض يوم القيامة،

وينقصها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة (٤)، فيما ذكر بعض أهل العلم. وقال السهيلي:

وهذا مشاكل بتوكيله بذي القرنين الذي قطع الأرض مشارقها ومغاربها، كما أن قصة خالد

ابن سنان في تسخير النار له مشاكلة بحال الملك الموكل بها، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع

الملائكة أجمعين. ذكر ابن أبي خيثمة في كتاب البدء له خالد بن سنان العبسي وذكر نبوته،

وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار، وكان من أعلام نبوته أن نارا يقال لها: نار

الحدثان، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردها، فردها خالد

ابن سنان فلم تخرج بعد. واختلف في اسم ذي القرنين وفي السبب الذي سمي به بذلك اختلافا

كثيرا، فأما اسمه فقيل: هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني، وقد تشدد قافه فيقال: المقدوني. وقيل: اسمه هرمس. ويقال: اسمه هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب

-
- (١) من ج وك وى.
(٢) في ج: عفوا.
(٣) كذا في الأصول وفي قصص الأنبياء
الثعلبي (رفائيل) وفي الدر المنثور (زرافيل).
(٤) الساهرة: أرض يحددها الله يوم القيامة.

ابن ذي يزن الحميري من ولد وائل بن حمير، وقد تقدم قول ابن إسحاق. وقال وهب بن منبه:

هو رومي. وذكر الطبري حديثا عن النبي عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم.

وهو حديث واهي السند، قاله ابن عطية. قال السهيلي: والظاهر من علم الاخبار أنهما اثنان: أحدهما - كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنه الذي قضى لإبراهيم عليه

السلام حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام. والآخر: أنه كان قريبا من عهد عيسى عليه السلام. وقيل: إنه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أرونداسب الملك الطاغي على عهد

إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان. وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به، فقيل: إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما، ذكره الثعلبي وغيره. والصفائر قرون الرأس، ومنه

قول الشاعر: (١)

فلثمت فاها آخذا بقرونها * شرب النزيف يبرد ماء الحشرج
وقيل: إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس، فقص ذلك، ففسر أنه سيغلب

ما ذرت عليه الشمس، فسمي بذلك ذا القرنين. وقيل: إنما سمي بذلك لأنه بلغ المغرب

والمشرق فكأنه حاز قرني الدنيا. وقالت طائفة: إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية

قرونها فسمي بذلك ذا القرنين، أو قرني الشيطان بها. وقال وهب بن منبه: كان له قرنان

تحت عمامته. وسأل ابن الكواء عليا رضي الله تعالى عنه عن ذي القرنين أنبيا كان أم ملكا؟

فقال: لاذا ولاذا، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجوه على قرنه، ثم دعاهم

فشجوه على قرنه الآخر، فسمي ذا القرنين. واختلفوا أيضا في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في الفترة بعد عيسى وقيل: كان في وقت إبراهيم وإسماعيل. وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم، وقد ذكرناه في " البقرة " (٢).

وبالجملة فإن الله تعالى مكنه وملكه ودانت له الملوك، فروي أن جميع ملوك الدنيا كلها

(١) هو عمر بن أبي ربيعة والنزيف: المحموم الذي منع من الماء والسكران. والحشرج: النقرة في الجبل
يجتمع فيها الماء فيصفو، والكوز الصغير اللطيف أيضا.
(٢) راجع ج ٣ ص ٢٨٩.

أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود وإسكندر، والكافران نمرود وبختنصر،

وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى: " ليظهره على الدين كله " (١) [التوبة: ٣٣] وهو المهدي

وقد قيل: إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه. وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي. وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابه جميعا. وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن. وقيل: لأنه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنه ملك فارس والروم. قوله تعالى: (إنا مكنا له في الأرض) قال علي رضي الله عنه: (سخر له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له في النور، فكان الليل والنهار عليه سواء. وفي حديث عقبة

ابن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين

فقال: (إن أول أمره كان غلاما من الروم فأعطي ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ أتاه ملك فعرج به فقال له أنظر ما تحتك قال أرى

مدينتي وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذي تراه محيطا بها

هو البحر وإنما أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فسر في الأرض.

فعلم الجاهل وثبت العالم) الحديث.

قوله تعالى: (وآتيناه من كل شيء سببا) قال ابن عباس: من كل شيء علما يتسبب به إلى ما يريد. وقال الحسن: بلاغا إلى حيث أراد. وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقيل: من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء. وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء. (فأتبع سببا) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: " فأتبع سببا " مقطوعة الألف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: " فأتبع سببا "

بوصلها، أي اتبع سببا من الأسباب التي أوتيتها. قال الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى، مثل ردفته وأردفته، ومنه قوله تعالى: " إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " (٢) [الصفات: ١٠] ومنه

الاتباع في الكلام مثل حسن بسن وقبيح شقيح. قال النحاس: وأختار أبو عبيد قراءة

(١) راجع ج ٨ ص ١٢٨ و ص ٢٩١ . و ج ١٨ ص ٨٦ .
(٢) راجع ج ١٥ ص ٦٤ .

أهل الكوفة قال: لأنها من السير، وحكى هو والأصمعي أنه يقال: تبعه واتبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد: ومثله، "فأتبعوهم مشرقين" (١). قال النحاس:

وهذا [من] (٢) التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاها لا يقبل إلا بعلة أو دليل. وقوله عز وجل:

"فأتبعوهم مشرقين" [الشعراء: ٦٠] ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى عليه

السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع

وأتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السير، فقد يجوز أن يكون معه لحاق وألا يكون.

(حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي "حامية" أي حارة. الباقون "حمئة" أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأً (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها. وحمئت البئر حمأً (بالتحريك) كثر

حمأتها. ويجوز أن تكون "حامية" من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء. وقد يجمع بين

القراءتين فيقال: كانت حارة وذات حمأة. وقال عبد الله بن عمرو: نظر النبي صلى الله عليه

وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال: (نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت

ما على الأرض). وقال ابن عباس: أقرأنيها أبي كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم

"في عين حمئة"، وقال معاوية: هي "حامية" فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فأنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا كعباً بينهم حكماً وقالوا: يا كعب كيف تجد هذا في التوراة؟

فقال: أجدها تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس. وقال الشاعر وهو تبع اليماني: قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً* ملكاً تدين له الملوك وتسجد

بلغ المغارب والمشارق بيتي* أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها* في عين ذي خلب وثأط حرم (٣)

الخلب: الطين. والثأط: الحمأة. والحرم: الأسود. وقال القفال قال بعض العلماء: ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جرمها ومسها، لأنها تدور

-
- (١) راجع ج ١٣ ص ١٠٥.
(٢) من ك.
(٣) حرمد (بالفتح والكسر) كجعفر وزبرج.

مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عين
من
عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر
العمارة
من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة، كما
أنا نشاهدها
في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض، ولهذا قال: " وجدها تطلع على قوم لم
نجعل لهم
من دونها سترا " ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد (١) أنهم
أول من تطلع
عليهم. وقال القتيبي: ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس
تغيب
وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه والله أعلم. (ووجد عندها
قوما) أي عند العين، أو عند نهاية العين، وهم أهل جابرس، ويقال لها بالسريانية:
جرجيسا، يسكنها قوم من نسل ثمود (٢) بقيتهم الذين آمنوا بصالح، ذكره السهيلي.
وقال وهب
ابن منبه: (كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره
وكان اسمه
الإسكندر، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله تعالى: يا ذا القرنين! إني باعثك إلى أمم
الأرض
وهم أمم مختلفة ألسنتهم، وهم أمم جميع الأرض، وهم أصناف: أمتان بينهما طول
الأرض
كله، وأمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس
ويأجوج
ومأجوج، فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك،
وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك. وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في
قطر
الأرض الأيمن يقال لها هاويل، وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها
تاويل.
فقال ذو القرنين: إلهي! قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت، فأخبرني عن هذه
الأمم بأي قوة أكثرهم؟ وبأي صبر أقاسيهم؟ وبأي لسان أناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه
لغتهم وليس عندي قوة؟ فقال الله تعالى: سأظفرك بما حملتك، أشرح لك صدرك
فتسمع

كل شئ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شئ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شئ، وأسخر
لك
النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحفظك الظلمة من
ورائك. فلما قيل له ذلك سار بمن اتبعه، فانطلق إلى الأمة التي عند مغرب الشمس،
لأنها

(١) في ك: المراد.
(٢) في ك: هود. ولعله خطأ من الناسخ.

كانت أقرب الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعا لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله. وألسنة مختلفة، وأهواء متشعبة فكأثرهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصد عنه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كل مكان، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجوا إلى الله تعالى بصوت واحد: إنا آمننا، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، ودخلوا في دعوته، فجند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جندا واحدا، ثم أنطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه، والنور أمامه يقوده ويدله، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم، فإذا قطع البحار والأنهار فتقها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكثر بحمله، فانتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشهم وأنطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله في الأولى، ثم كر مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تأويل، وهي الأمة التي تقابل هاويل بينهما عرض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها، ثم عطف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن الانس ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحه من الانس: يا ذا القرنين! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من

الانس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب، ويفترسون الدواب والوحش كما تفترسها
السيباع،
ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذي روح مما خلق
الله
تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم في العام الواحد، فإن طالت المدة

فسيملثون الأرض، ويجلون أهلها فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا؟

ذكر الحديث، وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية. قوله تعالى: (قلنا يا ذا القرنين) قال القشيري أبو نصر: إن كان نبيا فهو وحي، وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى. (إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) قال إبراهيم بن السرى: خيره بين هذين كما خير محمدا صلى الله عليه وسلم فقال: " فإن جاءوك

فاحكم بينهم أو أعرض عنهم " (١) [المائدة: ٤٢] ونحوه. وقال أبو إسحاق الزجاج: المعنى أن الله تعالى خيره

بين هذين الحكمين، قال النحاس: ورد علي بن سليمان عليه قوله، لأنه لم يصح أن ذا القرنين

نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: " ثم يرد إلى ربه "؟ وكيف يقول: " فسوف

نعذبه " فيخاطبه بالنون؟ قال: التقدير، قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين. قال أبو جعفر النحاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء. أما قوله: " قلنا يا ذا القرنين " فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا

كما قال لنبية: " فإما منا بعد وإما فداء " (٢) [محمد: ٤]، وأما إشكال " فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه "

فإن تقديره أن الله تعالى خيره بين القتل في قوله تعالى: " إما أن تعذب " وبين الاستبقاء في قوله عز وجل: " وإما أن تتخذ فيهم حسنا ". قال لأولئك القوم: (أما من ظلم) أي أقام

على الكفر منكم، (فسوف نعذبه) أي بالقتل: (ثم يرد إلى ربه) أي يوم القيامة: (فيعذبه عذابا نكرا) أي شديدا في جهنم. (وأما من آمن) أي تاب من الكفر: (وعمل صالحا) قال أحمد بن يحيى: (أن) في موضع نصب في (إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) قال: ولو رفعت كان صوابا بمعنى فإما هو، كما قال:

فسيرا فإما حاجة تقضيانها* وإما مقيل صالح وصديق

(فله جزاء الحسنى) قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم: " فله جزاء الحسنى " بالرفع على

الابتداء أو بالاستقرار. و " الحسنى " في موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة،

أي له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وهي الجنة، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله:

(١) راجع ج ٦ ص ١٨٢ فما بعد.
(٢) راجع ج ١٦ ص ٢٢٥ فما بعد.

" حق اليقين " (١) [الواقعة: ٩٥]، " ولد دار الآخرة " (٢) [الانعام: ٣٢]، قاله الفراء. ويحتمل أن يريد ب " الحسنى " الأعمال الصالحة . ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين، أي أعطيته وأفضل عليه. ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون " الحسنى " في موضع رفع على البدل عند البصريين، وعلى الترجمة عند الكوفيين، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحاق " فله جزاء الحسنى " إلا أنك لم تحذف التنوين، وهو أجود. وقرأ سائر الكوفيين " فله جزاء الحسنى " منصوبا
منونا، أي فله الحسنى جزاء. قال الفراء: " جزاء " منصوب على التمييز. وقيل: على المصدر،
وقال الزجاج: هو مصدر في موضع الحال، أي مجزيا بها جزاء. وقرأ ابن عباس ومسروق:
" فله جزاء الحسنى " منصوبا غير منون وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين
مثل " فله جزاء الحسنى " في أحد الوجهين [في الرفع] (٣). النحاس: وهذا عند غيره خطأ لأنه
ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ويكون تقديره: فله الثواب جزاء الحسنى. قوله تعالى: (ثم أتبع سببا) تقدم معناه أن أتبع وأتبع بمعنى أي سلك طريقا ومنازل. (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) وقرأ مجاهد وابن محيصن بفتح الميم واللام، يقال: طلعت الشمس والكواكب طلوعا ومطلعا. والمطلع والمطلع أيضا موضع طلوعها قاله الجوهري.
المعنى: أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس. والشمس
تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة فهذا معنى قوله تعالى: (وجدها تطلع على قوم). وقد اختلف
فيهم، فعن وهب بن منبه ما تقدم، وأنها أمة يقال لها منسك وهي مقابلة ناسك، وقاله مقاتل. وقال قتادة: يقال لهما (٤): الزنج وقال الكلبي: هم تارس وهاويل ومنسك، حفاة
عراة عمارة عن الحق، يتسافدون مثل الكلاب، ويتهارجون تهارج الحمر. وقيل: هم أهل
جابلق (٤) وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا. والذين
عند مغرب الشمس هم أهل جابرس (٥)، ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف

باب، وبين
كل بايين فرسخ. ووراء جابلق أمم وهم تافيل (٦) وتارس وهم يجاورون يأجوج
ومأجوج.

-
- (١) راجع ج ١٧ ص ٢٣٢.
(٢) راجع ج ١٠ ص ١٠٠ (٣) كذا في ك وى.
(٤) في ك: إنهم.
(٥) في ج: جابرلقا. جابرسا.
(٦) كذا في الأصول. وتقدم تأويل. ولعل هذا تحريف من النساخ.

وأهل جابرس وجابلق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام (مر بهم ليلة الاسراء فدعاهم فأجابوه،
ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه)، ذكره السهيلي وقال: اختصرت هذا كله من حديث
طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه
الطبري مسندا إلى مقاتل يرفعه، والله أعلم.
قوله تعالى: (لم نجعل لهم من دونها سترا) أي حجابا يستترون منها عند طلوعها. قال
قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، وهم
يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معاشهم وحروثهم، يعني لا
يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها. وقال أمية: وجدت رجلا بسمرقند يحدثون
الناس، فقال بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فقيل لي: إن بينك وبينهم مسيرة
يوم وليلة، فاستأجرت رجلا يرينهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه
ويلتحف بالأخرى وكان صاحبي يحسن كلامهم، فبتنا بهم، فقالوا: فيم جئتم؟ قلنا: جئنا ننظر
كيف تطلع الشمس، فبيننا نحن كذلك إذ سمعنا كهيفة الصلصلة، فغشي على ثم أفقت
وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذ هي على الماء كهيفة الزيت، وإذا
طرف السماء كهيفة الفسطاط، فلما ارتفعت أدخلوني سربا لهم، فلما ارتفع النهار
وزالت الشمس عن رؤوسهم خرجوا يصطادون السمك، فيطرحونه في الشمس فينضج. وقال
ابن جريج: جاءهم جيش مرة، فقال لهم أهلها: لا تطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما
نبرح حتى تطلع الشمس. قالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه والله عظام جيش طلعت عليهم
الشمس هاهنا فماتوا. قال فولوا هارين في الأرض. وقال الحسن: كانت أرضهم لا
جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا (١) في الماء،
فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم.
قلت: وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك. والله أعلم. وربما يكون منهم من
يدخل في النهر ومنهم من يدخل في السرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة.

(١) في ك: تهربوا.

قوله تعالى: ثم أتبع سببا (٩٢) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً (٩٣) قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً (٩٤) قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً (٩٥) أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطراً (٩٦) فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً (٩٧) قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً (٩٨)

قوله تعالى: (ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين) وهما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان. روى عطاء الخراساني عن ابن عباس: "بين السدين" الجبلين أرمينية وأذربيجان (وجد من دونهما) أي من ورائهما: (قوما لا يكادون يفقهون قولاً). وقرأ حمزة والكسائي:

"يفقهون" بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي لا يفقهون غيرهم كلاماً. الباقون بفتح الياء والقاف، أي يعلمون. والقراءتان صحيحتان، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم.

قوله تعالى: (قالوا يا ذا القرنين) أي قالت له أمة من الانس صالحاً: (إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) قال الأخفش: من همز "يأجوج" فجعل الألفين من الأصل يقول: يأجوج يفعل ومأجوج مفعول كأنه من أجيح النار. قال: ومن لا يهمز ويجعل

الألفين زائدتين يقول: "يأجوج" من يججت ومأجوج من مججت وهما غير مصروفين، قال رؤبة:

لو أن يأجوج ومأجوج معا * وعاد عاد واستجاشوا تبعا

ذكره الجوهري. وقيل: إنما لم ينصرفا لأنهما اسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين، علتاهما في منع الصرف العجمة والتأنيث. وقالت فرقة: هو

معرب

من أج وأجج علتاه في منع الصرف التعريف والتأنيث. وقال أبو علي: يجوز أن يكونا عربيين، فمن همز "يأجوج" فهو على وزن يفعل مثل يربوع، من قولك أجت النار أي

ضويت، ومنه الأجيح، ومنه ملح أجاج، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها

ألفا مثل رأس، وأما "مأجوج" فهو مفعول من أج، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق

ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولا من مج، وترك الصرف

فيهما للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة. واختلف في إفسادهم، [فقال] (١) سعيد بن عبد العزيز:

إفسادهم أكل بني آدم. وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان متوقعا، أي سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم. وقالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الافساد المعلوم

من البشر، والله أعلم. وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم من ولد يافث. روى أبو هريرة

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس

والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط

والبربر والسودان). وقال كعب الأحبار: احتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك الماء، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الام. وهذا فيه نظر، لان الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث، وكذلك

قال مقاتل وغيره. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يموت

رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل). يعني يأجوج ومأجوج. وقال أبو سعيد: (هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج

ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل ذكره القشيري. وقال عبد الله بن مسعود:

سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج، فقال، عليه الصلاة والسلام:
(يأجوج
ومأجوج أمتان كل أمة أربعمئة ألف [أمة] (٢) كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا
يموت الرجل

(١) من ج وك.
(٢) الزيادة من الدر المنثور.

منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح) قيل: يا رسول الله صفهم لنا.

قال: (هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز (١) - شجر بالشام طول الشجرة عشرون

ومائة ذراع - وصنف عرضه وطوله سواء نحواً من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم

بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة

وبيت المقدس). وقال علي رضي الله تعالى عنه: وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالب

وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئب، وشعور تقيهم الحر والبرد،

وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، ويحفرون السد حتى كادوا

ينقبونه فيعيده الله كما كان، حتى يقولون: ننقبه غدا إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون،

ويتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكهم الله

تعالى بالنعف (٢) في رقابهم. ذكره الغزنوي. وقال علي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يأجوج

أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده).

قلت: وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة، خرجه ابن ماجه في السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا

يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا

بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس

قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه

فيحرقونه ويخرجون على الناس فينشفون (٣) الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون

بسهمهم إلى السماء فيرجع عليها الدم - الذي أحفظ (٤) - فيقولون قهرنا أهل
الأرض وعلونا
أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في أقفائهم فيقتلهم بها) قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم:
(والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم) قال
الجوهري:

-
- (١) الأرز: شجر الصنوبر.
(٢) النغف (بالتحريك): دود يكون في أنوف الإبل والغنم واحدها نغفة.
(٣) ينشفون الماء: أي ينزحونه.
(٤) هذا من كلام الراوي. (هامش ابن ماجة).

شكرت الناقة تشكر شكريا فهي شكرة، وأشكر الضرع امتلاً لبنا. وقال وهب بن منبه: رآهم

ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربع منا، لهم مخالب في مواضع الأظفار

وأضراس وأنياب كالسباع، وأحنك كأحنك الإبل، وهم هلب عليهم من الشعر ما يواريههم،

ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان، يلتحف إحدهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكراً، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى. وقال السدي والضحاك: الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فضرب السد فبقيت في هذا الجانب. قال السدي: بني السد

على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السد فهم الترك. وقاله قتادة. قلت: وإذا كان هذا فقد نعت النبي صلى الله عليه وسلم الترك كما نعت يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوما وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون في الشعر) في رواية (ينتعلون الشعر) خرجه

مسلم وأبو داود وغيرهما. ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم عددهم وكثرتهم وحدة شوكتهم

قال عليه الصلاة والسلام: (اتركوا الترك ما تركوكم). وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم

لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج

أو مقدمتهم. وروى أبو داود عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل

ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين - قال ابن يحيى قال أبو معمر وتكون من أمصار المسلمين

فإذا كان في آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ

النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذنان البقر والبرية وهلكوا وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريتهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء).

الغائط

المطمئن من الأرض والبصرة الحجارة الرخوة وبها سميت البصرة. وبنو قنطوراء هم

الترك.
يقال: إن قنطوراء اسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ولدت له أولادا
جاء من نسلهم الترك.

قوله تعالى: (فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا (١)) فيه مسألتان: الأولى - قوله تعالى: (فهل نجعل لك خرجا) استفهام على جهة حسن الأدب. "خرج" أي جعل. وقرئ: "خراجا" والخرج أخص من الخراج. يقال: أد خرج رأسك وخراج مدينتك. وقال الأزهري: الخراج يقع على الضريبة، ويقع على [مال] (٢) الفئ،

ويقع على الجزية وعلى الغلة. والخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال. والخرج:

المصدر. وقوله تعالى: (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أي ردم، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. وثوب مردم أي مرقع قاله الهروي. يقال: ردمت الثلثة أردمها بالكسر ردمًا أي سدتها. والردم أيضا الاسم وهو السد. وقيل: الردم أبلغ من السد إذ السد كل ما يسد به والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم

من ذلك حجاب منيع ومنه ردم ثوبه إذا رقعته برقع متكاثفة بعضها فوق بعض. ومنه قول عنتره: * هل غادر الشعراء من متردم * (٣) أي من قول يركب بعضه على بعض. وقرئ "سدا" بالفتح في السين، فقال الخليل وسيبويه:

الضم هو الاسم والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضم لغتان بمعنى واحد. وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: ما كان من خلقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو

بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح. ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرأوا "سدا" بالفتح وقبله "بين السدين" بالضم، وهي قراءة حمزة والكسائي. وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عينك فهو سد

بالضم وما لا ترى فهو سد بالفتح.

الثانية - في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكلفون (٤)

ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه.

(١) قراءة نافع.

(٢) من ك.

(٣) تمامه: * أم هل عرفت الدار بعد توهم * (٤) في ك: ينكلون.

قوله تعالى: (قال ما مكنتي فيه ربي خيراً) فيه مسألتان:
الأولى - قوله تعالى: " قال ما مكنتي فيه ربي خيراً " المعنى قال لهم ذو القرنين
ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خيراً من خراجكم وأموالكم ولكن أعينوني
بقوة الأبدان،
أي برجال وعمل منكم بالأبدان (١)، والآلة التي أبني بها الردم وهو السد. وهذا تأييد
من الله تعالى
لذي القرنين في هذه المحاوراة فإن القوم لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحد ولو كلوه إلى
البنيان
ومعونته (٢) بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل وربما أربى ما ذكره له
على
الخرج. وقرأ ابن كثير وحده: " ما مكنتي " بنونين. وقرأ الباقون: " ما مكنتي فيه ربي
".
الثانية - في هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ
بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي نفى عليهم، وحقوقهم التي
تجمعها
خزانتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفذتها المؤمن، لكان عليهم جبر
ذلك من
أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط: الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء.
الثاني - أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم. الثالث - أن يسوي في العطاء بينهم على قدر
منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفراً فأطلعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل
أموالهم،
فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصريف بتدبير، فهذا ذو القرنين لما
عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال:
لست
أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم. " فأعينوني بقوة " أي اخدموا بأنفسكم معي، فإن
الأموال
عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تغني عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص
ذلك
مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى. وضابط
الأموال
لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك، المال جهراً لا سراً، وينفق بالعدل
لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالامر. والله تعالى الموفق للصواب.
قوله تعالى: (آتوني زبر الحديد) أي أعطوني زبر الحديد وناولونيها أمرهم بنقل

الآلة، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التي بغير معنى الهبة، وإنما هو استدعاء للمناولة،

(١) في ج وك: بالأيدي.
(٢) في ك: معونتهم.

لأنه قد ارتبط من قوله: إنه لا يأخذ منهم الخرج فلم يبق إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان. و " زبر الحديد " قطع الحديد. وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرت الكتاب أي كتبتة وجمعت حروفه. وقرأ أبو بكر والمفضل " ردما ايتوني " من الايتان الذي هو المجرى، أي جيئوني بزبر الحديد، فلما سقط

الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر: (١)
* أمرتك الخير... *

حذف الجار فنصب الفعل. وقرأ الجمهور " زبر " بفتح الباء. وقرأ الحسن بضمها، وكل

ذلك جمع زبرة وهي القطعة العظيمة منه.

قوله تعالى: (حتى إذا ساوى) يعني البناء فحذف لقوة الكلام عليه. (بين الصدفين) قال أبو عبيدة: هما جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما. وقاله الزهري وابن عباس، كأنه يعرض عن الآخر، من الصدوف قال، الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناها * توقد مثل مصباح الظلام
ويقال للبناء المرتفع: صدف تشبيهه بجانب الجبل. وفي الحديث: كان إذا مر بصدف مائل

أسرع المشي. قال أبو عبيد: الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع. ابن عطية:
الصدفان

الجبلان المتناوحيان (٢) ولا يقال للواحد صدف، وإنما يقال: صدفان للثنتين، لان أحدهما

يصادف الآخر. وقرأ نافع وحمزة والكسائي " الصدفين " بفتح الصاد وشدها وفتح الدال،

وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز، وهي اختيار أبي عبيدة

لأنها أشهر اللغات. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: " الصدفين " بضم الصاد والدال

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: " الصدفين " بضم الصاد وسكون الدال، نحو الجرف والجرف.

فهو تخفيف. وقرأ ابن الماجشون: بفتح الصاد وضم الدال. وقرأ قتادة: " بين الصدفين "

بفتح الصاد وسكون الدال، وكل ذلك بمعنى واحد. وهما الجبلان المتناوحيان.

(١) هو عمرو بن معدى كرب الزبيدي والبيت بتمامه:
أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * فقد تركتك ذا مال وذا نشب
(٢) التناوح: التقابل.

قوله تعالى: " قال انفخوا " إلى آخر الآية أي على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد

إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: " حتى إذا جعله نارا " ثم يؤتى بالنحاس المذاب

أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا

التأم واشتد ولصق البعض ببعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن أستوى العمل فصار

جبلا صلدا. قال قتادة: هو كالبرد المحبر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. ويروى أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال: يا رسول الله! إني رأيت سد يأجوج ومأجوج

قال: (كيف رأيته) قال: رأيته كالبرد المحبر، طريقة صفراء وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد رأيته). ومعنى " حتى إذا جعل نارا " أي كالنار. ومعنى: (أتوني أفرغ عليه قطرا) أي أعطوني قطرا أفرغ عليه، على التقديم والتأخير. ومن قرأ: " ائتوني " فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا. والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القطر، لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء. وقالت

فرقة: القطر الحديد المذاب. وقالت فرقة منهم ابن الأنباري: الرصاص المذاب. وهو مشتق من قطر يقطر قطرا. ومنه " وأسلنا له عين القطر " (١).

قوله تعالى: (فما استطاعوا أن يظهره) أي ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه، لأنه أملس مستو مع الجبل والجبل عال لا يرام. وارتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعا. وروي: في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ: وفي عرضه خمسون

فرسخ، قاله وهب بن منبه. (وما استطاعوا له نقبا) لبعده عرضه وقوته. وروي في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فتح اليوم من ردم يأجوج

ومأجوج مثل هذه) وعقد وهب بن منبه بيده تسعين - وفي رواية - وحلق بإصبعه الإبهام

والتي تليها، وذكر الحديث. وذكر يحيى بن سلام عن سعد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن يأجوج ومأجوج

(١) راجع ج ١٤ ص ٢٦٨.

يخرقون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم أرجعوا
فستخرقونه

غدا فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس
حفروا

حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم أرجعوا فستخرقونه [غدا] (١) إن
شاء الله

فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس) الحديث
وقد تقدم.

قوله تعالى: " فما استطاعوا " بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى
استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء
فقالوا: استطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاء فقال: استطاع يستطع بمعنى استطاع يستطيع،
وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: " فما استطاعوا " بتشديد الطاء كأنه أراد
استطاعوا،

ثم أدغم التاء في الطاء فشددها، وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو علي: هي غير جائزة
(٢).

وقرأ الأعمش " فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقبا " بالتاء في الموضعين.
قوله تعالى: (قال هذا رحمة من ربي) القائل ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم،
والقوة عليه، والانتفاع به في دفع ضرر يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن أبي عبلة " هذه
رحمة
من ربي " .

قوله تعالى: (فإذا جاء وعد ربي) أي يوم القيامة. وقيل: وقت خروجهم.
(جعله دكا) أي مستويا بالأرض، ومنه قوله تعالى: " إذا دكت الأرض دكا " (٣)
[الفجر: ٢١] قال

ابن عرفة: أي جعلت مستوية لا أكمة فيها، ومنه قوله تعالى: " جعله دكا " قال
اليزيدي:

أي مستويا، يقال: ناقة دكاء إذا ذهب سنامها. وقال القتيبي: أي جعله مدكوكا ملصقا
بالأرض. وقال الكلبي: قطعاً متكسراً، قال:
* هل غير غاد دك غارا فانهدم *

(١) من ك وى. وفي ا و ح و ج: فستحرقونه.

(٢) وقال النحاس: لا يقدر أحد أن يتعلق بها،

لان السين ساكنة والطاء المدغمة ساكنة، وقال سيويه: هذا محال.

(٣) راجع ٢٠ ص ٥٤.



(۶۳)

وقال الأزهرى: يقال دكته أي دقته. ومن قرأ " دكاء " أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهي الراية التي لا تبلغ أن تكون جبلا وجمعها دكاوات. قرأ حمزة وعاصم والكسائي " دكاء " بالمد على التشبيه بالناقاة الدكاء وهي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره:

جعله في مثل دكاء، ولا بد من تقدير هذا الحذف. لان السد مذكر فلا يوصف بدكاء.

ومن قرأ: " دكا " فهو مصدر دك يدك إذا هدم ورض، ويحتمل أن يكون " جعل " بمعنى خلق. وينصب " دكا " على الحال. وكذلك النصب أيضا في قراءة من مد يحتمل الوجهين.

قوله تعالى: وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا (٩٩) وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا (١٠٠) الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا (١٠١) أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا (١٠٢) قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا (١٠٣) الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١٠٤) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (١٠٥) ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا (١٠٦) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحين كانت لهم جنات الفردوس نزلا (١٠٧) خالدون فيها لا يبغون عنها حولا (١٠٨) قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا (١٠٩) قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهمك إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (١١٠)

قوله تعالى: (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) الضمير في "تركنا" لله تعالى، أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج "يومئذ" أي وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموح لهم عبارة عن الحيرة

وتردد بعضهم في بعض، كالمولاهين من هم وخوف، فشبهم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم.

قلت: فهذه ثلاثة أقوال أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول، لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى: "فإذا جاء وعد ربي". والله أعلم. قوله تعالى: (ونفخ في الصور) تقدم في (الانعام) (١). (فجمعناهم جمعا) يعني الجن والإنس

في عرصات القيامة. (وعرضنا جهنم) أي أبرزناها لهم. (يومئذ للكافرين عرضا) (الذين كانت أعينهم) في موضع خفض نعت "للكافرين". (في غطاء عن ذكرى) أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى. (وكانوا لا يستطيعون سمعا)

أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى، فهم بمنزلة من صم. قوله تعالى: (أفحسب الذين كفروا) أي ظن. وقرأ علي وعكرمة ومجاهد وابن محيصن:

"أفحسب" بإسكان السين وضم الباء، أي كفاهم. (أن يتخذوا عبادي) يعني عيسى والملائكة وعزيرا. (من دوني أولياء) ولا أعاقبهم، ففي الكلام حذف. وقال الزجاج: المعنى، أفحسبوا أن ينفعهم ذلك. (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا).

قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) إلى قوله: (وزنا) فيه مسئلتان: الأولى - قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) - الآية - فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط

السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر. روى البخاري عن مصعب قال:

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠ فما بعد.

سألت أبي " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً " أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. وأما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، وأما النصارى فكفروا بالجنة، فقالوا:

لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد يسميهم الفاسقين. والآية معناها التوبيخ، أي قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب

سعيهم وآمالهم غدا، فهم الأخسرون أعمالاً، وهم " الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم

يحسبون أنهم يحسنون صنعا " في عبادة من سواي. قال ابن عباس: يريد كفار أهل مكة.

وقال علي: هم الخوارج أهل حروراء. وقال مرة: هم الرهبان أصحاب الصوامع). وروي

أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له: أنت وأصحابك. قال ابن عطية: ويضعف

هذا كله قوله تعالى بعد ذلك: " أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم " .

وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقاءه والبعث والنشور، وإنما هذه صفة مشركي مكة (١) عبدة الأوثان، وعلي وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه (٢) الآية.

و " أعمالاً " نصب على التمييز. و " حبطت " قراءة الجمهور بكسر الباء. وقرأ ابن عباس:

" حبطت " بفتحها (٣).

الثانية - قوله تعالى: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) قراءة الجمهور " نقيم " بنون العظمة. وقرأ مجاهد: بياء الغائب، يريد فلا يقيم الله عز وجل، وقرأ عبيد بن عمير " فلا يقوم "

ويلزمه أن يقرأ: " وزن " وكذلك قرأ مجاهد: " فلا يقوم لهم يوم القيامة وزن ". قال عبيد بن

عمير: يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكل الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة.

قلت: هذا لا يقال مثله من جهة الرأي، وقد ثبت معناه مرفوعاً صحيحاً البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم

السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرأوا إن شئتم (فلا نقيم له يوم القيامة

وزنا). والمعنى أنهم لا ثواب لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار. وقال أبو سعيد الخدري: يؤتى بأعمال

-
- (١) في ج: العرب.
(٢) في ك وى: من صدر الآية.
(٣) في ج: بفتح الباء.

كجبال تهامة فلا تزن شيئاً. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة، كأنه قال: فلا قدر لهم عندنا يومئذ (١)، والله أعلم. وفي هذا الحديث من الفقه ذم السمن لمن تكلفه، لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم الاكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن. وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين). ومن حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خيركم

قرني ثم الذين يلونهم - قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم إن من بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم

السمن) وهذا ذم. وسبب ذلك أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الاكل والشراه، والدعة والراحة والامن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به، وقد ذم الله

تعالى الكفار بكثرة الاكل فقال: "والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار

مثوى لهم" (٢) [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الايمان، والقيام بوظائف الاسلام؟! ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد

بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائماً، وليله نائماً. وقد مضى في "الأعراف" (٣) هذا المعنى،

وتقدم فيها ذكر الميزان (٣)، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة. وقال

عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حمش (٤) ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة: (تضحكون

من ساق توزن بعمل أهل الأرض) فدل هذا على أن الأشخاص توزن، ذكره الغزنوي. قوله تعالى: (ذلك جزاؤهم " ذلك " إشارة إلى ترك الوزن، وهو في موضع رفع بالابتداء " جزاؤهم " خبره و (جهنم) بدل من المبتدأ الذي هو " ذلك " و " ما " في

قوله:

" بما كفروا " مصدرية، والهزاء الاستخفاف والسخرية، وقد تقدم.

(١) في ك: يوم القيامة.

(٢) راجع ج ١٦ ص ٢٣٤.

(٣) راجع ج ٧ ص ١٩١ فما بعد

وص ١٦٥.

(٤) حمش الساق: دقيقها.

قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها. وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سرّة الجنة. وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون

بالمعروف، والناهون عن المنكر. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن

يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها) قالوا: يا رسول الله أفلا

نبشّر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين

كما بين السماء والأرض فإذا سألتهم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة -

أراه قال - وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة) وقال مجاهد: والفردوس البستان

بالرومية. الفراء: هو عربي. والفردوس حديقة في الجنة. وفردوس اسم روضة دون اليمامة.

والجمع فراديس، قال أمية بن أبي الصلت الثقفى:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة * فيها الفراديس والفومان والبصل

والفراديس موضع بالشام. وكرم مفردس أي معرش. (خالدين فيها) أي دائمين.

(لا يبغون عنها حولا) أي لا يطلبون تحويلاً عنها إلى غيرها. والحول بمعنى التحويل، قاله أبو علي. وقال الزجاج: حال من مكانه حولا كما يقال: عظم عظما. قال: ويجوز أن

يكون من الحيلة، أي لا يحتالون منزلاً غيرها. وقال الجوهري: التحول التنقل من موضع

إلى وضع، والاسم الحول، ومنه قوله تعالى: "خالدين فيها لا يبغون عنها حولا".

قوله تعالى: (قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) نفذ الشيء إذا تم وفرغ، وقد تقدم. (ولو جئنا بمثله مدداً) أي زيادة على البحر

عدداً أو وزناً. وفي مصحف أبي "مدادا" وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد. وانتصب "مدداً" على التمييز أو الحال. وقال ابن عباس: قالت اليهود لما قال لهم

النبي

صلى الله عليه وسلم "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" (١) [الاسراء: ٨٥] قالوا: وكيف

وقد أوتينا التوراة، ومن

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٢٣.

أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا؟ فنزلت: " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر " الآية. وقيل: قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا

كثيرا، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح؟! فقال الله تعالى قل وإن أوتيت القرآن وأوتيتم

التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة، قال ابن عباس: " لكلمات ربي " أي مواعظ

ربي. وقيل: عنى بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحدا

فيحوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنه ينوب منا بها، فجازت

العبادة عنها بصيغة الجمع تفخيما، وقال الأعشى:

ووجه نقي اللون صاف يزينه * مع الجيد لبات لها ومعاصم
فعبير باللبات عن اللبة. وفي التنزيل " نحن أولياؤكم " (١) [فصلت: ٣١] و " إنا نحن نزلنا الذكر " (٢) [الحجر: ٩] " وإنا لنحن

نحيي ونميت " (٢) [الحجر: ٢٣] وكذلك " إن إبراهيم كان أمة " (٢) [النحل: ١٢٠] لأنه ناب مناب أمة. وقيل: أي ما نفذت

العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى. وقال السدي:

أي إن كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ صفات الجنة التي هي دار الثواب. وقال عكرمة: لنفد البحر قبل أن ينفذ ثواب من قال لا إله إلا الله. ونظير هذه الآية: " ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات

الله " (٣) [لقمان: ٢٧]. وقرأ حمزة والكسائي: " قبل أن ينفذ " بالياء لتقدم الفعل. قوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) أي لا أعلم إلا ما يعلمني الله تعالى، وعلم الله تعالى لا يحصى، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله. (فمن كان يرجو لقاء

ربه) أي يرجو رؤيته وثوابه وينخشى عقابه (فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

قال ابن عباس: نزلت في جندب بن زهير العامري قال: يا رسول الله إنني أعمل العمل لله تعالى، وأريد به وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطلع عليه سرنى فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

(إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه) فنزلت الآية. وقال طاوس

قال رجل: يا رسول الله! إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكاني
فنزلت

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٥ وص ١٨ وص ١٩٨.

(٣) راجع ج ١٣ ص ٧٦.

هذه الآية. وقال مجاهد: جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله!

إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرني ذلك

وأعجب به، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى " فمن كان

يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " .

قلت: والكل مراد، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال. وقد تقدم في سورة " هود " (١) حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس. وقد تقدم

في سورة " النساء " (٢) الكلام على الرياء، وذكرنا من الاخبار هناك ما فيه كفاية. وقال

الماوردي وقال جميع أهل التأويل: معنى قوله تعالى: " ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " إنه لا يراني بعمله أحداً. وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في (نوادير الأصول) قال: حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدثنا مكّي بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نسي قال: أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً،

إذ رأيت بوجهه أمراً ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك؟

قال: (أمراً أتخوفه على أمتي من بعدي) قلت: ما هو يا رسول الله؟ قال: (الشرك والشهوة الخفية) قلت: يا رسول الله! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال: (يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكنهم يراءون بأعمالهم) قلت: [يا رسول الله] (٣)

والرياء شرك هو؟ قال: (نعم). قلت: فما الشهوة الخفية؟ قال: (يصبح أحدهم صائماً فتعرض

له شهوات الدنيا فيفطر) قال عبد الواحد: فلقيت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد! أخبرني عن الرياء أشرك هو؟ قال: نعم، أما تقرأ " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " . وروى إسماعيل بن أسحق قال حدثنا محمد بن أبي بكر قال

حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال: كان عبادة بن الصامت وشداد

-
- (١) راجع ج ٩ ص ١٤.
(٢) راجع ج ٥ ص ١٨٠ فما بعد.
(٣) من ج وك وى.

ابن أوس جالسين، فقالوا: إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة

الخفية فمن قبل النساء. وقالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائي به فقد أشرك) ثم تلا " فمن كان يرجو

لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في " النساء " (١).

وقال

سهل بن عبد الله: وسئل الحسن عن الاخلاص والرياء فقال: من الاخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك

وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا). (والذين يؤتون ما آتوا " (٢) [المؤمنون: ١٠]

الآية، يؤتون الاخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم، وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا، قيل لها: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء. وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به، كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله

المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة

وأنا منذ ثلاثين سنة صائم، فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فأطال وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسن صلاتك؟! فقال: وأنا مع ذلك صائم. أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف، فقليل له إنك خففت، فقال: إنه لم يخالطها رياء، فخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه، والتصنع

من صلاته، وقد تقدم في " النساء " (١) دواء الرياء من قول لقمان، وأنه كتمان العمل. وروى

الترمذي الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الحماني قال: أنبأنا جرير عن ليث عن

شيخ عن (٣) معقل بن يسار قال قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم،

قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك، قال: (هو فيكم أخفى من ديب

النمل

-
- (١) راجع ج ٥ ص ١٨١.
(٢) راجع ج ١٢ ص ١٣٢.
(٣) في ك: قال.

وسأدلك على شئ إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إني أعوذ بك أن

أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات). وقال عمر بن قيس الكندي

سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر " فمن كان يرجو لقاء ربه " فقال: إنها لآخر آية

نزلت من السماء. وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوحى إلي أنه من قرأ " فمن كان

يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً " رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون

عليه ويستغفرون له). وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قرأ أول سورة الكهف وأخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا

من الأرض إلى السماء) وعن ابن عباس أنه قال له رجل: إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل

فيغلبني النوم، فقال: (إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعتك: " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي " إلى آخر السورة فإن الله تعالى

يوقظك

متى شئت من الليل)، ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضي الله تعالى عنه. وفي مسند الدارمي

أبي محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن عبدة عن زر بن حبيش قال: من قرأ آخر

سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها، قال عبدة: فجرّبناه فوجدناه كذلك. قال ابن العربي: كان شيخنا الطرطوشي الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمان في

مصاولة

الاقران، ومواصلة الاخوان، وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله: " فمن كان يرجو لقاء

ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ". تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية بإجماع. وهي تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر، وقتل الله فيها صناديد الكفار، قال كفار قريش: إن تأركم بأرض الحبشة، فأهدوا إلى النجاشي، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يعطيكم

من

عنده من قريش، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر، فبعث كفار قريش عمرو بن العاص

وعبد الله
ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثهما، فبعث رسول الله صلى
الله عليه

وسلم عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم " كهيعص " وقاموا تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون " [المائدة: ٨٢]. وقرأ إلى قوله: " الشاهدين " (١). ذكره أبو داود. وفي السيرة، فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم، فقال له النجاشي: أقرأه علي. قال: فقرأ " كهيعص " فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم، فقال النجاشي: [إن] (٢) هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا، وذكر تمام الخبر.

بسم الله الرحمن الرحيم
قوله تعالى: كهيعص (١) ذكر رحمت ربك عبده زكريا (٢)
إذ نادى ربه نداء خفيا (٣) قال رب إنني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئا ولم أكن بدعائك رب شقيا (٤) وإنني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا (٥) يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا (٦) يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا (٧) قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٩)

(١) راجع ج ٦ ص ٢٨٥ فما بعد.

(٢) من ج وك وى.

قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال
سويا (١٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا
بكرة وعشيا (١١) يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا (١٢)
وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا (١٣) وبرا بوالديه ولم يكن جبارا
عصيا (١٤) وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا (١٥)
قوله تعالى: (كهيعص) تقدم الكلام في أوائل السور (١). وقال ابن عباس
في " كهيعص ": أن الكاف من كاف، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من
عليم،

والصاد من صادق، ذكره ابن عزيز. القشيري عن ابن عباس، معناه كاف لخلقه، هاد
لعباده،

يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده، ذكره الثعلبي عن الكلبي السدي ومجاهد
والضحاك. وقال الكلبي أيضا: الكاف من كريم وكبير وكاف، والهاء من هاد، والياء
من

رحيم، والعين من عليم وعظيم، والصاد من صادق، والمعنى واحد. وعن ابن عباس
أيضا:

هو اسم من أسماء الله تعالى، وعن علي رضي الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان
يقول:

يا كهيعص اغفر لي، ذكره الغزنوي. السدي: هو اسم الله الأعظم الذي سئل به أعطى،
وإذا دعى به أجاب. وقتادة: هو اسم من أسماء القرآن، ذكره عبد الرزاق عن معمر
عنه.

وقيل: هو اسم للسورة، وهو اختيار القشيري في أوائل الحروف، وعلى هذا قيل: تمام
الكلام عند قوله: " كهيعص " كأنه إعلام باسم السورة، كما تقول: كتاب كذا أو باب
كذا ثم تشرع في المقصود. وقرأ أبو جعفر هذه الحروف متقطعة، ووصلها الباقون،
وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء: وابن عامر وحمزة بالعكس، وأمالهما جميعا الكسائي
وأبو بكر

وخلف. وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره. وفتحهما الباقون. وعن خارجة:
أن

الحسن كان يضم كاف، وحكى غيره أنه كان يضم ها، وحكى إسماعيل بن إسحاق
أنه كان يضم

يا. قال أبو حاتم: ولا يجوز ضم الكاف ولا (٢) الهاء والياء، قال النحاس: قراءة أهل
المدينة

(١) راجع ج ١ ص ١٥٤ فما بعد.
(٢) من ك.

من أحسن ما في هذا، والإمالة جائزة في هاويا. وأما قراءة الحسن فأشكلت على جماعة حتى

قالوا: لا تجوز، منهم أبو حاتم. والقول فيها ما بينه هارون القارئ، قال: كان الحسن يشم

الرفع فمعنى هذا أنه كان يومئ، كما حكى سييويه أن من العرب من يقول: الصلاة والزكاة

يومئ إلى الواو، ولهذا كتبنا (١) في المصحف بالواو. وأظهر الدال من هجاء "ص" نافع

وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو اختيار أبي عبيد، وأدغمها الباقون. قوله تعالى: (ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفياً).

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: "ذكر رحمة ربك" في رفع "ذكر" ثلاثة أقوال، قال الفراء: هو مرفوع ب" - كهيعص"، قال الزجاج: هذا محال، لان "كهيعص" ليس هو مما أنبأنا

الله عز وجل به عن زكريا، وقد خبر الله تعالى عنه وعن ما بشر به، وليس "كهيعص" من قصته. وقال الأخفش: التقدير، فيما يقص (٢) عليكم ذكر رحمة ربك. والقول الثالث:

أن المعنى هذا الذي يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك. وقيل: "ذكر رحمة ربك" رفع بإضمار مبتدأ،

أي هذا ذكر رحمة ربك، وقرأ الحسن "ذكر رحمة ربك" أي هذا المتلو من القرآن ذكر

رحمة ربك. وقرئ "ذكر" على الامر. "ورحمة" تكتب ويوقف عليها بالهاء وكذلك كل

ما كان مثلها، لا اختلاف فيها بين النحويين. واعتلوا في ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء

فرقا بينها وبين الافعال.

الثانية - قوله تعالى: "عبده" قال الأخفش: هو منصوب ب" - رحمة". "زكريا" بدل منه، كما تقول: هذا ذكر ضرب زيد عمرا، فعمرا منصوب بالضرب، كما أن "عبده"

منصوب بالرحمة. وقيل: هو على التقديم والتأخير، معناه: ذكر ربك عبده زكريا برحمة،

ف" - عبده" منصوب بالذكر، ذكره الزجاج والفراء. وقرأ بعضهم "عبده زكريا" بالرفع،

وهي قراءة أبي العالية. وقرأ يحيى بن يعمر: " ذكر " بالنصب على معنى هذا القرآن
ذكر
رحمة عبده زكريا. وتقدمت اللغات والقراءة في " زكريا " في " آل عمران " (٣).

-
- (١) من ج وك وفي ا و ج وى: كتبها.
(٢) في ك: نقص.
(٣) راجع ج ٤ ص ٧٠.

الثالثة - قوله تعالى: (إذ نادى ربه نداء خفياً) مثل قوله: " ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين " [الأعراف: ٥٥] (١) وقد تقدم. والنداء الدعاء والرغبة، أي ناجى ربه بذلك

في محرابه. دليله قوله: " فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب " (٢) [آل عمران: ٣٩] فبين أنه استجاب له في صلاته، كما نادى في الصلاة. واختلف في إخفائه هذا النداء، فقيل: أخفاه من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن، ولأنه أمر دنيوي، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد. وقيل: مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى. وقيل:

لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه. وقيل: " خفياً " سرا من قومه في جوف الليل، والكل محتمل والأول أظهر، والله أعلم. وقد تقدم أن المستحب من الدعاء الاخفاء في سورة " الأعراف " (١) وهذه الآية نص في ذلك، لأنه سبحانه أثنى بذلك على

زكريا. وروى إسماعيل قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو ابن أبي كبشة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: (إن خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي) وهذا عام. قال يونس بن عبيد: كان الحسن يرى أن يدعو الامام في القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت، وتلا يونس:

" إذ نادى ربه نداء خفياً ". قال ابن العربي: وقد أسر مالك القنوت وجهراً به الشافعي، والجهر به أفضل، لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهراً. قوله تعالى: (قال رب إني وهن العظم مني) فيه مسألتان (٣):

الأولى - قوله تعالى: " قال رب إني وهن " قرئ " وهن " بالحركات الثلاث أي ضعف. يقال: وهن يهن وهناً إذا ضعف فهو واهن. وقال أبو زيد يقال: وهن يهن ووهن يوهن. وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٣ فما بعد.

(٢) راجع ج ٤ ص ٧٤.

(٣) كذا في الأصول إلا أنها ثلاث غيرك ففيها مسألتان.



(۷۶)

منه. ووحدته لان الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو

العمود والقوام، وأشد ما تركيب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصد إلى معنى

آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها.

الثانية - قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا) أدغم السين في الشين أبو عمرو. وهذا من أحسن الاستعارة في كلام العرب. والاشتعال انتشار شعاع النار، شبه به انتشار

الشيب في الرأس، يقول: شخت وضعفت، وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو

الرأس. ولم يصف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام. " وشيبا " في نصبه وجهان: أحدهما - أنه مصدر لان معنى اشتعل شاب، وهذا قول الأخفش. وقال الزجاج: وهو منصوب على التمييز. النحاس: قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل

فالمصدر أولى به. والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود.

الثالثة - قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نعم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع، لان قوله تعالى: " وهن العظم مني " إظهار للخضوع. وقوله: (ولم أكن بدعائك رب شقيا) إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته، أي لم أكن بدعائي إياك شقيا، أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، أي إنك عودتني الإجابة فيما مضى. يقال: شقي بكذا أي تعب فيه ولم يحصل مقصوده. وعن بعضهم: أن محتاجا سأله وقال: أنا الذي

أحسنت إليه في وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

قوله تعالى: (وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا) فيه سبع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: " وإني خفت الموالى " قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن علي وعلي

ابن الحسين ويحيى بن يعمر رضي الله تعالى عنهم: " خفت " بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر

التاء وسكون الياء من " الموالى " لأنه في رفع ب " خفت " ومعناه انقطعت [أي] (١) بالموت. وقرأ

الباقون " خفت " بكسر الخاء وسكون الفاء وضم التاء ونصب الياء من " الموالى " لأنه

(١) من ج وك.

(٢٢)

في موضع نصب ب " - خفت " و " الموالي " هنا الأقارب بنو العم والعصبة الذين يلونه

في النسب. والعرب تسمي بني العم الموالي. قال الشاعر: (١)
مهلا بني عمنا مهلا موالينا* لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلاله فأشفق أن يرثه
غير الولد. وقالت طائفة: إنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين،
فطلب ولدا يقوم بالدين بعده، حكى هذا القول الزجاج، وعليه فلم يسئل من يرث ماله،
لان

الأنبياء لا تورث. وهذا هو الصحيح من القولين في تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة
والسلام
أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال، لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
(إننا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة) وفي كتاب أبي داود: (إن العلماء ورثة
الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم). وسيأتي في هذا مزيد بيان
عند

قوله: " يرثني "

الثانية - هذا الحديث يدخل في التفسير المسند، لقوله تعالى: " وورث سليمان
داود " (٢) وعبارة عن قول زكريا: " فهب لي من لدنك ولدا يرثني ويرث من آل
يعقوب "

وتخصيص للعموم في ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالا خلفه داود بعده، وإنما
ورث

منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب، هكذا قال أهل العلم بتأويل
القرآن

ما عدا الروافض، وإلا ما روى عن الحسن أنه قال: " يرثني " مالا " ويرث من آل
يعقوب "

النبوة والحكمة، وكل قول يخالف قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مهجور،
قاله

أبو عمر. قال ابن عطية: والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال،
ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إننا معشر الأنبياء لا نورث) ألا يريد به
العموم،

بل على أنه غالب أمرهم، فتأمل. والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم
والدين، فتكون الوراثة مستعارة. ألا ترى أنه لما طلب ولدا ولم يخص ولدا بلغه الله
تعالى

أمله على أكمل الوجوه. وقال أبو صالح وغيره: قوله " من آل يعقوب " يريد العلم

والنبوة.

- (١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب وهو من شعراء بني هاشم في عهد بني أمية.
(٢) راجع ج ١٣ ص ١٦٣.

الثالثة - قوله تعالى: " من ورائي " قرأ ابن كثير بالمد والهمز وفتح الياء. وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصاي. الباقون بالهمز والمد وسكون الياء. والقراء على قراءة

" خفت " مثل نمت إلا ما ذكرنا عن عثمان. وهي قراءة شاذة بعيدة جدا، حتى زعم بعض

العلماء أنها لا تجوز. قال كيف يقول: خفت الموالي من بعدي أي من بعد موتي وهو حي؟! النحاس: والتأويل لها ألا يعني بقوله: " من ورائي " أي من بعد موتي، ولكن من ورائي في ذلك الوقت، وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفوا في ذلك الوقت

وقلوا، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا " أيهم يكفل مريم " (١). ابن عطية

" من ورائي " من بعدي في الزمن، فهو الوراء على ما تقدم في " الكهف " (٢).

الرابعة - قوله تعالى: " وكانت امرأتي عاقرا " امرأته هي إيشاع بنت فاقوذا ابن قبيل، وهي أخت حنة بنت فاقوذا، قاله الطبري. وحنة هي أم مريم حسب ما تقدم في " آل عمران " (١) بيانه. وقال القتيبي: امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران، فعلى هذا

القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة. وعلى القول الآخر يكون ابن

خالة أمه. وفي حديث الاسراء قال عليه الصلاة والسلام: (فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى)

شاهدا للقول الأول (٣). والله أعلم. والعاقرة التي لا تلد لكبر سنها، وقد مضى بيانه في " آل عمران " .

والعاقرة من النساء أيضا التي لا تلد من غير كبر. ومنه قوله تعالى: " ويجعل من يشاء عقيما " (٤) [الشورى: ٥٠]. وكذلك العاقرة من الرجال، ومنه قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا * جباناً فما عذري لدى كل محضر

الخامسة - قوله تعالى: " فهب لي من لدنك وليا " سؤال ودعاء. ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة. قال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة. مقاتل: خمس وتسعين سنة، وهو أشبه، فقد كان غلب على ظنه انه لا يولد

له لكبره، ولذلك قال: " وقد بلغت من الكبر عتيا " . وقالت طائفة: بل طلب الولد،

(١) راجع ج ٤ ص ٨٥ وص ٧٩.

(٢) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) المراد بالقول الأول هنا قول القتيبي.
(٤) راجع ج ١٦ ص ٤٨.

ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفظا من أن تقع الإجابة في الولد ولكن

يحترم، ولا يتحصل منه الغرض.

السادسة - قال العلماء: دعاء زكريا عليه السلام في الولد إنما كان لظاهر دينه، وإحياء نبوته، ومضاعفة لاجره لا للدنيا، وكان ربه قد عوده الإجابة، ولذلك قال: " ولم أكن بدعائك رب شقيا " أي بدعائي إياك. وهذه وسيلة حسنة، أن يتشفع إليه بنعمه،

ويستدر (١) فضله بفضله، يروى أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله، فقال له حاتم: من أنت؟ قال:

أنا الذي أحسنت إليه عام أول، فقال: مرحبا بمن تشفع إلينا بنا. فإن قيل كيف أقدم زكريا على مسألة ما يخرق العادة دون إذن؟ فالجواب أن ذلك جائز في زمان الأنبياء وفي

القرآن ما يكشف عن هذا المعنى، فإنه تعالى قال: " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد

عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب " [آل عمران: ٣٧]

فلما رأى خارق العادة استحکم طمعه في إجابة دعوته، فقال تعالى: " هنالك دعا زكريا ربه

قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة " (٢) [آل عمران: ٣٨] الآية.

السابعة - إن قال قائل: هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفسد الناشئة من ذلك، فقال: " إنما أموالكم وأولادكم فتنة " (٣) [التغابن: ١٥]. " إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم " (٣) [التغابن: ١٤]. فالجواب

أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدم في " آل عمران " (٢) بيانه. ثم إن زكريا

عليه السلام تحرز فقال: (ذرية طيبة) وقال: " واجعله رب رضيا ". والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لانس خادمه فقال: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما

أعطيته) فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدي إليه الاكثار من الهلكة. وهكذا فليتضرع العبد إلى

مولاه في هداية ولده، ونجاته في أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام

والفضلاء،
[الأولياء] (٤) وقد تقدم في " آل عمران " (٢) بيانه.

(١) في ا و ج: ويسأله (٢) راجع ج ٤ ص ٧٢ فما بعد.
(٣) راجع ج ١٨ ص ١٤٠ فما بعد.
(٤) من ج وك وى.

قوله تعالى: (يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) فيه أربع مسائل:
الأولى - قوله تعالى: " يرثني " قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة: " يرثني
ويرث " بالرفع فيهما. وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش
والكسائي:

بالجزم فيهما، وليس هما جواب " هب " على مذهب سيويوه، إنما تقديره إن تهبه
يرثني

ويرث، والأول أصوب في المعنى لأنه طلب وارثا موصوفا، أي هب لي من لدنك الولي
الذي

هذه حاله وصفته، لان الأولياء منهم من لا يرث، فقال: هب لي الذي يكون وارثي،
قاله

أبو عبيد، ورد قراءة الجزم، قال: لان معناه إن وهبت ورث، وكيف يخبر الله عز وجل
بهذا وهو أعلم به منه؟! النحاس: وهذه حجة متقصاة (١)، لان جواب الامر عند
النحويين

فيه معنى الشرط والمجازاة، تقول: أطع الله تعالى يدخلك الجنة، أي إن تطعه يدخلك
الجنة.

الثانية - قال النحاس: فأما معنى " يرثني ويرث من آل يعقوب " فللعلماء فيه ثلاثة
أجوبة، قيل: هي وراثه نبوة. وقيل: هي وراثه حكمة. وقيل: هي وراثه مال. فأما
قولهم وراثه نبوة فمحال، لان النبوة لا تورث، ولو كانت تورث لقال قائل: الناس
ينتسبون

إلى نوح عليه السلام وهو نبي مرسل. ووراثه العلم والحكمة مذهب حسن، وفي
الحديث

(العلماء ورثة الأنبياء). وأما وراثه المال فلا يمتنع، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي
صلى الله عليه وسلم: (لا نورث ما تركنا صدقة) فهذا لا حجة فيه، لان الواحد يخبر
عن نفسه

بإخبار الجمع. وقد يؤول هذا بمعنى: لا نورث الذي تركنا صدقة، لان النبي صلى الله
عليه

وسلم لم يخلف شيئا يورث عنه، وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته
بقوله

تبارك اسمه: " واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول " [الأنفال: ٤١]
لان معنى " لله " لسبيل

الله، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حيا، فإن
قيل:

ففي بعض الروايات (إننا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة) ففيه التأويلان جميعا،

أن
يكون " ما " بمعنى الذي. والآخر لا يورث من كانت هذه حاله. وقال أبو عمر:
وأختلف
العلماء في تأويل قوله عليه السلام: (لا نورث ما تركنا صدقة) على قولين: أحدهما -
وهو

(١) في ج وك وى: مستفيضة.

(٢) راجع ج ٨ ص ١.

الأكثر وعليه الجمهور - أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة.
والآخر - أن

نبينا عليه الصلاة والسلام لم يورث، لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة في فضيلته، كما خص في النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره، وهذا القول قاله بعض أهل

البصرة منهم ابن علية، وسائر علماء المسلمين على القول الأول.

الثالثة - قوله تعالى: " من آل يعقوب " قيل: هو يعقوب بن إسرائيل، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلى يعقوب، لأنها من ولد سليمان بن

داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هارون أخي موسى، وهرون وموسى

من ولد لاوي بن يعقوب، وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحاق. وقيل: المعنى بـيعقوب

ها هنا يعقوب بن ما ثان أخو عمران بن ما ثان أبي مريم أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما

السلام، لأن يعقوب وعمران ابنا ما ثان، وبنو ما ثان رؤساء بني إسرائيل، قاله مقاتل وغيره.

وقال الكلبي: وكان آل يعقوب أخواله، وهو يعقوب بن ما ثان، وكان فيهم الملك، وكان

زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى. وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(يرحم الله - تعالى - زكريا ما كان عليه من ورثته). ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمي.

الرابعة - قوله تعالى: " واجعله رب رضا " أي مرضيا في أخلاقه وأفعاله.

وقيل: راضيا بقضائك وقدرك. وقيل: رجلا صالحا ترضى عنه. وقال أبو صالح: نبيا كما جعلت أباه نبيا.

قوله تعالى: " يا زكريا " في الكلام حذف، أي فاستجاب الله دعاءه فقال: " يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى " فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء: أحدها - إجابة دعائه،

وهي كرامة. الثاني - إعطاؤه الولد وهو قوة. الثالث - أن يفرد بتسميته، وقد تقدم معنى تسميته [بـيحيى] (١) في " آل عمران " (٢). وقال مقاتل: سماه يحيى لأنه حيي بين أب شيخ

وأم عجوز، وهذا فيه نظر، لما تقدم من أن امرأته كانت عقيما لا تلد. والله أعلم.

(١) من ج وك.
(٢) راجع ج ٤ ص ٧٥ فما بعد.

قوله تعالى: (لم نجعل له من قبل سميا) أي لم نسّم أحدا قبل يحيى بهذا الاسم، قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدي. ومن عليه تعالى بأن لم يكل تسميته إلى الأبوين. وقال مجاهد وغيره: " سميا " معناه مثلا ونظيرا، وهو مثل قوله تعالى: " هل تعلم له سميا " (١) [مريم: ٦٥]

معناه مثلا ونظيرا [وهذا] (٢) كأنه من المساماة والسمو، هذا فيه بعد، لأنه لا يفضل على إبراهيم

وموسى، اللهم إلا أن يفضل في خاص كالسؤدد والحصر حسب ما تقدم بيانه " في آل عمران " (٣).

وقال ابن عباس أيضا: معناه لم تلد العواقر مثله ولدا. وقيل: إن الله تعالى اشترط القبل، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم. وفي هذه الآية دليل وشاهد

على أن الأسامي السنع (٤) جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه

وأنزّه عن النبز حتى قال قائل:

سنع الأسامي مسبلي أزر * حمر تمس الأرض بالهدب

وقال رؤبة للنسابة البكري وقد سأله عن نسبه: أنا ابن العجاج، فقال: قصرت وعرفت. قوله تعالى: (قال رب أنى يكون لي غلام) ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير.

وقيل: غير هذا مما تقدم في " آل عمران " (٣) بيانه. (وقد بلغت من الكبر عتيا) يعني النهاية في الكبر واليبس والجفاف، ومثله العسي، قال الأصمعي: عسا الشئ يعسو عسوا وعساء

ممدود أي يبس وصلب، وقد عسا الشيخ يعسو عسيا ولى وكبر مثل عتا، يقال: عتا الشيخ

يعتو عتيا وعتيا كبر وولى، وعتوت يا فلان تعتو عتوا وعتيا. والأصل عتو لأنه من ذوات الواو، فأبدلوا من الواو ياء، لأنها أختها وهي أخف منها، والآيات على الياءات. ومن قال:

" عتيا " كره الضمة مع الكسرة والياء، وقال الشاعر:
إنما يعذر الوليد ولا يعذر * من كان في الزمان عتيا

(١) راجع ص ١٣٠ من هذا الجزء.

(٢) من ج وك.

(٣) راجع ج ٤ ص ٧٤ وص ٧٩.

(٤) الجميلة.

(٨٣)

وقرأ ابن عباس " عسيا " وهو كذلك في مصحف أبي. وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وحفص: " عتيا " بكسر العين وكذلك " جثيا " و " صليا " حيث كن. وضم حفص " بكيا "

خاصة، وكذلك الباقون في الجميع، وهما لغتان. وقيل: " عتيا " قسيا، يقال: ملك عات إذا كان قاسي القلب.

قوله تعالى: (قال كذلك قال ربك هو علي هين) أي قال له الملك " كذلك قال ربك " والكاف في موضع رفع، أي الأمر كذلك، أي كما قيل لك: " هو علي هين ". قال الفراء: خلقه علي هين. (وقد خلقتك من قبل) أي من قبل يحيى. وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين " وقد خلقتك " بنون وألف بالجمع على التعظيم.

والقراءة الأولى أشبه بالسواد. (ولم تك شيئا) أي كما خلقتك الله تعالى بعد العدم ولم تك

شيئا موجودا، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده.

قوله تعالى: (قال رب اجعل لي آية) طلب آية على حملها (١) بعد بشارة الملائكة إياه، وبعد قول الله تعالى: " وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا " زيادة طمأنينة، أي تتم النعمة

بأن تجعل لي آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة. وقيل: طلب آية تدله على أن البشري منه بيحيى لا من الشيطان، لان إبليس أو همه ذلك. قاله الضحاك وهو معنى قول

السدي، وهذا فيه نظر لاخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ما تقدم في " آل عمران " (٢).

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) تقدم في (آل عمران) (٢) بيانه فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: " فخرج على قومه من المحراب " أي أشرف عليهم من المصلى. والمحراب أرفع المواضع، وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما أرتفع من الأرض،

دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتي. واختلف الناس في اشتقاقه، فقالت فرقة:

(١) في ج وك: حبلها.

(٢) راجع ج ٤ ص ٨٠ فما بعد.



(۸۴)

هو مأخوذ من الحرب كأن (؟ يلازمه) يحارب الشيطان والشهوات. وقالت فرقة: هو مأخوذ

من الحرب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقي منه حربا وتعبا ونصبا.
الثانية - هذه الآية تدل على أن ارتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعاً عندهم في صلاتهم. وقد اختلف في هذه المسألة فقهاء الأمصار، فأجاز ذلك الإمام أحمد [ابن حنبل] (١)

وغيره متمسكا بقصة المنبر. ومنع مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير، وعلل أصحابه

المنع بخوف الكبر على الامام.

قلت: وهذا فيه نظر، وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أم الناس بالمدائن على دكان، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه (٢)، فلما فرغ من صلاته قال: ألم تعلم أنهم

كانوا يnehون عن هذا - أو - ينهى عن ذلك! قال: بلى، قد ذكرت حين مددتني. وروي أيضا عن عدي بن ثابت الأنصاري قال: حدثني رجل أنه كان مع عمار بن ياسر بالمدائن، فأقيمت الصلاة فتقدم عمار بن ياسر، وقام على دكان يصلي والناس أسفل منه، فتقدم

حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمار من صلاته، قال له

حذيفة: ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا أم الرجل القوم فلا يقيم في مكان

أرفع من مقامهم) أو نحو ذلك، فقال عمار: لذلك اتبعتك حين أخذت على يدي. قلت: فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهي عن ذلك، ولم يحتج أحد منهم على صاحبه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ، ومما يدل على نسخه أن فيه عملا زائدا

في الصلاة، وهو النزول والصعود، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام. وهذا أولى مما أعتذر به

أصحابنا من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوما من الكبر، لان كثيرا من الأئمة يوجد

لا كبر عندهم، ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا، والله أعلم. الثالثة - قوله تعالى: " فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا " قال الكلبي وقتادة وابن منبه: أوحى إليهم أشار. القتيبي: أو ما (٣). مجاهد: كتب على الأرض. عكرمة: كتب في كتاب.

والوحي في كلام العرب الكتابة، ومنه قول ذي الرمة:

-
- (١) من ج وك.
(٢) في ج: جذبته.
(٣) في ج وك: أوصى.

سوى الأربعم الدهم اللواتي كأنها * بقية وحي في بطون الصحائف
وقال عنتره:

كوحى صحائف من عهد كسرى * فأهداها لأعجم طمطمي (١)
و " بكرة وعشيا " ظرفان. وزعم الفراء أن العشي يؤنث ويجوز تذكيره إذا أبهمت،
قال:

وقد يكون العشي جمع عشية.

الرابعة - قد تقدم الحكم في الإشارة في " آل عمران " (٢). واختلف علماءنا فيمن
حلف

ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا، أو أرسل إليه رسولا، فقال مالك: إنه يحنث إلا أن
ينوي

مشافهته، ثم رجع فقال: لا ينوي في الكتاب ويحنث إلا أن يرجع الكتاب قبل وصوله.
قال ابن القاسم: إذا قرأ كتابه حنث، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليه.

وقال

أشهب: لا يحنث إذا قرأه الحالف، وهذا بين، لأنه لم يكلمه ولا ابتدأه بكلام إلا أن
يريد

ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليه يخرج قول ابن القاسم. فإن حلف ليكلمنه لم يبر
إلا

بمشافهته، وقال ابن الماجشون: وإن حلف لئن علم كذا ليعلمنه أو ليخبرنه فكتب إليه
أو أرسل إليه رسولا بر، ولو علماه جميعا لم يبر، حتى يعلمه لأن علمهما مختلف.

الخامسة - وافق مالك والشافعي والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده
لزمه، قال الكوفيون: إلا أن يكون رجل أصمت أياما فكتب لم يجز من ذلك شيء. قال

الطحاوي: الأخرس مخالف للصمت العارض، كما أن العجز عن الجماع العارض
لمرض ونحوه

يوما أو نحوه مخالف للعجز المأبوس منه الجماع، نحو الجنون في باب خيار المرأة
في الفرقة.

قوله تعالى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) في الكلام حذف، المعنى فولد له ولد وقال الله
تعالى للمولود: " يا يحيى خذ الكتاب بقوة ". وهذا اختصار يدل الكلام عليه. و "

الكتاب "

التوراة بلا خلاف. " بقوة " أي بجد واجتهاد، قاله مجاهد. وقيل العلم به، والحفظ له
والعمل به، وهو الالتزام لأوامره، والكف عن نواهيه، قاله زيد بن أسلم، وقد تقدم

(١) الطمطمي: الأعجم الذي لا يفصح.

(٢) راجع ج ٤ ص ٨١.



(۸۶)

في " البقرة " (١). [قوله تعالى] (٢): (وآتيناه الحكم صبيا) قيل: الاحكام والمعرفة بها. وروى معمر

أن الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقت. فأنزل الله تعالى " وآتيناه الحكم صبيا ". وقال قتادة: كان ابن سنتين أو ثلاث سنين. وقال مقاتل: كان ابن ثلاث سنين. و " صبيا " نصب على الحال. وقال ابن عباس: من قرأ القرآن قبل

أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيا. وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمر

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من

يحيى بن زكريا). وقال قتادة: إن يحيى عليه السلام لم يعص الله [تعالى] (٣) قط بصغيرة ولا كبيرة

ولا هم بامرأة. وقال مجاهد: وكان طعام يحيى عليه السلام العشب، كان للدمع في خديه

مجار ثابتة. وقد مضى الكلام في معنى قوله: " وسديدا وحصورا " [آل عمران: ٣٩] في " آل عمران " (٤).

قوله تعالى: (وحنانا من لدنا) " حنانا " عطف على " الحكم ". وروي عن ابن عباس أنه

قال: والله ما أدري ما " الحنان "؟. وقال جمهور المفسرين: الحنان الشفقة والرحمة والمحبة،

وهو فعل من أفعال النفس. النحاس: وفي معنى الحنان عن ابن عباس قولان: أحدهما - قال: تعطف الله عز وجل عليه بالرحمة. والقول الآخر ما أعطيه من رحمه الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك (٥). وأصله من حنين الناقة على ولدها. ويقال: حنانك وحنانيك،

قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: حنانيك تشنية الحنان. وقال أبو عبيدة: والعرب تقول:

حنانك يا رب وحنانيك يا رب بمعنى واحد، تريد رحمتك. وقال امرؤ القيس:

ويمنحها بنو شمجي بن جرم * معيزهم حنانك ذا الحنان (٦)

وقال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض
وقال الزمخشري: " حنانا " رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفًا وشفقة، وأنشد سيبويه:

فقال حنان ما أتى بك هاهنا * أذو نسب أم أنت بالحي عارف

-
- (١) راجع ج ١ ص ٤٣٧.
(٢) من ج وك.
(٣) من ك.
(٤) راجع ج ٤ ص ٨٦.
(٥) في ج: الشر.
(٦) (حنانك ذا الحنان) معناه: رحمتك يا رحمن. رواية اللسان: ويمنعها.

قال ابن الأعرابي: الحنان من صفة الله تعالى مشددا الرحيم. والحنان مخفف: العطف والرحمة. والحنان: الرزق والبركة. ابن عطية: والحنان في كلام العرب أيضا ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في حديث بلال: والله لئن قتلتم هذا العبد لاتخذن قبره حنانا، وذكر هذا الخبر الهروي، فقال: وفي حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذب فقال: والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا، أي لا تمسحن به. وقال الأزهري: معناه لا تعطفن عليه ولا ترحنن عليه لأنه من أهل الجنة. قلت: فالحنان العطف، وكذا قال مجاهد. و " حنانا " أي تعطفنا منا عليه أو منه على الخلق، قال الخطيب: تحنن علي هداك المليك * فإن لكل مقام مقالا عكرمة: محبة. وحنة الرجل امرأته لتوادهما، قال الشاعر: فقالت حنان ما أتى بك هاهنا * أذو نسب أم أنت بالحي عارف قوله تعالى: (وزكاة) " الزكاة " التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر، أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم. وقيل: المعنى زكينا بحسن الثناء عليه كما تزكي الشهود إنسانا. وقيل: " زكاة " صدقة به على أبويه، قاله ابن قتيبة. (وكان تقيا) أي مطيعا لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يلم بها. قوله تعالى: (وبرا بوالديه) البر بمعنى البار وهو الكثير البر. و (جبارا) متكبرا وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلبين الجانب وخفض الجناح. قوله تعالى: " وسلام عليه يوم ولد " قال الطبري وغيره: معناه أمان. ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان، لان الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهي أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله تعالى عليه، وحياه في المواطن التي الانسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقير إلى الله تعالى (١) عظيم الحول.

(١) في ج وك: وعظم الهول.

(^^)

قلت: وهذا قول حسن، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة في سورة " سبحان " (١) [الاسراء: ١]

عند قتل يحيى. وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا - وهما ابنا الخالة - فقال

يحيى لعيسى: ادع الله لي فأنت خير مني، فقال له عيسى: بل أنت ادع الله لي فأنت خير مني،

سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي، فانتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى،

بأن قال: إدلالة التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى

في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه. قال ابن عطية: ولكل وجه.

قوله تعالى: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا

شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها

بشرا سويا (١٧) قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨)

قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت أنى يكون

لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا (٢٠) قال كذلك قال ربك

هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا (٢١)

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فأجاءها المخاض إلى جذع

النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣) فنادها

من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا (٢٤) وهزى إليك

بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) فكلي واشربي وقرى

عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن

أكلم اليوم إنسيا (٢٦)

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٠.

قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم) القصة إلى آخرها. هذا ابتداء قصة ليست من الأولى. والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم، أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا.

(إذ انتبذت) أي تنحت وتباعدت. والنبذ الطرح والرمي، قال الله تعالى: " فنبذوه وراء ظهورهم " (٢) [آل عمران: ١٨٧]. (من أهلها) أي ممن كان معها. " إذ " بدل من " مريم " بدل اشتمال،

لان الأحيان مشتملة على ما فيها. والانتباز الاعتزال والانفراد. واختلف الناس لم انتبذت،

فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس. وقال غيره: لتعبد الله، وهذا حسن. وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد (٢) وخدمته والعبادة فيه، فتنحت من

الناس لذلك، ودخلت المسجد إلى جانب المحراب في شرفيه لتخلو للعبادة، فدخل عليها

جبريل عليه السلام. فقوله: (مكانا شرقيا) أي مكانا من جانب الشرق. والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس. والشرق بفتح الراء الشمس. وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية

من كل شيء أفضل من سواها، حكاها الطبري. وحكى عن ابن عباس أنه قال: إني لأعلم الناس لم أتخذ النصرى المشرق قبلة لقول الله عز وجل: " إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا " فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة، وقالوا: لو كان شيء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه. واختلف الناس في نبوة مريم، فقيل: كانت نبية بهذا الارسال والمحاورة للملك. وقيل: لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها

للملك كما رؤي جبريل [عليه السلام] (٣) في صفة دحية [الكلبي] (٣) حين سؤاله عن الايمان والاسلام.

والأول أظهر. وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفى في " آل عمران " (٤) والحمد لله.

قوله تعالى: (فأرسلنا إليها روحنا) قيل: هو روح عيسى عليه السلام، لان الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها.

وقيل: هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة. والظاهر أنه جبريل عليه

-
- (١) راجع ج ٢ ص ٤٠ وص ٣٠٥ ج ٤.
(٢) في ج وك: المتعبد.
(٣) من ج وك.
(٤) راجع ج ٤ ص ٨٣ وما بعدها.

السلام، لقوله: (فتمثل لها) أي تمثل الملك لها. (بشرا) تفسير أو حال. (سويا) أي مستوي الخلق، لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته. ولما رأت رجلا حسن

الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد لها بسوء ف (-) قالت إني أعوذ

بالرحمن منك إن كنت تقيا) أي ممن يتقي الله. البكالي: فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى. الثعلبي: كان رجلا صالحا فتعوذت به تعجبا. وقيل:

تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يتقى منه. في البخاري قال أبو وائل: علمت مريم

أن التقى ذو نهيمة حين قالت: " إن كنت تقيا ". وقيل: تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت قاله وهب بن منبه، حكاه مكى وغيره ابن عطية: وهو ضعيف ذاهب مع التخرص. فقال لها جبريل عليه السلام: (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) جعل

الهبه من قبله لما كان الاعلام بها من قبله. وقرأ ورش عن نافع " ليهب لك " على معنى أرسلني الله ليهب لك. وقيل: معنى " لأهب " بالهمز محمول على المعنى، أي قال: أرسلته لأهب لك. ويحتمل " ليهب " بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة.

فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه ف (-) قالت أنى يكون لي غلاما ولم

يمسسنى بشر) أي بنكاح. (ولم أك بغيا) أي زانية. وذكرت هذا تأكيدا، لان قولها لم يمسسنى بشر يشمل الحلال والحرام. وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن

أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ وروي أن

جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها، قاله ابن جريج.

ابن عباس: أخذ جبريل عليه السلام ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى.

قال الطبري: وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش

إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها

نيفا (١) وخمسين سنة. وقوله: (ولنجعله) متعلق بمحذوف، أي ونخلقه لنجعله: (آية)
دلالة
على قدرتنا عجيبة (ورحمة) [أي] (٢) لمن آمن به. (وكان أمرا مقضيا) مقدرا (٣) في
اللوح مسطورا.

(١) في ج: ستا وخمسين.

(٢) من ك.

(٣) في ج: مقدورا.

قوله تعالى: (فانتبذت به مكانا قصيا) أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد، قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال، وإنما بعدت

فرارا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج. قال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال وهذا هو الظاهر، لان الله تعالى ذكر الانتباز عقب الحمل. وقيل: غير

ذلك على ما يأتي:

قوله تعالى: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) "أجاءها" [بمعنى] (١) اضطرها، وهو تعدية

جاء بالهمز. يقال: جاءه (٢) به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به وأذهبه. وقرأ شبيل

ورويت عن عاصم "فاجأها" من المفاجأة. وفي مصحف أبي "فلما أجاءها المخاض".

وقال زهير:

وجار سار معتمدا إلينا * أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ الجمهور "المخاض" بفتح الميم. وابن كثير فيما روي عنه بكسرها وهو الطلق وشدة

الولادة وأوجاعها. مخضت المرأة تمخض مخاضا ومخاضا. وناقاة ماخض أي دنا ولادها.

"إلى جذع النخلة" كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع

الطلق. والجذع ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن ولهذا لم يقل إلى النخلة. (قالت يا ليتني مت قبل هذا) تمت مريم عليها السلام الموت من جهة

الدين لوجهين: أحدهما - أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك. الثاني - لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك. وعلى هذا الحد

يكون تمنى الموت جائزا، وقد مضى هذا المعنى مبينا في سورة "يوسف" (٣) عليه السلام.

والحمد لله.

قلت: وقد سمعت أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول: اخرج يا من يعبد من دون الله فحزنت لذلك، و (قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا). النسي في كلام العرب الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل

للمسافر ونحوه.

-
- (١) من ج وك.
(٢) في ك جاءه وأجاءه.
(٣) راجع ج ٩ ص ٢٦٩.

وحكي عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا: احفظوا أنساءكم، الأنساء جمع نسي وهو الشيء الحقيقير يغفل فينسى. ومنه قول الكميت رضي الله تعالى عنه: أتجعلنا جسرا لكلب قضاة* ولست بنسي في معد ولا دخل وقال الفراء: النسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها، فقول مريم: " نسيا منسيا " أي حيضة ملقاة. وقرئ " نسيا " بفتح النون وهما لغتان مثل الحجر والحجر والوتر والوتر. وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز: " نسئا " بكسر النون. وقرأ نوف البكالي: " نسئا " بفتح النون من نسأ الله تعالى في أجله أي أخره. وحكاها أبو الفتح والداني عن محمد بن كعب. وقرأ بكر بن حبيب: " نسا " بتشديد السين وفتح النون دون همز. وقد حكى الطبري في قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضا أختها بيحيى، فجاءتها أختها زائرة فقالت: مريم أشعرت أنت أني حملت؟ فقالت لها: وإني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، وذلك أنه روي أنها أحست بجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم، قال السدي فذلك قوله: " مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " (١) [آل عمران: ٣٩]. وذكر أيضا من قصصها أنها خرجت فارة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار، كان يخدم معها في المسجد وطول في ذلك. قال الكلبي: قيل ليوسف - وكانت سميت له أنها حملت من الزنى - فالآن يقتلها الملك، فهرب بها، فهم في الطريق بقتلها، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس، قال ابن عطية: وهذا كله ضعيف. وهذه القصة تقتضي أنها حملت، واستمرت حاملا على عرف النساء (٢)، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر. قاله عكرمة، ولذلك قيل: لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظا لخاصة عيسى. وقيل: ولدته لتسعة. وقيل: لسته. وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر. والله أعلم. قوله تعالى: (فنادها من تحتها) قرئ بفتح الميم وكسرهما. قال ابن عباس: المراد

ب " - من " جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وقاله علقمة والضحاك وقتادة، ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله [تعالى] (٣) فيها مراد عظيم. وقوله:

-
- (١) راجع ج ٤ ص ٧٤.
(٢) في ج وك: عرف البشر.
(٣) من ك.

(ألا تحزني) تفسير النداء، و " أن " مفسرة بمعنى أي، المعنى: فلا تحزني بولادتك. (قد جعل ربك تحتك سرىا) يعني عيسى. والسري من الرجال العظيم الخصال السيد. قال

الحسن: كان والله سرىا من الرجال. ويقال: سري فلان على فلان أي تكرم. وفلان سري من قوم سراة. وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قريب جذع النخلة.

قال ابن عباس: كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم. والنهر يسمى سرىا

لان الماء يسري فيه، قال الشاعر:

سلم (١) ترى الدالي منه أزورا * إذا يعب في السرى هرهرا
وقال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا (٢) * مسجورة متجاورا قلامها
وقيل: ناداها عيسى (٣)، وكان ذلك معجزة وآية وتسكينا لقلبها، والأول أظهر. وقرأ ابن عباس:

(فناداها ملك من تحتها) قالوا: وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من

البقعة التي كانت هي عليها.

قوله تعالى: (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلي واشربي وقرى عينا) فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: " وهزي " أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع. والباء في قوله: " بجذع " زائدة مؤكدة كما يقال: خذ بالزام، وأعط بيدك

قال الله تعالى: " فليمدد بسبب إلى السماء " (٤) أي فليمدد سببا. وقيل: المعنى

وهزي إليك

رطبا علي جذع النخلة. " وتساقط " أي تتساقط فأدغم التاء في السين. وقرأ حمزة " تساقط "

منخفا فحذف التي أدغمها غيره. وقرأ عاصم في رواية حفص " تساقط " بضم التاء منخفا

وكسر القاف. وقرئ: " تتساقط " بإظهار التاءين و " يساقط " بالياء وإدغام التاء " وتسقط "

(١) السلم: الدلو التي لها عروة واحدة كدلو السقائين. والمدالي: المستقى بالدلو. والههررة: صوت الماء إذا جرى.

(٢) أي شق العير والأتان النبات الذي على الماء. ومسجورة: عين مملوءة. والمتجاور المتقارب والقلام: نبت وقيل: هو القصب. والبيت من معلقته.
(٣) أي على قراءة من فتح من وتحتها.
(٤) راجع ج ١٢ ص ٢٢.

و " يسقط " و " تسقط " و " يسقط " بالتاء للنخلة وبالياء للجدع، فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه. " رطبا " نصب بالهز، أي إذا هزرت الجذع هزرت

بهزه " رطبا جنيا " وعلى الجملة ف " - رطبا " يختلف نصبه بحسب معاني القراءات، فمرة

يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة. " وجنيا " معناه قد طابت ووصلحت للاجتناء، وهي من جنيت الثمرة. ويروى عن ابن مسعود - ولا يصح - أنه قرأ " تساقط عليك رطبا جنيا برنيا " (١). وقال مجاهد: " رطبا جنيا " قال: كانت عجوة.

وقال عباس بن الفضل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله: " رطبا جنيا " فقال: لم يذو.

قال وتفسيره: لم يجف ولم يبس ولم يبعد عن يدي محتنيه، وهذا هو الصحيح. قال الفراء: الجني والمجني واحد يذهب إلى أنهما بمنزلة القليل والمقتول والجريح والمجروح.

وقال غير الفراء: الجني المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته، وأنشدوا:

وطيب ثمار في رياض أريضة * وأغصان أشجار جناها على قرب
يريد بالجني ما يجنى منها أي يقطع ويؤخذ. قال ابن عباس: كان جذعا نخزا فلما هزت

نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف،

ثم أخضر فصار بلحا ثم احمر فصار زهوا، ثم رطبا، كل ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشده منه شيء.

الثانية - استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما، فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه، لأنه أمر مريم بهز النخلة (٢) لترى آية، وكانت

الآية تكون بالأ تهز.

الثالثة - الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدر في التوكل، خلافا لما تقوله جهال المتزهدة، وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه.

وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال: " كلما دخل عليها زكريا المحراب

(١) البرني: ضرب من التمر أصفر مدور وهو أجود التمر واحد برنية.
(٢) في ج وك: الجذع.

وجد عندها رزقا " (١) الآية [آل عمران: ٣٧]. فلما ولدت أمرت بهز الجذع. قال
علماؤنا: لما كان قلبها
فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل
سرهما بحديثه
وأمره، وكلها إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده. وحكى الطبري
عن
ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها: لا تحزني، فقالت له وكيف لا أحزن وأنت
معي؟!
لا ذات زوج ولا مملوكة! أي شيء عذري عند الناس؟! " يا ليتني مت قبل هذا وكنت
نسيا منسيا " فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام.
الرابعة - قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية،
ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ولذلك قالوا: التمر عادة
للنفساء من ذلك الوقت وكذلك التحنيك. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من
الرطب ولا للمريض خير من العسل، ذكره الزمخشري. قال ابن وهب قال مالك قال
الله
تعالى: " رطبا جنيا " الجني من التمر ما طاب من غير نقش ولا إفساد. والنقش أن
ينقش
من أسفل البسرة حتى ترطب، فهذا مكروه، يعني مالك أن هذا تعجيل للشئ قبل وقته،
فلا ينبغي لاحد أن يفعله، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوزا لبيعه، ولا حكما بطييه.
وقد
مضى هذا القول في الانعام (٢). والحمد لله. وعن طلحة بن سليمان " جنيا " بكسر
الجيم للاتباع،
أي جعلنا (٣) لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب، والثانية سلوة
الصدر،
لكونهما معجزتين. وهو [معنى] (٤) قوله تعالى: (فكلي واشربي وقرى عينا) أي فكلي
من
الجني، واشربي من السري، " وقرى عينا " برؤية الولد النبي. وقرى بفتح القاف وهي
قراءة
الجمهور. وحكى الطبري قراءة " وقرى " بكسر القاف وهي لغة نجد. يقال: قر عينا
يقر
ويقر بضم القاف وكسرهما وأقر الله عينه فقرت. وهو مأخوذ من القر والقرة وهما البرد.
ودمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة. وضعف فرقة هذا وقالت: الدمع كله حار،
فمعنى

أقر الله عينه أي سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن، وفلان قرّة عيني،
أي

-
- (١) راجع ج ٤ ص ٦٩.
 - (٢) راجع ج ٧ ص ٥٠ وما بعدها.
 - (٣) في ج وك: جمعنا.
 - (٤) الزيادة من الكشاف للزمخشري.

نفسى تسكن بقربه. وقال الشيباني: " وقرى عينا " معناه نامى حضها على الأكل والشرب والنوم. قال أبو عمرو: أقر الله عينه أي أنام عينه، وأذهب سهره. و " عينا " نصب على التمييز، كقولك: طب نفسا. والفعل في الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذي العين،

وينصب الذي كان فاعلا في الحقيقة على التفسير. ومثله طببت نفسا، وتفقت شحما، وتصببت عرقا، ومثله كثير.

قوله تعالى: (فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما) فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: " فإما ترين " الأصل في ترين ترأين (١) فحذفت الهمزة كما حذفت

من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار " ترين " ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التانيث، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار ترين، ثم حذفت النون علامة للجزم لان إن حرف شرط وما صلة

فبقي ترى، ثم دخله نون التوكيد وهي مثقلة، فكسر ياء التانيث لالتقاء الساكنين، لان النون

المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار ترين وعلى هذا النحو قول ابن دريد:

* إما ترى رأسي حاكى لونه (٢) *

وقول الأفوه: * إما ترى رأسي أزرى به (٣) *

وإنما دخلت النون هنا بتوسطة " ما " كما يوطئ لدخولها أيضا لام القسم. وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة " ترين " بسكون الياء وفتح النون خفيفة، قال أبو الفتح: وهي شاذة.

الثانية - قوله تعالى: " فقولي إني نذرت " هذا جواب الشرط وفيه إضمار، أي فسألك عن ولدك " فقولي إني نذرت للرحمن صوما " أي صمتا، قاله ابن عباس وأنس ابن مالك. وفي قراءة أبي بن كعب " إني نذرت للرحمن صوما صمتا " وروي عن أنس.

(١) أي قبل التوكيد ودخول الجازم وهي بوزن تمنعين.

(٢) تمامه: * طرت صبح تحت أذيال الدجى *

(٣) تمامه: * مأس زمان ذي انتكاس مؤوس *

وعنه أيضا " وصمتا " بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قرآناً،
فإذا أتت معه واو فممكّن أن يكون غير الصوم. والذي تتابعت به الاخبار عن أهل الحديث
ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت، لان الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام.
وقيل: هو الصوم والمعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة. وعلى هذا
تخرج قراءة أنس " وصمتا " بواو، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزماً بالنذر،
كما أن
من نذر منا المشي إلى البيت اقتضى ذلك الاحرام بالحج أو العمرة. ومعنى هذه الآية أن
الله
تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام - أو ابنها على الخلاف المتقدم - بأن
تمسك عن
مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتبين الآية فيقوم
عذرها. وظاهر
الآية أنها أبيض لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية، وهو قول الجمهور. وقالت فرقة:
معنى " قولي " بالإشارة لا بالكلام. الزمخشري: وفيه أن السكوت عن السفية واجب،
ومن أذل الناس سفية لم يجد مسافها.
الثالثة - من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قرابة
فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب
النفس،
كنذر القيام في الشمس ونحوه. وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في
شريعتنا،
وقد تقدم. وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام. وهذا هو الصحيح لحديث
أبي إسرائيل، خرجه البخاري عن ابن عباس (١). وقال ابن زيد والسدي: كانت سنة
الصيام
عندهم الامساك عن الاكل والكلام.
قلت: ومن سنتنا نحن في الصيام الامساك عن الكلام القبيح، قال عليه الصلاة والسلام
(إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنني صائم).
وقال عليه
الصلاة والسلام: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه
وشرابه).

(١) الحديث كما في البخاري عن ابن عباس قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه).

قوله تعالى: فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا (٢٧) يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا (٢٨) قوله تعالى: (فأنت به قومها تحمله) روى أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت

فيه. قال ابن عباس: خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها

صبي تحمله، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات من النهار. وقال الكلبي: ولدت حيث

لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوما للنفاس، ثم أتت قومها تحمله، فلما رأوها ومعها

الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين، فقالوا منكرين: (لقد جئت شيئا فريا) أي جئت

بأمر عظيم كالاتي بالشئ يفترية. قال مجاهد: " فريا " عظيما. وقال سعيد بن مسعدة: أي مختلعا مفتعلا، يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد. والولد من الزنى كالشئ المفترى.

قال الله تعالى: " ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن " (١) [المتحنة: ١٢] أي بولد يقصد إلحاقه

بالزوج وليس منه. يقال: فلان يفري الفري أي يعمل العمل البالغ، وقال أبو عبيدة: الفري العجيب النادر، وقاله الأخفش. قال: فريا عجيبا. والفري القطع كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا. وقال قطرب: الفري الجديد من الأسقية، أي جئت

بأمر جديد بديع لم تسبقي إليه. وقرأ أبو حياة: " شيئا فريا " بسكون الراء. وقال السدي

ووهب بن منبه: لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم،

فمدت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحملت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا

زنت فأخرسه الله تعالى، فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها، وجعلوا

يخفضون إليها القول ويلينون، فقالوا: " يا مريم لقد جئت شيئا فريا " أي عظيما قال (٢) الراجز:

(١) راجع ج ١٨ ص ٧٠ فما بعد.

(٢) هو زرارة بن صعب بن دهر يخاطب العامرية وكان
قد خرج معها في سفر يمتارون من اليمامة فلما امتاروا وصدروا جعل زرارة بن صعب يأخذه بطنه فكان
يتخلف خلف

القوم فقالت العامرية:

لقد رأيت رجلا دهريا * يمشى وراء القوم سيتهيا

* كأنه مضطغن صبيا *

يريد أنه امتلأ بطنه فأجابها زرارة بالأبيات. و (حجريا) منسوب إلى حجر اليمامة وهو قصبتهيا.

قد أطعمتني دقلا حوليا * مسوسا مدودا حجريا
* قد كنت تفرين به الفريا *
أي [تعظيمه] (١).

قوله تعالى: (يا أخت هارون) اختلف الناس في معنى هذه الاخوة ومن هارون؟
فقيل: هو هارون أخو موسى، والمراد من كنا نظنها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل
هذا.

قيل: على هذا كانت مريم من ولد هارون أخي موسى فنسبت إليه بالاخوة لأنها من
ولده،

كما يقال للتميمي: يا أخت تميم وللعربي يا أخت العرب. وقيل كان لها أخ من أبيها اسمه
هارون، لان هذا الاسم كان كثيرا في بني إسرائيل تبركا باسم هارون أخي موسى،
وكان أمثل

رجل في بني إسرائيل، قاله الكلبي. وقيل: هارون هذا رجل صالح في ذلك الزمان تبع
جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هارون. وقال قتادة: كان في ذلك الزمان
في بني إسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هارون فنسبوا إلى أخوته من
حيث

كانت على طريقته قبل، إذ كانت موقوفة على خدمة البيع، أي يا هذه المرأة الصالحة
ما كنت

أهلا لذلك. وقال كعب الأخبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن مريم
ليست

بأخت هارون أخي موسى، فقالت له عائشة: كذبت. فقال لها: يا أم المؤمنين إن كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما من المدة
ستمائة

سنة. قال: فسكتت. وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران
سألوني فقال إنكم تقرؤون " يا أخت هارون " وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما
قدمت

على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: (إنهم كانوا يسمون
بأنبيائهم

والصالحين قبلهم). وقد جاء في بعض طرقه في غير الصحيح أن النصارى قالوا له: إن
صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون وبينهما في المدة ستمائة سنة؟! قال المغيرة:
فلم أدر

ما أقول، وذكر الحديث. والمعنى أنه اسم وافق اسما. ويستفاد من هذا جواز التسمية
بأسماء الأنبياء، والله أعلم.

(١) في الأصول: (تطعمينه) ولعله تصحيف.

(١٠٠)

قلت: فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد. الزمخشري: كان بينهما وبينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهرون، وإن صح فكما قال السدي لأنها كانت من نسله، وهذا كما تقول للرجل من قبيلة:

يا أخوا فلان. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (إن أخوا صداء (١) قد أذن فممن أذن فهو يقيم)

وهذا هو القول الأول. ابن عطية: وقالت فرقة بل كان في ذلك الزمان رجل فاجر اسمه هارون فنسبوها إليه على جهة التعبير والتوبيخ، ذكره الطبري ولم يسم قائله. قلت: ذكره الغزنوي عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مثالا في الفجور فنسبت إليه. والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟! وهذا من التعريض

الذي يقوم مقام التصريح. وذلك يوجب عندنا الحد وسيأتي في سورة "النور" القول فيه

إن شاء الله تعالى (٢). وهذا القول الأخير يرده الحديث الصحيح، وهو نص صريح فلا كلام

لاحد معه، ولا غبار عليه. والحمد لله. وقرأ عمر بن لجأ التيمي: (ما كان أباك امرؤ (٣) سوء).

قوله تعالى: فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣٣) فيه خمس مسائل

الأولى - قوله تعالى: (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت

(١) هو زياد بن الحرث الصدائي كان قد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الفجر فأذن فأراد بلال

أن يقيم فقال صلى الله عليه وسلم: " إن أخوا صداء قد أذن... " الحديث.

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٥٩ فما بعده

(٣) قال في (البحر): يجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الابتداء بالنكرة وهو الإضافة.

(1·1)

ب " إني نذرت للرحمن صوما " وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال: إن أمرها ب " - قولي " إنما أريد به الإشارة. ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا: استخفافها بنا أشد علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهة التقرير " كيف نكلم من كان في المهد صبيا " و " كان " هنا ليس يراد بها الماضي (١)، لأن كل واحد قد كان في المهد صبيا،

وإنما هي في معنى هو [الآن] (٢). وقال أبو عبيدة: (كان) هنا لغو، كما قال: (٣)
* وجيران لنا كانوا كرام *

وقيل: هي بمعنى الوجود والحدوث كقوله: " وإن كان ذو عسرة " (٤) وقد تقدم. وقال ابن الأنباري: لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت " صبيا " ولا أن يقال " كان " بمعنى حدث، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول: كان

الحر وتكتفي به. والصحيح أن " من " في معنى الجزاء و " كان " بمعنى يكن، والتقدير:

من يكن في المهد صبيا فكيف نكلمه؟! كما تقول: كيف أعطي من كان لا يقبل عطية،

أي من يكن لا يقبل. والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء، كقوله تعالى " تبارك

الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار " (٥) أي إن يشأ يجعل.

وتقول: من كان إلى منه إحسان كان إليه مني مثله، أي من يكن منه إلى إحسان يكن إليه مني مثله. " والمهد " قيل: كان سريرا كالمهد. وقيل " المهد " هاهنا حجر الام. وقيل: المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوم في المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام

كلامهم قال لهم من مرقد: (إني عبد الله) وهي:

الثانية - فقيل: كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و " قال إني عبد الله " فكان أول

ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وبربوبيته، ردا على من غلا من بعده في شأنه. والكتاب الإنجيل، قيل: آتاه في تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوة كما علم آدم

(١) في ج وك: المضي.
(٢) الزيادة من كتب التفسير.

(٣) هو الفرزدق و صدر البيت:
* فكيف إذا رأيت ديار قوم * (٤) راجع ج ٣ ص ٣٧١.
(٥) راجع ج ١٣ ص ٦.

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلي. وهذا في غاية الضعف على ما نبينه في المسألة بعد هذا.

وقيل: أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلا في الحال،

وهذا أصح. (وجعلني مباركا) أي ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلما له. التستري (١): وجعلني أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم،

وأغيث الملهوف. (وأوصاني بالصلاة والزكاة) أي لأؤديهما إذا أدركني التكليف، وأمكنني

أداؤهما، على القول الأخير الصحيح. (ما دمت حيا) [ما] (٢) في موضع نصب على الظرف أي دوام

حياتي. [قوله تعالى] (٢): (وبرا بوالدتي) قال ابن عباس: لما قال "وبرا بوالدتي" ولم يقل بوالدي علم أنه شئ من جهة الله تعالى. (ولم يجعلني جبارا) أي متعظما متكبرا يقتل

ويضرب على الغضب. وقيل: الجبار الذي لا يرى لاحد عليه حقا قط. (شقيا) أي خائبا

من الخير. ابن عباس: عاقا. وقيل: عاصيا لربه وقيل: لم يجعلني تاركا لامره فأشقى كما شقى إبليس لما ترك أمره.

الثالثة - قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر! أخبر عيسى عليه السلام بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت. وقد روي في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إن هذا

لأمر عظيم. وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة

الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان فكان نطقه إظهار براءة أمه

لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة. ولم ينقل

أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولاد لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على

فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله. ويدل أيضا على أنه تكلم في المهد خلافا لليهود

والنصارى. والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تحدد. وإنما صح براءتها من
الزنى
بكلامه في المهد. ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على
الأمم

(١) في ك: الفشيري.

(٢) من ج وك.

السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه ولم ينسخ في شريعة أمره. وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوي حيث جنه الليل، لا مسكن له، صلى الله عليه وسلم.

الرابعة - الإشارة بمنزلة الكلام وتفهم ما يفهم القول. كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: " فأشارت إليه " وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: (كيف نكلم) وقد مضى هذا في " آل عمران " (١) مستوفى.

الخامسة - قال الكوفيون: لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه. وروى مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفاً، ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطئ الحلال والشبهة. قالوا: واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالاجماع. قال ابن القصار: قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس. وما ذكره من الاجماع في شهادة الأخرس فغلط. وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ. قال ابن المنذر: والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك. قال المهلب: وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام مثل قوله عليه الصلاة والسلام: (بعثت أنا والساعة كهاتين) نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة. وفي إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام. (والسلام علي) أي السلامة علي من الله تعالى. قال الزجاج: ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام. وقوله: (يوم ولدت) يعني في الدنيا. وقيل: من همز الشيطان كما تقدم في " آل عمران " (١). (ويوم أموت) يعني

(١) راجع ج ٤ ص ٨١ و ص ٦٨.

(١٠٤)

في القبر (ويوم أبعث حيا) يعني في الآخرة. لان له أحوالا ثلاثة: في الدنيا حيا، وفي القبر ميتا، وفي الآخرة مبعوثا، فسلم في أحواله كلها وهو معنى قول الكلبي. ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان. وقال قتادة: ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رآته امرأة يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص في سائر آياته (١) فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، والثدي الذي أرضعك، فقال لها عيسى عليه السلام: طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى واتبع ما فيه وعمل به.

قوله تعالى: ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون (٣٤) ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٣٥) وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٣٦) فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم (٣٧) أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين (٣٨) وانذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون (٣٩) إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون (٤٠) قوله تعالى: (ذلك عيسى ابن مريم) أي ذلك الذي ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك اعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وأنه ابن يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى:

إنه الإله أو ابن الإله. (قول الحق) قال الكسائي: " قول الحق " نعت لعيسى أي ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق] (٢). وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله، والحق هو الله عز وجل.

وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق. وقيل: التقدير هذا الكلام قول الحق. قال ابن عباس: (يريد هذا كلام عيسى [ابن مريم] (٣) صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل، وأضيف

القول إلى الحق كما قال: (وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) (٤) [الأحقاف: ١٦] أي الوعد والصدق. وقال:

(١) في ج: زمانه.
(٢) زيادة يفتضيها المقام.
(٣) من ج وك.
(٤) راجع ج ١٦ ص ١٩٥ فما بعد.

(1.0)

" ولداد الآخرة خير " (١) [الانعام: ٣٢] أي ولا الدار الآخرة. وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر " قول الحق "

بالنصب على الحال، أي أقول قولاً حقاً. والعامل معنى الإشارة في (ذلك). الزجاج: هو مصدر أي أقول قول الحق لان ما قبله يدل عليه. وقيل: مدح. وقيل: إغراء. وقرأ عبد الله: " قال الحق ". وقرأ الحسن: " قول الحق " بضم القاف، وكذلك في " الانعام " (٢)

" قول الحق ". والقول والقال والقول بمعنى واحد، كالرهب والرهب والرهب. (الذي) من نعت عيسى. (فيه يمترون) أي يشكون، أي ذلك عيسى بن مريم الذي فيه يمترون القول الحق. وقيل: " يمترون " يختلفون. ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله تعالى (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع،

فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية. فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله وهم النسطورية، فقال الاثنان كذبت، ثم قال أحد الاثنان للآخر قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى. قال الرابع: كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع - على ما قال - فاقتتلوا فظهر على المسلمين، فذلك قول الله تعالى: (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط (٣) من الناس) [آل عمران: ٢١]. وقال قتادة: وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

(فاختلف الأحزاب من بينهم) اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً فهذا معنى قوله (الذي فيه تمترون) بالتاء المعجمة من فوق وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي وغيره. قال ابن عباس:

فمر بمریم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها اثنتي عشرة سنة حتى مات الملك الذي

كانوا يخافونه، ذكره الماوردي.

قلت: ووقع في تاريخ مصر فيما رأيت وجاء في الإنجيل الظاهر أن السيد المسيح لما ولد

في بيت لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠٠ فما بعد.

(٢) راجع ج ٧ ص ١٧ فما بعد.

(٣) راجع ج ٤ ص ٤٦.

(١٠٦)

في الحلم وقال له: قم فخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك،
فإن

هيرودس مزع أن يطلب عيسى ليهلكه فقام من نومه: وامثل أمر ربه وأخذ السيد
المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر، وفي حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البلسان التي
بظاهر

القاهرة (١)، وغسلت ثيابه على ذلك البئر فالبلسان لا يطلع ولا ينبت إلا في تلك
الأرض (٢)،
ومنه يخرج الدهن الذي يخالط الزيت الذي تعمد به النصارى ولذلك كانت قارورة
واحدة

في أيام المصريين لها مقدار عظيم، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك
القسطنطينية

وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما
يهاديههم به ملوك

مصر موقعا جليلا جدا وتكون أحب إليهم من كل هدية لها قدر. وفي تلك السفارة
وصل

السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين (٣) وقسقام (٤) المعروفة الآن بالبحرقة (٥)
فلذلك يعظمها النصارى إلى

الآن، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان، لأنها نهاية ما وصل إليها من
أرض مصر،

ومنها عاد إلى الشام. والله أعلم.

قوله تعالى: (ما كان لله) أي ما ينبغي له ولا يجوز: (أن يتخذ من ولد) " من " صلة
للكلام، أي أن يتخذ ولدا. و " أن " في موضع رفع اسم " كان " أي ما كان لله أن
يتخذ

ولدا، أي ما كان من صفة اتخاذ الولد، ثم نزه نفسه تعالى عن مقاتلهم فقال: (سبحانه)
أن

يكون له ولد. (إذا قضى أمرا فإنما يقول لك كن فيكون) تقدم في (البقرة) (٦)
مستوفى. (إن

الله ربي وربكم) قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو: بفتح " أن " وأهل الكوفة "
وإن "

بكسر الهمزة على أنه مستأنف. تدل عليه قراءة أبي " كن فيكون. إن الله " بغير واو
على

العطف على " قال إني عبد الله ". وفي الفتح أقوال: فمذهب الخليل وسيبويه أن
المعنى،

ولأن الله ربي وربكم، وكذا " وأن المساجد لله " ف " - أن " في موضع نصب عندهما.
وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام، وأجاز أن يكون أيضا في موضع

-
- (١) بضاحية المطرية.
 - (٢) في ك: ذلك المكان.
 - (٣) الأشمونين: إحدى قرى مركز ملوى.
 - (٤) قسقام: هي القوصية الآن إحدى قرى مركز منفلوط.
 - (٥) المحرقة: وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز منفلوط.
 - (٦) راجع ج ٢ ص ٨٧ فما بعد.
 - (٧) راجع ج ١٩ ص ١٩

خفض بمعنى وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبأن الله ربي وربكم، وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بمعنى، والامر أن الله ربي وربكم. وفيها قول خامس: حكى أبو عبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى: وقضى أن الله ربي وربكم، فهي معطوفة على قوله: "أمرأ" من قوله: "إذا قضى أمرأ" والمعنى إذا قضى أمرأ وقضى أن الله. ولا يتبدأ بـ "أن" على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث. ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية. (فاعبدوه هذا صراط مستقيم) أي دين قويم لا اعوجاج فيه. قوله تعالى: (فاختلف الأحزاب من بينهم) "من" زائدة أي اختلف الأحزاب بينهم. وقال قتادة: أي ما بينهم فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام. فاليهود بالقدح والسحر. والنصارى قالت النسطورية منهم: هو ابن الله. والملكانية ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبية: هو الله، فأفرطت النصارى وغلت، وفرطت اليهود وقصرت. وقد تقدم هذا في "النساء" (١). وقال ابن عباس: المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين. (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أي من شهود يوم القيامة، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود الحضور. ويجوز أن يكون الحضور لهم، ويضاف إلى الظرف لوقوعه فيه، كما يقال: ويل لفلان من قتال يوم كذا، أي من حضوره ذلك اليوم. وقيل: المشهد بمعنى الموضع الذي يشهده الخلائق، كالمحشر للموضع الذي يحشر إليه الخلق. وقيل: فويل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة. قوله تعالى: (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب، فتقول: أسمع يزيد وأبصر يزيد أي ما أسمع وأبصره. قال: فمعناه أنه عجب نبيه منهم. قال الكلبي: لا أحد أسمع يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) [المائدة: ١١٦] (١). وقيل: "أسمع"

(١) راجع ج ٦ ص ٢١ فما بعد وص ٣٧٤ فما بعد.

(١٠٨)

بمعنى الطاعة، أي ما أطوعهم لله في ذلك اليوم. (ولكن الظالمون اليوم) يعني في الدنيا.

(في ضلال مبين) وأي ضلال أبين من أن يعتقد المرء في شخص مثله حملته الأرحام، وأكل وشرب، وأحدث واحتاج أنه إله؟! ومن هذا وصفه أصم أعمى ولكنه سييصر ويسمع في الآخرة إذا رأى العذب، ولكنه لا ينفعه ذلك، قال معناه قتادة وغيره. قوله تعالى: (وأندرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت في الجنة فيتحسر عليه. وقيل: تقع الحسرة إذا أعطي كتابه بشماله. " إذ قضى الأمر " أي فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة

كأنه كبش أملح (١) فيوقف بين الجنة والنار فيقال لأهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون

وينظرون ويقولون نعم هذا الموت - قال - ثم يقال لأهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون

وينظرون ويقولون نعم هذا الموت - قال - فيؤمر به فيذبح ثم يقال لأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت - ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - " وأندرهم

يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون " خرجه البخاري بمعناه عن ابن عمر،

وابن ماجة من حديث أبي هريرة والترمذي عن أبي سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح. وقد ذكرنا ذلك في كتاب " التذكرة " وبيننا هناك أن الكفار مخلدون بهذه الأحاديث

والآي ردا على من قال: إن صفة الغضب تنقطع، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون

وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة.

قوله تعالى: (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) أي نमित سكانها فترثها.

(وإلينا يرجعون) يوم القيامة فنجازي كلا بعمله، وقد تقدم هذا في " الحجر " (٢) وغيرها.

(١) الأملح: الذي يياضه أكثر من سواده وقيل النفي البياض.

(٢) راجع ج ١٠ ص ١٨ فما بعد.



(1.9)

قوله تعالى: واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا (٤١)
إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك
شيئا (٤٢) يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك
صراطا سويا (٤٣) يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن
عصيا (٤٤) يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون
للشيطان وليا (٤٥) قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته
لأرجمنك واهجرني مليا (٤٦) قال سلام عليك سأستغفر لك ربي
إنه كان بي حفيا (٤٧) وأعتزلكم وما توعدون من دون الله وأدعوا ربي
عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا (٤٨) فلما اعتزلهم وما يعبدون
من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا (٤٩) ووهبنا
لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٥٠)

قوله تعالى: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) المعنى: واذكر في الكتاب
الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره. وقد تقدم معنى الصديق في "النساء
(١)"

واشتقاق الصديق في "البقرة" (٢) فلا معنى للإعادة. ومعنى الآية: اقرأ عليهم يا محمد
في القرآن
أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يتخذ الأنداد،
فهؤلاء

لم يتخذون الأنداد؟! وهو كما قال "ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه"
(٢) [البقرة: ١٣٠].

قوله تعالى: (إذ قال لأبيه) وهو آزر وقد تقدم (٣). (يا أبت) قد تقدم القول فيه
في (يوسف) (٤) (لم تعبد) أي لأي شيء تعبد: (ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٢.

(٢) راجع ج ١ ص ٢٣٣ و ج ٢ ص ١٣٢.

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٢.

(٤) راجع ج ٩ ص ١٢١.

شيئا) يريد الأصنام. (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) أي من اليقين
والمعرفة

بالله وما يكون بعد الموت، وأن من عبد غير الله عذب إلى ما أدعوك إليه.
(أهدك صراطا سويا) أي أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة. (يا أبت لا تعبد الشيطان)
أي لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئا في معصية فقد عبده. (إن
الشيطان

كان للرحمن عصيا) (كان) صلة زائدة وقيل: [كان] (١) بمعنى صار. وقيل بمعنى
الحال أي هو

للرحمن. وعصيا وعاص بمعنى واحد قاله الكسائي. (يا أبت إني أخاف أن يمسك
عذاب من

الرحمن) أي إن مت على ما أنت عليه. ويكون "أخاف" بمعنى أعلم. ويجوز أن
يكون

"أخاف" على بابها فيكون المعنى: إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب.
(فتكون للشيطان وليا) أي قرينا في النار. (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) أي
أترغب

عنها إلى غيرها. (لئن لم تنته لأرجمنك) قال الحسن: يعني بالحجارة. الضحاك:
بالقول،

أي لأشتمنك. ابن عباس: لأضربنك. وقيل: لأظهرن أمرك. (واهجرتني مليا). قال
ابن عباس: أي اعتزلني سالم العرض لا يصيبنيك منى معرة، واختاره الطبري، فقله: "مليا"

على هذا حال من إبراهيم. وقال الحسن ومجاهد: "مليا" دهرًا طويلا، ومنه قول
المهلهل:

فتصدعت صم الجبال لموته * وبكت عليه المرملات مليا
قال الكسائي: يقال هجرته مليا وملوة وملوة وملوة وملوة وملوة، فهو على هذا القول
ظرف، وهو

بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه.

قوله تعالى: (قال سلام عليك) لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد، لأنه
لم يؤمر بقتاله على كفره. والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة
لا التحية،

قال الطبري: معناه أمانة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام. وقال النقاش: حلیم
خاطب سفيها، كما قال: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا (٢) سلاما" [الفرقان: ٦٣].

وقال بعضهم في معنى

تسليمه: هو تحية مفارق، وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها. قيل لابن عيينة: هل يجوز

السلام على الكافر؟ قال: نعم، قال الله تعالى: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم
في الدين (٣)

-
- (١) من ك.
(٢) راجع ج ١٣ ص ٦٧ فما بعد.
(٣) راجع ج ١٨ ص ٥٨ فما بعد.

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين " (١) [المتحنة: ٨]. وقال:

" قد كانت " لكم أسوة حسنة في إبراهيم " (١) [المتحنة: ٤] الآية، وقال إبراهيم لأبيه " سلام عليك " .

قلت: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان: روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم

أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه) خرجه البخاري ومسلم. وفي الصحيحين عن أسامة

ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فذكية، وأردف

وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة (٢) في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة

بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم

عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة،

خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم،

الحديث. فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء لان ذلك إكرام، والكافر ليس أهله. والحديث الثاني يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة

يبين أن معناه الخصوص. وقال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه

بالسلام فبان بهذا أن حديث أبي هريرة (لا تبدءوهم بالسلام) إذا كان لغير سبب يدعوكم

إلى أن تبدءوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار

أو سفر. قال الطبري: وقد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب. وفعله

ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه، قال علقمة: فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن

بيدءوا بالسلام؟! قال: نعم، ولكن حق الصحبة. وكان أبو أمامة (٣) إذا انصرف إلى بيته
لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه، ف قيل له في ذلك فقال:
أمرنا أن
نفشي السلام. وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال: إن سلمت فقد
سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروي عن الحسن
البصري أنه
قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم.

(١) راجع ج ١٨ ص ٥٨ فما بعد، وص ٥٥ فما بعد.

(٢) في ج وك: معاذ.

(٣) في الطبعة الأولى: أسامة وليس بصحيح.

قلت: وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذي معناه التحية إنما خص به هذه الأمة، لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى أعطى أمتي ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة) الحديث، ذكره الترمذي الحكيم، وقد مضى في الفاتحة (١) بسنده. وقد مضى الكلام في معنى قوله: " سأستغفر لك ربي " .

وارتفع السلام بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقرنت المعرفة. قوله تعالى: (إنه كان بي حفيا): الحفي المبالغ في البر والالطاف، يقال: حفي به وتحفى إذا بره. وقال الكسائي يقال: حفي بي حفاوة وحفوة. وقال الفراء: " إنه كان

بي حفيا " أي عالما لطيفا يجيبني إذا دعوته. قوله تعالى: (واعترلكم): العزلة المفارقة وقد تقدم في " الكهف " (٢) بيانها. وقوله: (عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) قيل: أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولدا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه. ولهذا قال: (فلما اعتزلهم وما يعبدون

من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب) أي آنسنا وحشته بولد، عن ابن عباس وغيره. وقيل: " عيسى " يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا في المستقبل. وقيل:

دعا لأبيه بالهداية. ف " عسى " شك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا؟ والأول أظهر. وقوله: (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) أي أثينا عليهم ثناء حسنا، لان جميع الملل

تحسن الثناء عليهم. واللسان يذكر ويؤنث، وقد تقدم (٣). قوله تعالى: واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا (٥١) وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا (٥٢) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا (٥٣)

(١) راجع ج ١ ص ١٣٠.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٦٧.

(٣) راجع ج ١ ص ١٢١.

قوله تعالى: (واذكر في الكتاب موسى) أي واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى. (إنه كان مخلصاً) (١) في عبادته غير مرائي. وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام، أي أخلصناه فجعلناه

مختاراً. (وناديناها) أي كلمناه ليلة الجمعة. (من جانب الطور الأيمن) أي يمين موسى، وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر، قاله الطبري

وغيره فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال. (وقربناه نجياً) نصب على الحال، أي كلمناه من

غير وحي. وقيل: أدنيناها لتقريب المنزلة حتى كلمناه. وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان عن

عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله عز وجل: " وقربناه نجياً "

أي أدنى حتى سمع صريف الأقلام. (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) وذلك حين

سأل فقال: " وأجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي " (٢).

قوله تعالى: واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً (٥٤) وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً (٥٥)

فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل) اختلف فيه، فقيل: هو إسماعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم،

فاستغفاه ورضي بثوابه، وفوض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته. والجمهور أنه إسماعيل الذبيح

أبو العرب ابن إبراهيم. وقد قيل: إن الذبيح إسحاق، والأول أظهر على ما تقدم ويأتي في " والصفات " (٣) إن شاء الله تعالى. وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره

من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق، ولأنه المشهور المتواصف (٤) من خصاله.

(١) بكسر اللام قراءة (نافع).

(٢) راجع ص ١٩١ فما بعد من هذا الجزء.

(٣) راجع

ج ١٥ ص ٩٨ فما بعد.
(٤) كذا في ج وا و ح وك. وفي ى: المتراحف وصوابه: المتراصف: أي المنتظم.

الثانية - صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين، وضده وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدم بيانه في " براءة " (١). وقد أثنى

الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد. واختلف في ذلك، فقيل: إنه وعد من

نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى. هذا في قول من يرى أنه الذبيح. وقيل: وعد رجلا

أن يلقاه في موضع فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاء،

فقال له: ما زلت ها هنا في انتظارك منذ أمس. وقيل: انتظره ثلاثة أيام. وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه، ذكره النقاش وخرجه الترمذي وغيره عن عبد الله

بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعده

أن آتية بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال:

(يا فتى لقد شققت علي أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظر) لفظ أبي داود. وقال يزيد الرقاشي:

انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوما، ذكره الماوردي. وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة. وذكره الزمخشري عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان فانتظر سنة.

وذكره القشيري قال: فلم يبرح من مكانه سنة حتى أتاه جبريل عليه السلام فقال: إن التاجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له. وهذا بعيد ولا يصح. وقد قيل: إن إسماعيل لم يعد شيئا إلا وفى به، وهذا قول صحيح، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية، والله أعلم.

الثالثة - من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم (العدة دين). وفي الأثر (وأي (٢) المؤمن واجب) أي في أخلاق المؤمنين. وإنما قلنا أن ذلك ليس بواجب فرضا لاجتماع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء فلذلك قلنا

إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة، ولا يقضى به. والعرب تمتدح بالوفاء، وتذم بالخلف

والغدر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل: متى ما يقل حر لصاحب حاجة * نعم يقضها والحر للوأي ضامن

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٢ فما بعد.
(٢) الوأي، الوعد.

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخلف الذم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بندره، وكفى بهذا مدحا وثناء، وبما خالفه ذما.

الرابعة - قال مالك: إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى يلزمه. قال مالك: ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه

فقال نعم، وثم رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان. وقال أبو حنيفة

وأصحابه والأوزاعي والشافعي وسائر الفقهاء: إن العدة لا يلزم منها (١) شئ لأنها منافع لم يقبضها

في العارية لأنها طارئة، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها

الرجوع فيها. وفي البخاري " واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد "، وقضى ابن

أشوع بالوعد وذكر ذلك عن سمرة بن جندب. قال البخاري (٢): ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أشوع.

الخامسة - (وكان رسولا نبيا) قيل: أرسل إسماعيل إلى جرهم. وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسماعيل بالذكر تشريفا له. والله أعلم.

السادسة - (وكان يأمر أهله) قال الحسن: يعني أمته. وفي حرف ابن مسعود " وكان يأمر أهله جرهم وولده بالصلاة والزكاة ". (وكان عند ربه مرضيا) أي رضيا زاكيا

صالحا. قال الكسائي والفراء: من قال مرضى بناه على رضيت قالوا: وأهل الحجاز يقولون: مرضو. وقال الكسائي والفراء: من العرب من يقول رضوان (٣) ورضيان فرضوان

على مرضو، ورضيان على مرضى ولا يجوز البصريون أن يقولوا إلا رضوان وربوان. قال أبو جعفر النحاس: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: يخطئون في الخط فيكتبون ربا بالياء ثم

يخطئون فيما هو أشد من هذا فيقولون ربيان ولا يجوز إلا ربوان ورضوان قال الله تعالى:

" وما آتيتم من ربا ليربو في أموال (٤) الناس ".

- (١) في ى: لا يلزم فيها بشئ.
(٢) قاله في (التاريخ الأوسط) كما في (تهذيب التهذيب).
(٣) أي في تثنية الرضا.
(٤) راجع ج ١٣ ص ٣٦.

قوله تعالى: واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا (٥٦) ورفعناه مكانا عليا (٥٧)

قوله تعالى: (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر. الزمخشري: وقيل سمي إدريس إدريس لكثرة درسه كتاب

الله تعالى، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح، لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه

إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة، وكذلك

إبليس أعجمي وليس من الابلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرا

كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات،

يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوي مشتقا من

الدرس. قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما: وهو جد نوح وهو خطأ، وقد تقدم في " الأعراف " (١)

بيانه. وكذا وقع في السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس

النبي فيما يزعمون. والله تعالى أعلم. وكان أول من أعطى النبوة (٢) من بني آدم، وخط بالقلم.

ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم. [فالله أعلم] (٣).

قوله تعالى: (ورفعناه مكانا عليا) قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وغيرهما: يعني السماء الرابعة. وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله كعب الأحبار. وقال

ابن عباس والضحاك: يعني السماء السادسة، ذكره المهدي. قلت: ووقع في البخاري (٤) عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال سمعت أنس بن مالك

يقول: ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة، الحديث وفيه: كل

سماء فيها أنبياء - قد سماهم - منهم إدريس في الثانية. وهو وهم، والصحيح أنه في
السماء

-
- (١) راجع ج ٧ ص ٢٣٢ فما بعد.
 - (٢) يتأمل هذا مع ما ثبت من نبوة آدم وشيث.
 - (٣) من ج وك وى.
 - (٤) في ج: من حديث شريف.

الرابعة، كذلك رواه ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره مسلم في الصحيح. وروى مالك بن صعصعة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة). خرجه مسلم أيضا. وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: (يا رب أنا مشيت يوما فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خفف عنه من ثقلها. يعني الملك الموكل بفلك الشمس)، يقول إدريس: اللهم خفف عنه من ثقلها واحمل عنه من حرها. فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل مالا يعرف فقال: يا رب خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: "أما إن عبدي إدريس سألتني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبتة" فقال: يا رب أجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة. فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزاد شكرا وعبادة. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها فقال للملك: قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسي قال نعم. ثم حملة (١) على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعته عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لي صديق من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله. فقال: ليس ذلك إلي ولكن إن أحببت علمه أعلمته متى يموت. قال: "نعم" ثم نظر في ديوانه، فقال: إنك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبدا. قال: "وكيف؟" قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شئ. فرجع الملك فوجده ميتا. وقال السدي: إنه نام ذات يوم، واشتد عليه حر الشمس، فقام وهو منها في كرب فقال: اللهم خفف عن ملك الشمس حرها، وأعنه على ثقلها،

فإنه
يمارس نارا حامية. فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسي من نور عنده سبعون
ألف ملك
عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولون أمره وعمله من تحت حكمه، فقال
ملك الشمس:
يا رب من أين لي هذا؟. قال " دعا لك رجل من بني آدم يقال له إدريس " ثم ذكر
نحو حديث
كعب. قال فقال له ملك الشمس: أتريد حاجة؟ قال: نعم وددت أني لو رأيت الجنة.

(١) في ج: حملة ملك الشمس.

قال: فرفعه على جناحه، ثم طار به، فبينما هو في السماء الرابعة التقى بملك الموت
ينظر في السماء،
ينظر يمينا وشمالا، فسلم عليه ملك الشمس، وقال: يا إدريس هذا ملك الموت فسلم
عليه
فقال ملك الموت: سبحان الله! ولأي معنى رفعته هاهنا؟ قال: رفعته لأريه الجنة. قال:
فإن الله تعالى أمرني أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة. قلت: يا رب وأين
إدريس
من السماء الرابعة، فنزلت فإذا هو معك، فقبض روحه فرفعها إلى الجنة، ودفنت
الملائكة
جثته في السماء الرابعة، فذلك قوله تعالى: " ورفعناه مكانا عليا " قال وهب بن منبه:
كان
يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض في زمانه، فعجب منه
الملائكة
واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربه في زيارته فأذن له، فأتاه في صورة آدمي، وكان
إدريس عليه السلام يصوم النهار، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل.
ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس، وقال له: من أنت! قال أنا ملك الموت،
استأذنت ربي أن أصحبك فأذن لي، فقال: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال:
أن تقبض روحي. فأوحى (١) الله تعالى إليه أن يقبض روحه، فقبضه وردة الله إليه بعد
ساعة،
وقال له ملك الموت: ما الفائدة في قبض روحي؟ قال لأذوق كرب الموت فأكون له
أشد استعدادا. ثم قال له إدريس بعد ساعة (٢): إن لي إليك حاجة أخرى. قال: وما
هي؟
قال أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار، فأذن الله تعالى له في رفعه إلى
السموات،
فرأى النار فصعق، فلما أفاق قال أرني الجنة، فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت:
أخرج
لتعود إلى مقرك. فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها. فبعث الله تعالى بينهما ملكا
حكما،
فقال مالك لا تخرج؟ قال: لان الله تعالى قال: " كل نفس ذائقة الموت " (٣) [آل
عمران: ١٨٥] وأنا ذقته،
وقال: " وإن منكم إلا واردها " (٤) [مريم: ٧١] وقد وردتها، وقال: " وما هم منها
بمخرجين " (٥) [الحجر: ٤٨] فكيف أخرج؟
قال الله تبارك وتعالى لملك الموت: " بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج " فهو حي

هنالك
فذلك قوله تعالى " ورفعناه مكانا عليا " قال النحاس: قول إدريس: " وما هم منها
بمنخرجين "
يجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس، ثم نزل القرآن به. قال وهب ابن منبه: فإدريس
تارة
يرتفع في الجنة، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء.

-
- (١) في ج: فأذن الله له.
(٢) في ج وك: بعد حين.
(٣) راجع ج ٤ ص ٢٩٧.
(٤) راجع ص ١٣٥ من هذا الجزء: إن صح هذا فهو دليل على ورود النظر.
(٥) راجع ج ١٠ ص ٣٣.

قوله تعالى: أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبینا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا (٥٨) فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم) يريد إدریس وحده. (وممن حملنا مع نوح) يريد إبراهيم وحده (وممن ذرية إبراهيم) يريد إسماعيل وإسحق ويعقوب. (و) من ذرية (إسرائيل) موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى.

فكان لإدریس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسماعيل

وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم. (وممن هدينا) أي إلى الاسلام: (واجتبینا) بالایمان. (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن). وقرأ شبل بن عباد المكي " يتلى " بالتذكير لان التأنيث

غير حقيقي مع وجود الفاصل. (خروا سجدا وبكيا) وصفهم بالخشوع لله والبكاء. وقد مضى

في " سبحان " (١) [الاسراء: ١]. يقال بكى يبكي بكاء وبكى وبكيا، إلا أن الخليل قال: إذا قصرت البكاء

فهو مثل الحزن، أي ليس معه صوت كما قال الشاعر: (٢)
بكت عيني وحق لها بكاهها * وما يغني البكاء ولا العويل
" وسجدا " نصب على الحال " وبكيا " عطف عليه.

الثانية - في هذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا في القلوب. قال الحسن: (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) الصلاة. وقال الأصم: المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها، ويكون عند

ذكرها. والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة، وأنهم كانوا يسجدون ويكون

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٤١ فما بعد.

(٢) هو عبد الله بن رواحة يبكي حمزة بن عبد المطلب رحمه الله وأنشده أبو زيد لكعب بن مالك في أبيات.

عند تلاوته، قال الكيا: وفي هذه [الآية] (١): دلالة من قوله على أن القرآن هو الذي كان يتلى

على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصا بإنزاله إليه.

الثالثة - احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على المستمع والقارئ. قال الكيا: وهذا بعيد فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى. وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى

وآياته، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة.

الرابعة - قال العلماء: ينبغي لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة " ألم تنزيل " قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك،

وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة " سبحان " قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم

عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

قوله تعالى: فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا

الشهوات فسوف يلقون غيا (٥٩) إلا من تاب وآمن وعمل صالحا

فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا (٦٠) جنات عدن التي وعد

الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا (٦١) لا يسمعون فيها لغوا

إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا (٦٣) تلك الجنة التي نورث

من عبادنا من كان تقيا (٦٣)

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (فخلف من بعدهم خلف) أي أولاد سوء. قال أبو عبيدة:

حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحى هذه الأمة

(١) من ك.

أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض في الأزقة زنى. وقد تقدم القول في " خلف "

في " الأعراف " (١) فلا معنى للإعادة.

الثانية - قوله تعالى: (أضاعوا الصلاة) وقرأ عبد الله والحسن: " أضاعوا الصلوات " على الجمع. وهو ذم ونص في أن إضاعة الصلاة من الكبائر التي يوبق بها صاحبها ولا خلاف

في ذلك، وقد قال عمر: ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع. واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية،

فقال مجاهد: النصراني خلفوا بعد اليهود. وقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد أيضا وعطاء:

هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان، أي يكون في هذه الأمة من هذه صفته

لا أنهم المراد بهذه الآية. واختلفوا أيضا في معنى إضاعتها، فقال القرظي: هي إضاعة كفر ووجد بها. وقال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود: هي إضاعة أوقاتها، وعدم

القيام بحقوقها وهو الصحيح، وأنها إذا صليت مخلى بها لا تصح ولا تجزئ، لقوله صلى الله

عليه وسلم للرجل الذي صلى وجاء فسلم عليه (ارجع فصل فإنك لم تصل) ثلاث مرات

خرجه مسلم، وقال حذيفة لرجل يصلي فطفف (٢): منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ قال منذ أربعين

عاما. قال: ما صليت، ولو مت وأنت تصلي هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد صلى الله

عليه وسلم. ثم قال: إن الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن. خرجه البخاري واللفظ للنسائي، وفي الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل) يعني صلبه في الركوع والسجود، قال: حديث حسن

صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم،

يرون أن يقيم الرجل صلبه في الركوع والسجود، قال الشافعي وأحمد وإسحاق: من لم يقيم

صلبه في الركوع والسجود فصلاته فاسدة، قال صلى الله عليه وسلم (تلك الصلاة

صلاة

المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا). وهذا ذم لمن يفعل ذلك. وقال فروة بن خالد بن سنان: استبطأ

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٠ فما بعد.

(٢) أي نقص والتطيف يكون بمعنى الزيادة والنقص.

أصحاب الضحاك مرة أميرا في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقرأ الضحاك هذه

الآية، ثم قال: والله لان أدعها أحب إلي من أن أضيعها. وجملة القول هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها، ومن لم يحافظ عليها فقد

ضيعها، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه، ولا دين لمن لا صلاة له. وقال الحسن: عطلوا المساجد، واشتغلوا بالصنائع والأسباب. " واتبعوا الشهوات " أي اللذات والمعاصي.

الثالثة - روى الترمذي وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبي أنه أتى المدينة فلقى أبا هريرة فقال له: يا فتى ألا أحدثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به، قلت: بلى. قال: (إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى

لملائكته وهو أعلم انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن

كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدي من تطوع فإن كان له تطوع قال أكملوا لعبدي

فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك). قال يونس: وأحسبه عن النبي صلى الله

عليه وسلم، لفظ أبي داود. وقال: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا داود بن

أبي هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى. قال:

(ثم الزكاة مثل ذلك) (ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك). وأخرجه النسائي عن همام عن

الحسن عن حريث بن قبيصة عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت

فقد خاب وخسر - قال همام: لا أدري هذا من كلام قتادة أو من الرواية - فإن انتقص من فريضته شيء قال انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون

سائر عمله على نحو ذلك). خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن

أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة

صلاته

فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيء قال انظروا هل تجدون له من

(١٢٣)

تطوع يكمل ما ضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلك) قال

النسائي: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا النضر بن شميل قال أنبأنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكملها وإلا قال الله عز وجل انظروا

لعبدي من تطوع فإن وجد له تطوع قال أكملوا به الفريضة). قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب " التمهيد " أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون - والله أعلم - فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك وأما من

تركها، أو نسي ثم ذكرها فلم يأت بها عامدا واشتغل بالتطوع عن أداء فرضها وهو ذاكر

له فلا يكمل له فريضة من تطوعه والله أعلم. وقد روى من حديث الشاميين في هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السكوني عن عبد الله بن قرط عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من

تسيبحاته حتى تتم). قال أبو عمر: وهذا لا يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هذا

الوجه وليس بالقوي وإن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه

ولست في الحكم بتامة [والله أعلم] (١).

قلت: فينبغي للإنسان أن يحسن فرضه ونفله حتى يكون له نفل يجده زائدا على فرضه يقربه من ربه كما قال سبحانه وتعالى: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه

الحديث. فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه في المعنى حكم الفرض. ومن لا يحسن أن

يصلي الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن النفل لا جرم تنفل الناس في أشد ما يكون من النقصان والخلل لخفته عندهم وتهاونهم به حتى كأنه غير معتد به. ولعمر الله لقد

يشاهد

في الوجود من يشار إليه ويظن به العلم تنفله كذلك

بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم
معرفته بالحديث فكيف بالجهال الذين لا يعلمون. وقد قال العلماء: ولا يجزئ ركوع
ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدين حتى يعتدل راعها وواقفا

(١) من ب و ج وط و ز وك.

وساجدا وجالسا. وهذا هو الصحيح في الأثر وعليه جمهور العلماء وأهل النظر. وهذه رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك. وقد مضى هذا المعنى في " البقرة " (١). وإذا كان

هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو؟! بل كل

ذلك غير صحيح ولا مقبول لأنه وقع على غير المطلوب والله أعلم. [الرابعة] (٢) - قوله تعالى: (واتبعوا الشهوات) وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى:

(واتبعوا الشهوات) هو من بنى [المشيد] (٣) وركب المنظور (٤) وليس المشهور. قلت: الشهوات عبارة عما يوافق الانسان ويشتهي ويلائمه ولا يتقيه. وفي الصحيح: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات). وما ذكر عن علي رضي الله عنه جزء من هذا.

قوله تعالى: (فسوف يلقون غيا) قال ابن زيد: شرا أو ضلالا أو خيبة، قال: فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغولا يعدم على الغي لائما وقال عبد الله بن مسعود: هو واد في جهنم. والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هذا الغي، كما قال جل ذكره: " ومن يفعل ذلك يلق أثاما " (٦) [الفرقان: ٦٨] والأظهر أن الغي اسم للوادي سمي به لان الغاوين يصيرون إليه. قال كعب: يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب

البقر ثم قرأ [الآية] (٧): " فسوف يلقون غيا " أي هلاكاً وضلالاً في جهنم. وعنه: غي واد

في جهنم أبعدها قعرا وأشدها حرا فيه بئر يسمى البهيم كلما خبت جهنم فتح الله تعالى تلك

البئر فتسعر بها جهنم. وقال ابن عباس: غي واد في جهنم وأن أودية جهنم لتستعبد من حره أعد الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه ولاكل

الربا الذي لا ينزع عنه ولأهل العقوق ولشاهد الزور ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه.

(١) راجع ج ١ ص ١٩٠ فما بعد.

(٢) من ب و ج و ز و ط و ك.

(٣) كذا في روح المعاني

وهو الصواب وفي الأصول وكثير من المراجع: (من بني الشديد).

- (٤) في ى: وركب المقطور. ولعله أشبه.
(٥) البيت للمرقش كما في اللسان.
(٦) راجع ج ١٣ ص ٧٦.
(٧) من ب و ج و ز و ط و ك.

قوله تعالى: (إلا من تاب) أي من تضييع الصلاة واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة ربه. (وآمن) به (وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة). قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصة وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر: (يدخلون) بفتح الخاء. وفتح الياء الباقيون. (ولا يظلمون شيئاً) أي لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيئاً إلا أنهم (١) يكتب لهم بكل حسنة

عشر إلى سبعمائة. (جنات عدن) بدلاً من الجنة فانتصبت. قال أبو إسحاق الزجاج: ويجوز

" جنات عدن " على الابتداء. قال أبو حاتم: ولولا الخط لكان " جنة عدن " لان قبله " يدخلون الجنة ". (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) أي من عبده وحفظ عهده بالغيب وقيل: آمنوا بالجنة ولم يروها. - إنه كان وعده مأتياً) " مأتياً " مفعول من الاتيان. وكل

ما وصل إليك فقد وصلت إليه تقول: أتت علي ستون سنة وأتيت علي ستين سنة. ووصل

إلي من فلان خير ووصلت منه إلى خير. وقال القتيبي: " مأتياً " بمعنى آت فهو مفعول بمعنى

فاعل. و " مأتياً " مهموز لأنه من أتى يأتي. ومن خفف الهمزة جعلها ألفاً. وقال الطبري:

الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة أي يأتيها أولياؤه. (لا يسمعون فيه لغواً) أي في الجنة. واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به. ومنه الحديث: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يخطب فقد لغوت) ويروى " لغيت " وهي لغة أبي هريرة كما قال الشاعر (٢):

ورب أسراب حجاج كظم* عن اللغا ورفث التكلم

قال ابن عباس: اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى أي كلامهم في الجنة حمد الله وتسيبته. (إلا سلاماً) أي لكن يسمعون سلاماً فهو من الاستثناء المنقطع يعني سلام بعضهم على بعض وسلام الملك عليهم قاله مقاتل وغيره. والسلام اسم جامع للخير والمعنى

أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون. قوله تعالى: (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أي لهم

ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا أي في قدر هذين الوقتين إذ لا بكرة ثم ولا عشياً

(١) في ي: إلا أنه.

(٢) هو رؤبة ونسبه ابن بري العجاج. (اللسان).



(۱۲۶)

كقوله تعالى: " غدوها شهر ورواحها (١) شهر " أي قدر شهر، قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما. وقيل: عرفهم اعتدال أحوال أهل الجنة وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيا. قال يحيى بن أبي كثير وقتادة كانت العرب في زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم فنزلت. وقيل: أي رزقهم فيها غير منقطع كما قال: (لا مقطوعة ولا ممنوعة) (٢) كما تقول: أنا أصبح وأمسي في ذكرك. أي ذكري لك دائم. ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم والعشي بعد فراغهم من لذاتهم لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال. وهذا يرجع إلى القول الأول. وروى الزبير ابن بكار عن إسماعيل بن أبي أويس قال قال مالك بن أنس: طعام المؤمنين في اليوم مرتان وتلا قول الله عز وجل " ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا " ثم قال: وعوض الله عز وجل المؤمنين في الصيام السحور بدلا من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم. وقيل: إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته [غير] (٣) صفة العشاء وهيئته، وهذا لا يعرفه إلا الملوك. وكذلك يكون في الجنة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهم النعم ليزدادوا تنعما وغبطة.

وخرج الترمذي الحكيم في (نوادير الأصول) من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالوا قال رجل: يا رسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال (وما هيحك على هذا) قال سمعت الله تعالى يذكر في الكتاب: " ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا " فقلت: الليل بين البكرة والعشي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة) وهذا في غاية البيان لمعنى الآية وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة).

وقال العلماء: ليس في الجنة ليل ولا نهار وإنما هم في نور أبدا إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما.

-
- (١) راجع ج ١٤ ص ٢٦٨.
(٢) راجع ج ١٧ ص ٢١٠.
(٣) من ب وز و ط وك.

قوله تعالى: (تلك الجنة التي) أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها (نورث) بالتخفيف. وقرأ يعقوب: " نورث " بفتح الواو وتشديد الراء. والاختيار التخفيف، لقوله تعالى: " أورثنا الكتاب " (١) [فاطر: ٣٢]. (من عبادنا من كان تقيا) قال ابن عباس: (أي من اتقاني

وعمل بطاعتي). وقيل هو على التقديم والتأخير تقديره نورث من كان تقيا من عبادنا. قوله تعالى: وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا (٦٤) رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا (٦٥)

روى الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى لجبريل (ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا) قال: فنزلت هذه الآية (وما ننزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية. قال هذا حديث حسن غريب. ورواه البخاري: حدثنا خلال بن يحيى حدثنا عمر بن

ذر قال سمعت أبي يحدث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

لجبريل: (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا) فنزلت: " وما ننزل إلا بأمر ربك " الآية، قال كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد أبطأ الملك على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه فقال: (ما الذي أبطأك) قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم، ولا تنقون رواجبكم (٢)، ولا تستاكون، قال

مجاهد: فنزلت الآية في هذا. وقال مجاهد أيضا وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي:

أحتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يحييهم ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سأله عنه قال

عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوما. وقال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة. وقيل: خمسة عشر يوما

وقيل ثلاثة عشر وقيل ثلاثة أيام فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أبطأت علي حتى

(١) راجع ج ١٤ ص...
(٢) الرواجب: ما بين عقد الأصابع من داخل أو مفاصل أصول الأصابع واحدها راجبة.

ساء ظني واشتقت إليك) فقال جبريل عليه السلام إنني كنت أشوق ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست فنزلت الآية (وما ننزل إلا بأمر ربك) وأنزل: (والضحى والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى) (١). ذكره الثعلبي والواحدي والقشيري

وغيرهم. وقيل: هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها وما ننزل هذه الجنان

إلا بأمر ربك وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل. وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل: تكون

غير متصلة بما قبلها والقرآن سور ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة

" وما ننزل " أي قال الله تعالى قل يا جبريل " وما ننزل إلا بأمر ربك ". وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: إنا إذا أمرنا نزلنا عليك. الثاني - إذا أمرك ربك نزلنا عليك فيكون الأمر على [الوجه] (٢) الأول متوجها إلى النزول وعلى الوجه الثاني متوجها إلى التنزيل.

قوله تعالى: (له) أي لله. (ما بين أيدينا) أي علم ما بين أيدينا (وما خلفنا وما بين ذلك) قال ابن عباس وابن جريج: ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة. " وما بين ذلك " البرزخ. وقال قتادة ومقاتل: " له ما بين أيدينا " من أمر الآخرة " وما خلفنا " ما مضى من الدنيا " وما بين ذلك " ما بين النفختين

وبينهما أربعون سنة. الأحفش: " ما بين أيدينا " ما كان قبل أن نحلق " وما خلفنا " ما يكون بعد أن نموت " وما بين ذلك " ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت. وقيل: " ما بين

أيدينا " من الثواب والعقاب وأمور الآخرة " وما خلفنا " ما مضى من أعمالنا في الدنيا (وما بين ذلك) أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة. ويحتمل خامسا: " ما بين أيدينا " السماء " وما خلفنا " الأرض " وما بين ذلك " أي ما بين السماء والأرض. وقال

ابن عباس في رواية " له ما بين أيدينا " يريد الدنيا إلى الأرض " وما خلفنا " يريد السماوات وهذا على عكس ما قبله " وما بين ذلك " يريد الهواء ذكر الأول الماوردي والثاني القشيري. الزمخشري: وقيل ما مضى من أعمارنا وما غير منها والحال التي نحن فيها.

ولم يقل ما بين ذينك لان المراد ما بين ما ذكرنا كما قال " لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك " (٣)

-
- (١) راجع ج ٢٠ ص ٩١ فما بعد.
(٢) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.
(٣) راجع ج ١ ص ٤٤٨.

أي بين ما ذكرنا. (وما كان ربك نسيا) أي ناسيا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل وقيل: المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي. وقيل: المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها ولا ينسى شيئا منها.

قوله تعالى: (رب السماوات والأرض وما بينهما) أي ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما، فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان. (فاعبده) أي وحده لذلك. وفي هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى كما يقوله أهل

الحق وهو القول الحق لأن الرب في هذا الموضوع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على

المالك وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض دخل في ذلك اكتساب الخلق ووجبت عبادته لما ثبت أنه المالك على الإطلاق وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود. (واصطبر لعبادته) أي لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحي عنك بل اشتغل بما أمرت به. وأصل اصطبر اصتبر فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما فأبدل من التاء طاء كما تقول من الصوم: اصطام. (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس: يريد هل تعلم له ولدا أي نظيرا (١)، أو مثلا أو شبيها يستحق مثل اسمه الذي

هو الرحمن. وقاله مجاهد. مأخوذ من المساماة. وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة

عن ابن عباس قال: هل تعلم له أحدا سمي الرحمن. قال النحاس: وهذا أجل إسناد علمته روي

في هذا الحرف وهو قول صحيح ولا يقال الرحمن إلا لله. قلت وقد مضى هذا مبينا في البسمة (٢). والحمد لله. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد (هل تعلم له سميا) قال: مثلا. ابن المسيب: عدلا. قتادة والكلبي هل تعلم أحدا يسمى الله تعالى غير الله أو يقال له الله إلا الله وهل بمعنى لا، أي لا تعلم. والله تعالى أعلم.

(١) في ط الأولى: أي. خطأ.

(٢) راجع ج ١ ص ١٠٣ فما بعد.

قوله تعالى: ويقول الانسان إذا ما مت لسوف أخرج حيا (٦٦)
أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا (٦٧) فوربك
لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا (٦٨) ثم لننزعن
من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا (٦٩) ثم لنحن أعلم بالذين
هم أولى بها صليا (٧٠) وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما
مقضيا (٧١) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا (٧٢)
قوله تعالى: (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) الانسان هنا أبي
ابن خلف وجد عظاما بالية ففتتها بيده وقال: زعم محمد أنا نبعث بعد الموت قاله
الكلبي

ذكره الواحدي والثعلبي والقشيري وقال المهدي نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه
وهو قول ابن عباس. واللام في " لسوف أخرج حيا " للتأكد. كأنه قيل له إذا ما مت
لسوف تبعث حيا فقال " أئذا ما مت لسوف أخرج حيا " ! قال ذلك منكرا فجاءت
اللام في الجواب كما كانت في القول الأول ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام لأنها
للتأكيد

والايجاب وهو منكر للبعث. وقرا ابن ذكوان " إذا ما مت " على الخبر والباقون
بالاستفهام

على أصولهم بالهمز. وقرأ الحسن وأبو حياة: " لسوف اخرج حيا " قاله استهزاء لأنهم
لا يصدقون بالبعث. والانسان هاهنا الكافر.

قوله تعالى: (أولا يذكر الانسان) أي أو لا يذكر هذا القائل (أنا خلقناه من قبل)
أي من قبل سؤاله وقول هذا القول (ولم يك شيئا) فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض.
وقرأ

أهل الكوفة إلا عاصما وأهل مكة وأبو عمر وأبو جعفر " أولا يذكر " وقرأ شيبه ونافع
وعاصم:

" أو لا يذكر " بالتخفيف. والاختيار التشديد وأصله يتذكر لقوله تعالى " إنما يتذكر
أولو الألباب " (١) وأخواتها وفي حرف أبي " أولا يتذكر " وهذه القراءة على التفسير
لأنها مخالفة

لخط المصحف: ومعنى " يتذكر " يتفكر ومعنى " يذكر " يتنبه ويعلم قاله النحاس.

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٤٠.

قوله تعالى: (فوربك لنحشرنهم) أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين. (والشياطين) أي ولنحشرن الشياطين قرناء لهم. قيل: يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة كما قال: " احشروا الذين ظلموا وأزواجهم " (١) [الصفات: ٢٢]

الزمخشري والواو في " والشياطين " يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع وهي بمعنى

مع أوقع. والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذي أغووههم، يقرنون (٢) كل كافر مع

شيطان في سلسلة. فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا

وفيه الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة. فإن قلت: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟ قلت لم يفرق بينهم في المحشر وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم وأوردوا معهم النار ليشاهد

السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة وسرورا إلى سرور

ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم (٣) وما يغيظهم من سعادة

أولياء الله وشماتتهم بهم فإن قلت ما معنى إحضارهم جثيا؟ قلت أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلا (٤) على حالهم التي كانوا عليها

في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو قال الله تعالى " وترى كل أمة جاثية " (٥) [كل] (٦) على الحالة المعهودة في مواقف المقاولات

والمناقلات من تجاثي أهلها على الركب. لما في ذلك من الاستيفاز والقلق (٧) وإطلاق

الجثا خلاف الطمأنينة أو لما (٨) يدهمهم من شدة الامر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم

فيجثون على ركبهم جثوا. وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم.

على أن " جثيا " حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين لأنه من توابع التواقف للحساب،

قبل التوصل إلى الثواب والعقاب. ويقال: إن معنى (لنحضرنهم حول جهنم جثيا)

-
- (١) راجع ج ١٥ ص ٧٢ فما بعد.
 - (٢) كذا في ا وفي ب و ج و ز و ط و ك. يقرن. وفي ى: يحشر.
 - (٣) في ز: حزنهم.
 - (٤) العتل: الدفع والارهاق بالسوق العنيف. قعد مستوفز أي غير مطمئن.
 - (٥) راجع ج ١٦ ص ١٧٤.
 - (٦) من ج و ط و ك.
 - (٧) الاستيفاز: عدم الاطمئنان قال الجوهري:
 - (٨) في ج: ولما يدهمهم.

أي جثيا على ركبهم عن مجاهد وقتادة أي أنهم لشدة ما هم فيه لا يقدرّون على القيام. و " حول جهنم " يجوز أن يكون داخلها كما تقول: جلس القوم حول البيت أي داخله

مطيفين به فقوله: (حول جهنم) على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول. ويجوز أن يكون قبل الدخول. و " جثيا " جمع جاث. يقال: جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جثوا

وجثيا على فعول فيهما. وأجثاه غيره. وقوم جثي أيضا مثل جلس جلوسا وقوم جلوس وجثي أيضا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر. وقال ابن عباس: " جثيا " جماعات. وقال

مقاتل: جمعا جمعا وهو على هذا التأويل جمع جثوة وجثوة وجثوة ثلاث لغات وهي الحجارة

المجموعة والتراب المجموع فأهل الخمر على حدة وأهل الزنى على حدة وهكذا قال طرفة:

ترى جثوتين من تراب عليهما * صفائح صم من صفيح منضد وقال الحسن والضحاك: جاثية على الركب. وهو على هذا التأويل جمع جاث على ما تقدم.

وذلك لضيق المكان أي لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما. وقيل: جثيا على ركبهم للتخاصم كقوله تعالى: " ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون " (١). وقال الكمي:

هم تركوا سراتهم جثيا * وهم دون السراة مقرنينا قوله تعالى: (ثم لنزعن من كل شيعة) أي لنستخرجن من كل أمة وأهل دين (أيهم أشد على الرحمن عتيا) النحاس: وهذه آية مشككة في الاعراب لان القراء كلهم يقرءون " أيهم " بالرفع إلا هارون القارئ الأعور فإن سيبويه حكى عنه " ثم لنزعن من كل شيعة أيهم " بالنصب أوقع على أيهم لنزعن. قال أبو إسحاق: في رفع " أيهم " ثلاثة

أقوال، قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه: إنه مرفوع على الحكاية والمعنى ثم لنزعن

من كل شيعة الذي يقال من أجل عتوه أيهم أشد على الرحمن عتيا وأنشد الخليل فقال:

ولقد أبيت من الفتاة بمنزل * فأبيت لا حرج ولا محروم أي فأبيت بمنزلة الذي يقال له لا هو حرج ولا محروم. وقال أبو جعفر النحاس:

ورأيت أبا إسحاق يختار هذا القول ويستحسنه قال: لأنه معنى قول أهل التفسير. وزعم أن معنى

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٥٤.

(١٣٣)

" ثم لنزعين من كل شيعة " ثم لنزعين من كل فرقة الأعتى فالأعتى. كأنه يبدأ بالتعذيب

بأشدهم عتيا ثم الذي يليه وهذا نص كلام أبي إسحاق في معنى الآية. وقال يونس: " لنزعين "

بمنزلة الافعال التي تلغى ورفع " أيهم " على الابتداء. المهدوي: والفعل هو " لنزعين " عند يونس معلق قال أبو علي: معنى ذلك أنه يعمل في موضع " أيهم أشد " لا أنه ملغى.

ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل " لنزعين " إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق

وقوعه. وقال سيبويه: " أيهم " مبني على الضم لأنها خالفت أخواتها في الحذف، لأنك

لو قلت: رأيت الذي أفضل ومن أفضل كان قبيحا، حتى تقول من هو أفضل، والحذف في " أيهم " جائز. قال أبو جعفر: وما علمت أحدا من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه في هذا وسمعت أبا إسحاق يقول: ما يبين لي أن سيبويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا

أحدهما، قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب أيا وهي مفردة لأنها تضاف، فكيف بينها وهي

مضافة؟! ولم يذكر أبو إسحاق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال. أبو علي: إنما

وجب البناء على مذهب سيبويه لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه كما حذف

في " من قبل ومن بعد " (١) ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه لان الصلة تبين

الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصه. قال أبو جعفر: وفيه أربعة

أقوال سوى هذه الثلاثة التي ذكرها أبو إسحاق قال الكسائي: " لنزعين " واقعة على المعنى

كما تقول: لبست من الثياب وأكلت من الطعام ولم يقع " لنزعين " على " أيهم " فينصبها. زاد المهدوي: وإنما الفعل عنده واقع على موضع " من كل شيعة " وقوله: " أيهم أشد " جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء ولا يرى سيبويه زيادة " من " في الواجب. وقال الفراء: المعنى ثم لنزعين بالنداء ومعنى: " لنزعين " لننادين. المهدوي: ونادى فعل يعلق إذا كان بعده جملة كظننت فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ قال أبو جعفر وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول في " أيهم " معنى الشرط والمجازاة

فلذلك
لم يعمل فيها ما قبلها والمعنى: ثم لننزعن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا كما
تقول:
ضربت القوم أيهم غضب والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا قال أبو جعفر فهذه ستة

(١) راجع ج ١٤ ص ١ فما بعد.

أقوال وسمعت علي بن سليمان يحكي عن محمد بن يزيد قال " أيهم " متعلق ب " شيعة " فهو مرفوع بالابتداء والمعنى ثم لنزاع من الذين تشايعوا أيهم أي من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشد على الرحمن عتيا وهذا قول حسن. وقد حكى الكسائي أن التشايع التعاون. و " عتيا " نصب على البيان. [قوله تعالى] (١): (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) (٢) أي أحق بدخول النار يقال: صلى يصلي صليا نحو مضى الشيء يمضي مضيا إذا ذهب وهوى يهوي هويا. وقال الجوهري: ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلها فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الاحراق قلت: أصليته بالألف وصليته تصلية وقرئ " ويصلي سعيرا " (٣). ومن خفف فهو من قولهم: صلى فلان بالنار (بالكسر) يصلي صليا أحترق

قال الله تعالى " هم أولى بها صليا " قال العجاج: (٤)
* والله لولا النار أن نصلها *

ويقال أيضا صلي بالامر إذا قاسى حره وشدته. قال الطهوي:
ولا تبلى بسالتهم وإن هم * صلوا بالحرب حيننا بعد حين
واصطليت بالنار وتصليت بها. قال أبو زيد:
وقد تصليت حر حربهم * كما تصلى المقرور من قرس
وفلان لا يصطلى بناره إذا كان شجاعا لا يطاق.

قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) فيه خمس مسائل:
الأولى - قوله تعالى: " وإن منكم " هذا قسم والواو يتضمنه. ويفسره حديث
النبي صلى الله عليه وسلم (لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة

(١) من ب و ج و ز وك.
(٢) (صليا) بضم الصاد قراءة (نافع) وعليها التفسير.
(٣) راجع ج ١٩ ص ٢٧٠.
(٤) ونسبه في اللسان مادة (فيه) إلى الزفیان، وأورده في أبيات هي:
ما بال عين شوقها استبكاها * في رسم دار ليست بلاها
تالله لولا النار أن نصلها * أو يدعو الناس علينا الله
* لما سمعنا لأمير قاهها *
ألقاه: الطاعة.

(۱۳۵)

القسم) (١) قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية (وإن منكم إلا واردها) ذكره أبو داود الطيالسي فقوله: "إلا تحلة القسم" يخرج في التفسير المسند لان القسم المذكور في هذا

الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى "وإن منكم إلا واردها" وقد قيل إن المراد بالقسم قوله تعالى: "والذاريات ذروا" إلى قوله "إنما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع" (٢) والأول أشهر، والمعنى متقارب.

الثانية - وأختلف الناس في الورود فقليل: الورود الدخول روي عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر

إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم. " ثم ننجي الذين اتقوا ونذر

الظالمين فيها جثيا " أسنده أبو عمر في كتاب " التمهيد ". وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان

وابن جريج وغيرهم وروي عن يونس [عن الحسين] (٣) أنه كان يقرأ: " وإن منكم إلا واردها "

الورود الدخول على التفسير للورود فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن. وفي مسند الدارمي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يرد الناس النار

ثم يصدرون منها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر (٤) الفرس ثم كالراكب المجد في رحله

ثم كشد الرجل في مشيته). وروي عن ابن عباس أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق

الخارجي: أما أنا وأنت فلا بد أن نردها أما أنا فينجيني الله منها وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك. وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود والجهل بالصدر وقد بيناه

في " التذكرة ". وقالت فرقة: الورود الممر على الصراط. وروي عن ابن عباس وابن مسعود

وكعب الأحبار والسدي ورواه السدي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وقاله

الحسن أيضا قال: ليس الورود الدخول إنما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها. قال: فالورود أن يمروا على الصراط. قال أبو بكر الأنباري: وقد بنى على مذهب الحسن قوم

من أهل اللغة واحتجوا بقول الله تعالى: " إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها

(١) (إلا تحلة القسم): أي لا يدخل النار ليعاقبه بها ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقدر ما يبر الله به قسمه.

(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٩.

(٣) من ب و ج و ز و ط و ك.

(٤) الحضر (بالضم):

العدو وشد الرجل: عدوه أيضا.

مبعدون " (١) قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها. وكان هؤلاء يقرءون
" ثم "

بفتح الثاء " ننجي الذين اتقوا ". واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى
قوله:

" أولئك عنها مبعدون " عن العذاب فيها والاحراق بها. قالوا: فمن دخلها وهو لا يشعر
بها ولا يحس منها وجعا ولا ألما فهو مبعد عنها في الحقيقة. ويستدلون بقوله تعالى:
" ثم ننجي الذين اتقوا " بضم الثاء ف " ثم " تدل على نجاء بعد الدخول.

قلت: وفي صحيح مسلم (ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون اللهم
سلم سلم) قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: (دحض مزلة (٢) فيه خطاطيف
وكاليب

وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين
وكالبرق وكالريح

وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فجاج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار
جهنم)

الحديث. وبه أحتج من قال إن الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية
لا الدخول فيها. وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب. وذلك أنهم
يحضرون

موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ثم ينجي
الله

الذين اتقوا مما نظروا إليه ويصار بهم إلى الجنة " ونذر الظالمين " أي يؤمر بهم إلى
النار

قال الله تعالى " ولما ورد ماء مدين (٣) أي أشرف عليه لا أنه دخله. وقال زهير:

فلما وردن الماء زرقا (٤) جمامه * وضعن عصي الحاضر المتخيم
وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يدخل النار أحد من أهل بدر
والحديبية) قالت فقلت: يا رسول الله وأين قول الله تعالى " وإن منكم إلا واردها "
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمه " ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها
جثيا ").

أخرجه مسلم من حديث أم مبشر قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند
حفصة.

(١) راجع ص ٣٤٥ من هذا الجزء.

(٢) دحض مزلة: هما بمعنى وهو الموضع الذي نزل فيه الاقدام
ولا تستقر.

(٣) راجع ج ١٣ ص ٢٦٧.

(٤) يقال: ماء أزرق إذا كان صافيا. وجمام جمع
جم وجمة وهو الماء المجتمع. والحاضر: النازل على الماء. والمتخيم: المقيم وأصله من تخيم إذا نصب
الخيمة.
يصف زهير الطعائن بأنهن في أمن ومنعة فإذا نزلن نزلن آمانات كنزول من هو في أهله ووطنه. والبيت من
معلقته.

الحديث. ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك

عنها مبعدون " وقال مجاهد:

ورود المؤمنين النار هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا، وهي حظ المؤمن من النار

فلا يردّها. روى أبو هريرة أن رسول الله صلى عليه وسلم عاد مريضا من وعك به فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول: " هي ناري أسلطها

على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار ") أسنده أبو عمر قال: حدثنا عبد الوارث بن سفيان

قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا محمد بن إسماعيل الصائغ قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا

عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسماعيل بن عبيد الله [عن أبي صالح] (١) الأشعري عن أبي هريرة

عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضا فذكره. وفي الحديث (الحمى حظ المؤمن من النار).

وقالت فرقة: الورود النظر إليها في القبر فينجي منها الفائز ويصلاها من قدر عليه دخولها،

ثم يخرج منها بالشفاعة أو غيرها من رحمة الله تعالى. واحتجوا بحديث ابن عمر: (إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغدأة والعشي) الحديث. وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال في قول الله تعالى: (وإن منكم إلا واردها) قال: هذا خطاب للكفار. وروى عنه أنه كان يقرأ: " وإن منكم " ردا على الآيات التي قبلها في الكفار: قوله " فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم

جثيا. ثم لنزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها

صليا. وإن منكم) (مريم: ٦٨] وكذلك قرأ عكرمة وجماعة وعليها فلا شغب (٢) في هذه القراءة. وقالت

فرقة: المراد ب (- منكم) الكفرة والمعنى: قل لهم يا محمد. وهذا التأويل أيضا سهل التناول

والكاف في (منكم) راجعة إلى الهاء في (لنحشرنهم والشياطين). ثم لنحضرنهم حول جهنم

جثيا) فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قوله عز وجل " وسقاهم

ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا " (٣) [الانسان:
٢١ - ٢٢] معناه كان لهم فرجعت
الكاف إلى الهاء وقال الأكثر: المخاطب العالم كله ولا بد من ورود الجميع وعليه نشأ

(١) الزيادة من (تهذيب التهذيب) وتفسير الطبري.

(٢) كذا في ب و ج وك: بالمعجمة. وفي ا
وزوط بالمهملة.

(٣) راجع ج ١٩ ص ١٤١ فما بعد.

الخلاف في الورد. وقد بينا أقوال العلماء فيه. وظاهر الورد الدخول لقوله عليه الصلاة

والسلام: (فتمسه النار) لان المسيس حقيقته في اللغة المماسه إلا أنها تكون بردا وسلاما

على المؤمنين وينجون منها سالمين. قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا

ألم يقل ربنا: إنا نرد النار؟ فيقال لقد وردتموها فألقيتموها رمادا. قلت: وهذا القول يجمع شتات لأقوال فإن من وردها ولم تؤذ به بلهبها وحرها فقد أبعدها ونجى منها. نجانا الله تعالى منها بفضلها وكرمها وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما وخرج منها غانما. فإن قيل: فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا: لا نطلق هذا ولكن نقول: إن الخلق جميعا يردونها كما دل عليه حديث جابر أول الباب فالعصاة يدخلونها بجرائمهم،

والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بون. وقال ابن الأنباري محتجا لمصحف عثمان

وقراءة العامة: جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب كما قال:

(وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) فأبدل الكاف

من الهاء. وقد تقدم هذا المعنى في (يونس) (١).

الثالثة - الاستثناء في قوله عليه السلام (إلا تحلة القسم) يحتمل أن يكون استثناء منقطعا: لكن تحلة القسم وهذا معروف في كلام العرب والمعنى ألا تمسه النار أصلا

وتم الكلام هنا ثم ابتداء (إلا تحلة القسم) أي لكن تحلة القسم لا بد منها في قوله تعالى: " وإن منكم إلا واردها " وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس لقوله عليه الصلاة والسلام: (لا يموت لأحدكم ثلاثة

من الولد فيحسبهم إلا كانوا له جنة من النار) والجنة الوقاية والستر ومن وقى النار وستر

عنها فلن تمسه أصلا ولو مسته لما كان موقى.

الرابعة: هذا الحديث يفسر الأول لان فيه ذكر الحسبة، ولذلك جعله مالك بأثره مفسرا له. ويقيد هذا الحديث الثاني أيضا ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم (من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كان له حجابا (٢) من النار -

أو -

-
- (١) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ فما بعد.
(٢) (كان): بالافراد واسمها ضمير يعود.
على الموت المفهوم مما سبق أي كان موتهم له حجابا. ولأبي ذر عن الكشميهني (كانوا له حجابا).
(قسطلاني).

دخل الجنة) فقله عليه السلام (لم يبلغوا الحنث) - ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحلم ولم يبلغوا أن يلزمهم حنث - دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة - والله أعلم -

لان الرحمة إذا نزلت بآبائهم استحال أن يرحموا من أجل [من] (١) ليس بمرحوم. وهذا إجماع من

العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة ولم يخالف في ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية

فجعلتهم في المشيئة وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم، ولا يجوز

على مثلهم الغلط، إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الآحاد الثقات العدول،

وأن قوله عليه الصلاة والسلام (الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه) الحديث مخصوص، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد في بطن أمه ولم يشق بدليل الأحاديث والاجماع. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها: (يا عائشة إن الله

خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب

آبائهم) ساقط ضعيف مردود بالاجماع والآثار وطلحة بن يحيى الذي يرويه ضعيف لا يحتاج به. وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرج عليه. وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة

ابن إياس المزني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا من الأنصار مات له ابن

صغير فوجد عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما يسرك ألا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته يستفتح لك) فقالوا: يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال (بل للمسلمين عامة) قال أبو عمر: هذا حديث ثابت صحيح بمعنى (٢) ما ذكرناه مع إجماع

الجمهور، وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه. قال أبو عمر: الوجه عندي في هذا الحديث

وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه واجتنب الكبائر، وصبر واحتسب في مصيئته، فإن الخطاب لم يتوجه في ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا

وهم الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال: نسخ

قوله
تعالى " وإن منكم إلا واردها " قوله: " إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها

(١) من ب وز وط وك.
(٢) في اوب و ج وز وط وك. وفي ى: يعني.

مبعدون " [الأنبياء: ١٠١] وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نسخ. وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها. وفي الخبر: (تقول النار للمؤمن يوم القيامة جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي).
الخامسة - قوله تعالى: " كان على ربك حتما مقضيا " الحتم إيجاب القضاء أي كان ذلك حتما. " مقضيا " أي قضاه الله تعالى عليكم. وقال ابن مسعود: أي قسما واجبا.

قوله تعالى: (ثم ننجي الذين اتقوا) أي نخلصهم (ونذر الظالمين فيها جثيا) وهذا مما يدل على أن الورود الدخول لأنه لم يقل: وندخل الظالمين. وقد مضى هذا المعنى مستوفى. والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو. وقالت

المرجئة: لا يدخل. وقالت الوعيدية: يخلد. وقد مضى بيان هذا في غير موضع. وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قررة " ثم ننجي " مخففة من أنجي. وهي قراءة حميد ويعقوب

والكسائي. وثقل الباقون. وقرأ ابن أبي ليلى: " ثممة " بفتح الثاء أي هناك. و " ثم " ظرف إلا أنه مبني لأنه غير محصل فبني كما بني ذا، والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف

في الوصل ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فثبت في الوصل تاء. قوله تعالى: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (٧٣) وكم أهلكتنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا (٧٤) قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا (٥٧) قوله تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أي على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: " أنذا ما مت لسوف أخرج حيا " [مريم: ٦٦]. وقال فيهم: " ونذر الظالمين فيها جثيا " أي هؤلاء

إذا قرئ عليهم القرآن تعززوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا - إن كنا على باطل - أكثر أموالا وأعز نفرا. وغرضهم إدخال الشبهة المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه

المحقق في دينه وكأنهم لم يروا في الكفار فقيرا ولا في المسلمين غنيا ولم يعلموا أن الله تعالى

نحى أوليائه عن الاغترار بالدنيا وفرط الميل إليها. و " بينات " معناه مرتلات الألفاظ ملخصة المعاني، مبيّنة المقاصد، إما محاكمات، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات،

أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً. أو ظاهرات الاعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها. أو حججا وبراهين. والوجه أن تكون حالا مؤكدة كقوله تعالى: " وهو الحق مصدقا " (١) لان آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججا. (قال الذين كفروا)

يريد مشركي قريش النضر بن الحرث وأصحابه. (للذين آمنوا) يعني فقراء أصحاب النبي صلى

الله عليه وسلم، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشتهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون

يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون خير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين (أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا). قرأ ابن كثير وأبن محيصن وحميد وشبل بن عباد " مقاما " بضم

الميم وهو موضع الإقامة. ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة. الباكون " مقاما " بالفتح،

أي منزلا ومسكنا. وقيل: المقام الموضع الذي يقام فيه بالأمر الجليلة، أي أي الفريقين أكثر جاها وأنصارا. " وأحسن نديا " أي مجلسا، عن ابن عباس. وعنه أيضا المنظر وهو

المجلس في اللغة وهو النادي. ومنه دار الندوة لان المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم.

وناداه جالس في النادي. قال:

* أنادي به آل الوليد وجعفرًا *

والندي على فعيل مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك الندوة والنادي [والمتندي] (٢) والمتندي، فإن

تفرق القوم فليس بندي قاله الجوهري.

قوله تعالى: (وكم أهلكننا قبلهم من قرن) أي من أمة وجماعة. (هم أحسن أثاثا) أي متاعا كثيرا، قال: (٣)

وفرع يزين المتن أسود فاحم * أثيث كقنو النخلة المتعشکل

- (١) راجع ج ٢ ص ٢٩.
- (٢) الزيادة من (الصباح) للجوهري.
- (٣) هو امرؤ القيس. والفرع: الشعر التام. والمتن ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم. والفاحم الشديد السواد. وأثيث: كثير أصل النبات. والقنوق: العذق وهو الشمراخ. والمتعشك الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرتة. وقيل: المتدلي.

والأثاث متاع البيت. وقيل: هو ماجد الفرش والخرثي ما لبس منها وأنشد الحسن ابن علي الطوسي فقال:

تقادم العهد من أم الوليد بنا * دهرا وصار أثاث البيت خرثيا
وقال ابن عباس: هيئة. مقاتل ثيابا " ورثيا " أي منظرا حسنا. وفيه خمس قراءات:
قرأ أهل المدينة: " وريا " بغير همز. وقرأ أهل الكوفة: " ورثيا " بالهمز. وحكى يعقوب

أن طلحة قرأ: " وريا " بياء واحدة مخففة. وروى سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن

ابن عباس (١): " هم أحسن أثاثا وزيا " بالزاي، فهذه أربع قراءات. قال أبو إسحاق: ويجوز " هم أحسن أثاثا ورثيا " بياء بعدها همزة. النحاس: وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة وفيها تقريران: أحدهما - أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء في الياء. وكان هذا حسنا لتتفق رؤوس الآيات لأنها غير مهموزات. وعلى

هذا قال ابن عباس: الرئي المنظر، فالمعنى: هم أحسن أثاثا ولباسا. والوجه الثاني - أن جلودهم مرتوية من النعمة، فلا يجوز الهمز على هذا. وفي رواية ورش عن نافع وابن ذكوان

عن ابن عامر " ورثيا " بالهمز تكون على الوجه الأول. وهي قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو

من رأيت على الأصل. وقراءة طلحة بن مصرف (وريا) بياء واحدة مخففة أحسبها غلطا.

وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء، ثم حذفت إحدى اليائين.

المهدوي: ويجوز أن يكون " ريثا " فقلبت ياء فصارت ريثا ثم نقلت حركة الهمزة على الياء

وحذفت. وقد قرأ بعضهم " وريا " على القلب وهي القراءة الخامسة. وحكى سيويه راء بمعنى رأى. الجوهرى: من همزه جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة. وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي فقال:

أشأقتك الطعائن يوم بانوا * بذى الرئي الجميل من الأثاث
ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رويت ألوانهم وجلودهم ريا،

أي امتلأت وحسنت. وأما قراءة ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكي (٢)

(١) الذي في الشواذ لسعيد بن جبير.
(٢) في التهذيب: الكوفي.

ويزيد البربري " وزيا " بالزاي فهو الهيئة والحسن. ويجوز أن يكون من زويت أي جمعت، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (زويت

لي الأرض) أي جمعت، أي فلم يغن ذلك عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، فليعيش هؤلاء

ما شاءوا فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عمروا، أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

قوله تعالى: (قل من كان في الضلالة) أي في الكفر (فليمدد له الرحمن مداً) أي فليدعه في طغيان جهله وكفره فلفظه لفظ الامر ومعناه الخبر أي من كان الضلالة مده الرحمن مداً حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشد لعقابه. نظيره: " إنما نملي لهم ليزدادوا

إنما " (١) [آل عمران: ١٧٨] وقوله: " ونذرهم في طغيانهم يعمهون " (٢) [الانعام: ١١٠] ومثله كثير، أي فليعيش ما شاء، وليوسع

لنفسه في العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب. وهذا غاية في التهديد والوعيد. وقيل: هذا

دعاء أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، تقول: من سرق مالي فليقطع الله تعالى يده: فهو

دعاء على السارق. وهو جواب الشرط. وعلى هذا فليس قوله: " فليمدد " خبراً.

قوله تعالى: (حتى إذا رأوا ما يوعدون) قال: " رأوا " لان لفظ " من " يصلح للواحد والجمع. و " إذا " مع الماضي بمعنى المستقبل، أي حتى يروا ما يوعدون والعذاب

هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر، وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار. (فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا) أي تنكشف حينئذ الحقائق وهذا رد لقولهم: (أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا).

قوله تعالى: (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أي ويثبت الله المؤمنين على الهدى ويزيدهم في النصره وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم وقيل: يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذي كفر به غيرهم قال معناه الكلبي ومقاتل.

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٦ فما بعد.

(٢) راجع ج ٧ ص ٦٥.

ويحتمل ثالثا - أي " ويزيد الله الذين اهتدوا " إلى الطاعة " هدى " إلى الجنة والمعنى متقارب. وقد تقدم القول في معنى زيادة الأعمال وزيادة الايمان والهدى في " آل عمران " (١)

وغيرها. (والباقيات الصالحات) تقدم في (الكهف) (٢) القول فيها. (خير عند ربك ثوابا) أي جزاء: (وخير مردا) أي في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا. و (المرد) مصدر كالرد، أي وخير ردا على عاملها بالثواب، يقال: هذا أرد عليك أي أنفع لك. وقيل " خير مردا " أي مرجعا فكل أحد يرد إلى عمله الذي عمله.

قوله تعالى: أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا (٧٧) أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا (٧٨) كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا (٧٩) ونرثه ما يقول ويأتينا فردا (٨٠) قوله تعالى: (أفرأيت الذي كفر بآياتنا)

روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد.

قال: فقلت له لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال: وإنني لمبعوث من بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد. قال وكيع: كذا قال الأعمش، فنزلت هذه الآية: " أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا " إلى قوله: " ويأتينا فردا ". في رواية قال: كنت قينا (٣) في الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا، فأتيته أتقاضاه. خرجه

البخاري أيضا. وقال الكلبي ومقاتل: كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تقاضاه أجرته

فقال العاص: ما عندي اليوم ما أقضيك. فقال خباب: لست بمفارقك حتى تقضيني فقال العاص: يا خباب ما لك؟! ما كنت هكذا، وأن كنت لحسن الطلب. فقال خباب: إنني كنت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الاسلام مفارق لدينك، قال: أو لستم تزعمون أن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا؟ قال خباب: بلى قال فأخبرني حتى أقضيك

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ فما بعد.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٤١٤ فما بعد.

(٣) القين: الحداد والصائغ.

في الجنة - استهزاء - فوالله لعن كان ما تقول حقا إني لأقضيك فيها، فوالله لا تكون أنت

يا خباب وأصحابك أولى بها مني، فأنزل الله تعالى " أفرايت الذي كفر بآياتنا " يعني العاص

ابن وائل الآيات. " أطلع الغيب " قال ابن عباس: (أنظر في اللوح المحفوظ)؟! وقال مجاهد: أعلم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟! " أم اتخذ عند الرحمن عهدا " قال قتادة والثوري: أي عملا صالحا. وقيل: هو التوحيد. وقيل: هو من الوعد. وقال الكلبي: عاهد الله تعالى أن يدخله الجنة. " كلا " رد عليه أي لم يكن ذلك لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الرحمن عهدا وتم الكلام عند قوله: " كلا ". وقال الحسن: إن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة. والأول أصح لأنه مدون في الصحاح. وقرأ حمزة والكسائي:

" وولدا " بضم الواو، والباقون بفتحها. واختلف في الضم والفتح على وجهين: أحدهما:

أنهما لغتان معناهما واحد يقال ولد وولد كما يقال عدم وعدم. وقال الحرث بن حنظلة: ولقد رأيت معاشرًا * قد ثمروا مالا وولدا

وقال آخر:

فليت فلانا كان في بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حمار

والثاني - أن قيسا تجعل الولد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا. قال الماوردي: وفي قوله

تعالى: " لأوتين مالا وولدا " وجهان: أحدهما - أنه أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله

تعالى على طاعته وعبادته، قاله الكلبي. الثاني: أنه أراد في الدنيا وهو قول الجمهور وفيه

وجهان محتملان: أحدهما إن أقمت على دين آبائي وعبادة آلهتي لأوتين مالا وولدا. الثاني: ولو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدا.

قلت: قول الكلبي أشبه بظاهر الأحاديث بل نصها يدل على ذلك قال مسروق:

سمعت خباب بن الأرت يقول: جئت العاصي بن وائل السهمي أتقاضاه حقا لي عنده. فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟! فقلت: نعم. فقال: إن لي هناك مالا وولدا فأقضيك فنزلت

[أفرايت الذي كفر بآياتنا] (١) الآية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.

قوله تعالى: (أطلع الغيب) ألفه ألف استفهام لمجئ " أم " بعدها ومعناه التوبيخ وأصله أطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل فإن قيل فهلا أتوا بمدة بعد الألف فقالوا أطلع كما قالوا " الله خير " (١) " أذكرين حرم " (٢) قيل له كان الأصل في هذا

" الله " " أذكرين " فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الاستفهام والخبر وذلك أنهم لو قالوا: الله خير بلا مد لالتبس الاستفهام بالخبر ولم يحتاجوا إلى هذه المدة في قوله:

" أطلع " لان ألف الاستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة وذلك أنك تقول في الاستفهام:

أطلع؟ أفترى؟ أصطفى؟ أستغفرت؟ بفتح الألف، وتقول في الخبر: إطلع، أفترى، اصطفى، إستغفرت لهم بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر

قوله تعالى: (كلا) ليس في النصف (٣) الأول ذكر " كلا " وإنما جاء ذكره في النصف

الثاني. وهو يكون بمعنيين: أحدهما بمعنى حقا. والثاني بمعنى لا. فإذا كانت بمعنى حقا

جاز الوقف على ما قبله ثم تبتدئ " كلا " أي حقا. وإذا كانت بمعنى لا كان الوقف على " كلا " جائز كما في هذه الآية لان المعنى: لا ليس الامر كذا. ويجوز أن تقف على قوله " عهدا " وتبتدئ " كلا " أي حقا " سنكتب ما يقول " وكذا قوله تعالى: " لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا " (٤) [المؤمنون: ١٠٠] يجوز الوقف على " كلا " وعلى " تركت " وقوله:

" ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون (٥). قال كلا " الوقف على " كلا " لان المعنى لا - وليس

الامر كما تظن. " فاذهبا " فليس للحق في هذا المعنى موضع. وقال الفراء " كلا " بمنزلة

سوف لأنها صلة وهي حرف رد فكأنها " نعم " و " لا " في الاكتفاء. قال: وإن جعلتها صلة

لما بعدها لم تقف عليها كقولك: كلا ورب الكعبة، لا تقف على كلا لأنها بمنزلة إي ورب

الكعبة. قال الله تعالى " كلا والقمر " (٦) [المدثر: ٣٢] فالوقف على " كلا " قبيح لأنه صلة لليمين.

وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول في " كلا " مثل قول الفراء وقال الأخفش معنى

-
- (١) راجع ج ١٣ ص ٢١٩ فما بعد.
(٢) راجع ج ٧ ص ١١٣.
(٣) أي من القرآن قال الألوسي: (وهذا أول موضع فيه من القرآن وقد تكرر في النصف الأخير فوقع في ثلاثة وثلاثين موضعا).
(٤) راجع ج ١٢ ص ١٤٩ فما بعد.
(٥) راجع ج ١٣ ص ٩١.
(٦) راجع ج ١٩ ص ٨٢.

كلا الردع والزجر وقال أبو بكر بن الأنباري وسمعت أبا العباس يقول: لا يوقف على " كلا " جميع القرآن لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها. والقول الأول هو قول أهل التفسير.

قوله تعالى: (سنكتب ما يقول) أي سنحفظ عليه قوله فنجازيه به في الآخرة. (ونمد له من العذاب مدا) أي سنزيده عذابا فوق عذاب. (ونرثه ما يقول) أي نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وولد. وقال ابن عباس وغيره: أي نرثه المال والولد بعد

إهلا كنا إياه. وقيل: نحرمه ما تمناه في الآخرة من مال وولد ونجعله لغيره من المسلمين.

(ويأتينا فردا) أي منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره.

قوله تعالى: واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١)

كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا.

قوله تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) يعني مشركي قريش.

و " عزا " معناه أعوانا ومنعة يعني أولادا. والعز المطر الجود أيضا قاله الهروي.

وظاهر الكلام أن " عزا " راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله. ووحيد لأنه بمعنى المصدر أي لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله فقال الله تعالى: (كلا) أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم أي ينكرون أنهم عبدوا الأصنام أو تجحد الآلهة

عبادة المشركين لها كما قال (٢): " تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون " (٣) [القصص:

٦٣] وذلك أن الأصنام جمادات

لا تعلم العبادة " ويكونون عليهم ضدا " أي أعوانا في خصومتهم وتكذيبهم عن مجاهد

والضحاك: يكونون لهم أعداء. ابن زيد: يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم وتركب

لهم

عقول فتنطق وتقول: يا رب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك و " كلا " هنا يحتمل

أن تكون بمعنى لا ويحتمل أن تكون بمعنى حقا أي حقا " سيكفرون بعبادتهم " وقرأ

(١) المطر الجود: الغزير.

(٢) في ك: قالوا.

(٣) راجع ج ١٣ ص ٣٠٣ فما بعد.

أبو نهيك: " كلا سيكفرون " بالتنوين. وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها. قال المهديوي " كلا " ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه

عليه كقوله: " كلا إن الانسان ليطغى " (١) [العلق: ٦] فلا يوقف عليها على هذا ويوقف عليها في المعنى الأول فان صلح فيها المعنيين جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بها. فمن نون (كلا) من

قوله: (كلا سيكفرون بعبادتهم) مع فتح الكاف فهو مصدر كل ونصبه بفعل مضممر والمعنى: كل هذا الرأي والاعتقاد كلا يعني اتخاذهم الآلهة. " ليكونوا لهم عزا " فيوقف على

هذا على " عزا " وعلى " كلا ". وكذلك في قراءة الجماعة لأنها تصلح للرد لما قبلها والتحقيق لما بعدها. ومن روى ضم الكاف مع التنوين فهو منصوب أيضا بفعل مضممر كأنه قال: سيكفرون. " كلا سيكفرون بعبادتهم " يعني الآلهة.

قلت: فتحصل في " كلا " أربعة معان: التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا والنفي والتنبيه وصلة للقسم ولا يوقف منها إلا على الأول. وقال الكسائي: " لا " تنفي فحسب

و " كلا " تنفي شيئا وتثبت شيئا فإذا قيل: أكلت تمرا قلت: كلا إني أكلت عسلا لا تمرا

ففي هذه الكلمة نفي ما قبلها، وتحقق ما بعدها والضد يكون واحدا ويكون جمعا كالعدو

والرسول وقيل: وقع الضد موقع المصدر أي ويكونون عليهم عوننا فلهذا لم يجمع وهذا في مقابلة قوله: " ليكونوا لهم عزا " والعز مصدر فكذلك ما وقع في مقابله. ثم قيل: الآية في عبدة الأصنام فأجري الأصنام مجرى من يعقل جريا على توهم الكفرة. وقيل: فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين فالله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا (٨٤) يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا (٨٥) ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا (٨٦)

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٢٢ فما بعد.

قوله تعالى: (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أي سلطانهم عليهم بالاغواء وذلك حين قال لإبليس: " واستفز من استطعت منهم بصوتك " (١) [الاسراء: ٦٤]. وقيل " أرسلنا "

أي خلدنا يقال: أرسلت البعير أي خلدته، أي خلدنا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول

منهم. الزجاج: قيضنا. (تؤزهم أزا) قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية. وعنه تغريهم إغراء بالشر: أمض أمض في هذا الامر حتى توقعهم في النار. حكى الأول الثعلبي والثاني الماوردي والمعنى واحد. الضحاك: تغويهم إغواء مجاهد: تشليهم إشلاء وأصله الحركة والغليان، ومنه الخبر المروي أن النبي صلى الله عليه وسلم

(قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء). وائترت القدر ائترازا اشتد غليانها. والأز التهيج والاغراء قال الله تعالى " ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا " أي تغريهم على المعاصي. والأز الاختلاط. وقد أززت الشيء أؤزه أزا أي ضمنت بعضه إلى بعض قاله الجوهرى.

قوله تعالى: (فلا تعجل عليهم) أي تطلب العذاب لهم. (إنما نعد لهم عدا) قال الكلبي: آجالهم يعني الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب. وقال الضحاك:

الأنفاس. ابن عباس: أي نعد أنفاسهم في الدنيا كما نعد سنيهم. وقيل الخطوات. وقيل: اللذات. وقيل: اللحظات وقيل الساعات. وقال قطرب: نعد أعمالهم عدا. وقيل لا تعجل عليهم فإنما تؤخرهم ليزدادوا إثما. روي: أن المأمون قرأ هذه السورة فمر بهذه

الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفذ. وقيل في هذا المعنى:

حياتك أنفاس تعد فكلما * مضى نفس منك انتقصت به جزءا يميمتك ما يحييك في كل ليلة * ويحدوك حاد ما يريد به الهزاء

ويقال: إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس: اثنا عشر ألف نفس في اليوم واثنا عشر ألفا في الليلة - والله أعلم - فهي تعد وتحصى إحصاء ولها عدد

معلوم وليس لها مدد فما أسرع ما تنفذ.

(100)

قوله تعالى: (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) في الكلام حذف أي إلى جنة الرحمن، ودار كرامته. كقوله: "إني ذاهب إلى ربي سيهدين" (١) [الصفات: ٩٩] وكما في الخبر (من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله). والوفد اسم للوافدين كما يقال: صوم

وفطر وزور فهو جمع الوافد مثل ركب وراكب وصحب وصاحب وهو من وفد يفد وفدا

ووفودا ووفادة إذا خرج إلى ملك في فتح أو أمر خطير. الجوهري: يقال وفد فلان على الأمير أي ورد رسولا فهو وافد، والجمع وفد مثل صاحب وصحب وجمع الوفد وفاد (٢) ووفود

والاسم الوفادة وأوفدته أنا إلى الأمير أي أرسلته. وفي التفسير: "وفدا" أي ركباننا على نجائب طاعتهم. وهذا لان الوافد في الغالب يكون راكبا والوفد الركبان ووحيد لأنه مصدر.

ابن جريج: وفدا على النجائب. وقال عمرو بن قيس الملائي: إن المؤمن إذا خرج من قبره

استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح فيقول هل تعرفني؟ فيقول لا - إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك. فيقول: كذلك كنت في الدنيا أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم وتلا "يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا" وإن الكافر

يستقبله عمله في أقبح صورة وأنتن ريح فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا - إلا إن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك. فيقول كذلك كنت في الدنيا أنا عملك السيء طالما ركبتني

في الدنيا وأنا اليوم اركبك. وتلا "وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم" (٣) [الانعام: ٣١]. ولا يصح من قبل

إسناده. قاله ابن العربي في "سراج المريدين". وذكر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم

ابن عبد الكريم القشيري عن ابن عباس بلفظه ومعناه. وقال أيضا عن ابن عباس: من كان

يحب [ركوب] (٤) الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا تروث ولا تبول لجمها من الياقوت

الأحمر ومن الزبرجد الأخضر ومن الدر الأبيض وسروجهما من السندس والاستبرق ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تبعر ولا تبول أزمتهما من الياقوت والزبرجد

ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من [زبرجد و] (٤) ياقوت قد أمنوا الغرق
وأمنوا الأهوال.
وقال أيضا عن علي رضي الله عنه: ولما نزلت الآية قال علي رضي الله عنه: يا رسول
الله!

-
- (١) راجع ج ١٥ ص ٩٧.
(٢) في ج وب وز وك: أوفاد.
(٣) راجع ج ٦ ص ٤٢٣.
(٤) من ب و ج وز وط وك وى.

إني قد رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفداً إلا ركبانا فما وفد الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما إنهم لا يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة). ولفظ الثعلبي في هذا الخبر عن علي أبين. وقال علي لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله! إني رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفداً إلا ركبانا. قال: (يا علي إذا كان المنصرف من بين يدي الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة " سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين " (١) [الزمر: ٧٣].

قلت: وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف وأما إذا خرجوا من القبور فمشاة حفاة عراة غرلاً (٢) إلى الموقف بدليل حديث ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: (يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله - تعالى - حفاة عراة غرلاً) الحديث. خرجه البخاري ومسلم وسيأتي بكماله في سورة " المؤمنين " إن شاء الله تعالى. وتقدم في " آل عمران " (٣) من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى. ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء فيكون حديث ابن عباس مخصوصاً! والله أعلم. وقال أبو هريرة: " وفداً " على الإبل. ابن عباس: ركبانا يؤتون بنوق من الجنة عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها وقال علي: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رجالها من ذهب ونجب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن حركوها طارت. وقيل: يقدون على ما يحبون من إبل أو خيل أو سفن على ما تقدم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل إنما قال: " وفداً " لأن من شأن الوفود عند العرب أن

يقدموا بالبشارات وينتظرون الجوائز فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب. (ونسوق
المجرمين إلى جهنم وردا) السوق الحث على السير. و " وردا " عطاشا قاله ابن عباس

-
- (١) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد.
(٢) الغرل (جمع الأغرل): وهو الأكلف.
(٣) راجع ج ٤ ص ٢٧٣.

وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن. والأخفش والفراء وابن الأعرابي: حفاة مشاة. وقيل: أفرادا (١). وقال الأزهري: أي مشاة عطاشا كالإبل ترد الماء فيقال جاء ورد بني فلان. القشيري: وقوله: (وردا) يدل على العطش لان الماء إنما يورد في الغالب للعطش. وفي "التفسير" مشاة عطاشا تنقطع أعناقهم من العطش وإذا كان سوق المجرمين إلى النار فحشر المتقين إلى الجنة. وقيل "وردا" أي الورود كقولك: جئتكم إكراما لك أي لاكرامك أي نسوقهم لورود النار.

قلت: ولا تناقض بين هذه الأقوال فيساقون عطاشا حفاة مشاة أفرادا (١). قال ابن عرفة: الورد القوم يردون الماء، فسمي العطاش وردا لطلبهم ورود الماء كما تقول: قوم صوم أي صيام وقوم زور أي زوار فهو اسم على لفظ المصدر واحدهم وارد.

والورد أيضا الجماعة التي ترد الماء من طير وإبل. والورد الماء الذي يورد. وهذا من باب الإيماء

بالشئ إلى الشئ. والورد الجزء [من القرآن] (٢) يقال: قرأت وردي. والورد يوم الحمى إذا

أخذت صاحبها لوقت. فظاهره لفظ مشترك. وقال الشاعر يصف قليبا (٣).
* يطمو إذا الورد عليه التكا (٤)

أي الورد الذين يريدون الماء. قوله تعالى: (لا يملكون الشفاعة) أي هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لاحد (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وهم المسلمون فيملكون الشفاعة فهو استثناء الشئ من غير جنسه أي لكن "من اتخذ عند الرحمن عهدا" يشفع، ف "من" في موضع نصب

على هذا. وقيل: هو في موضع رفع على البدل من الواو في "يملكون" أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة "إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا" فإنه يملك وعلى هذا يكون الاستثناء

(١) في ا: أفواجا.

(٢) الزيادة من (اللسان).

(٣) القليب: البئر.

(٤) صدره:

* صبحن من وشحى قليبا سكا *

وشحى: اسم بئر. والسك: الضيقة. والتك الورد: ازدحم وضرب بعضه بعضا. وطمت البئر تطمو طموا وتطمى

طميا: امتلأت.

(١٥٣)

متصلا. و " المجرمين " في قوله: " ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا " يعم الكفرة
والعصاة
ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم.
قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعي فيمن قال لا
إله

إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي) خرجه مسلم
بمعناه. وقد

تقدم. وتظاهرت الاخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفعون، وعلى
القول الأول يكون الكلام متصلا بقوله: " واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا "
فلا تقبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لاحد، ولا شفاعة الأصنام لاحد، ولا يملكون شفاعة
أحد لهم أي لا تنفعهم شفاعة كما قال: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (١). وقيل: أي
نحشر

المتقين والمجرمين ولا يملك أحدا شفاعة. " إلا من أتخذ عند الرحمن عهدا " أي إذا
أذن له

الله (٢) في الشفاعة. كما قال: " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " (٣) [البقرة:
٢٥٥]. وهذا العهد هو الذي قال:

" أم اتخذ عند الرحمن عهدا " وهو لفظ جامع للإيمان وجميع [الأعمال] (٢)
الصالحات التي يصل بها

صاحبها إلى حيز من يشفع. وقال ابن عباس: العهد لا إله إلا الله. وقال مقاتل وابن
عباس

أيضا: لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله وتبرأ من الحول والقوة (٤) لله ولا يرجو
إلا الله

تعالى. وقال ابن مسعود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه:
(أيعجز

أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا) قيل يا رسول الله وما ذلك؟ قال
(يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني
أعهد إليك

في هذه الحياة بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك
ورسولك

[فلا تكني إلى (٥) نفسي] فإنك إن تكنني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقريني من
الشر وإني

لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيهِ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا

قال
ذلك طبع الله عليها طابعا ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين
الذين
لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة).

-
- (١) راجع ج ١٩ ص ٨٢.
(٢) في ب و ج و ز وك: الرب.
(٣) راجع ج ٣ ص ٢٦٨ فما بعد.
(٤) أي من حوله وقوته لله.
(٥) الزيادة من رواية الترمذي.

قوله تعالى: وقالوا أتخذ الرحمن ولدا (٨٨) لقد جئتم شيئا إدا (٨٩)
تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا (٩٠)
أن دعوا للرحمن ولدا (٩١) وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا (٩٢)
إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا (٩٣)
لقد أحصاهم وعدهم عدا (٩٤) وكلهم آتية يوم القيامة فردا (٩٥)
قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) يعنى اليهود والنصارى، ومن زعم أن
الملائكة بنات الله. وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وعاصم وخلف: " ولدا "

بضم
الواو وإسكان اللام، في أربعة مواضع: من هذه السورة قوله تعالى: لأوتين مالا وولدا "
[مريم: ٧٧]

وقد تقدم، وقوله: " أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ". وفي
سورة

نوح " ماله وولده " (١) [نوح: ٢١]. ووافقهم في " نوح " خاصة ابن كثير ومجاهد
وحميد وأبو عمرو

ويعقوب. والباقون في الكل بالفتح في الواو واللام وهما لغتان مثل والعرب والعرب
والعجم والعجم قال:

ولقد رأيت معاشرًا * قد ثمروا مالا وولدا
وقال آخر:

وليت فلانا كان في بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حمار
وقال في معنى ذلك النابغة:

مهلا فداء لك الأقبام كلهم * وما أثمر من مال ومن ولد
ففتح. وقيس يجعلون الولد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا. قال الجوهري: الولد قد
يكون واحدا وجمعا وكذلك الولد بالضم. ومن أمثال بني أسد: ولدك من دمي عقبك
(٢).

وقد يكون الولد جمع الولد مثل أسد وأسد والولد بالكسر لغة في الولد. النحاس: وفرق

(١) راجع ج ١٨ ص ٣٠٦.

(٢) أي من نفست به فأدمى النفاس عقبك فهو ابنك.

أبو عبيدة بينهما فزعم أن الولد يكون للأهل والولد جميعا. قال أبو جعفر وهذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة ولا يكون الولد والولد إلا ولد الرجل، وولد ولده، إلا

أن ولدا أكثر في كلام العرب، كما قال:

مهلا فداء لك الأقوام كلهم* وما أثمر من مال ومن ولد

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول: يجوز أن يكون ولد جمع ولد كما يقال وثن

ووثن وأسد وأسد، ويجوز أن يكون ولد وولد بمعنى واحد كما يقال عجم وعجم وعرب

وعرب كما تقدم.

قوله تعالى (لقد جئتم شيئا إذا) أي منكرا عظيما، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. قال الجوهري: الإد والإدة الداهية والامر الفطيع ومنه قوله تعالى: " لقد جئتم شيئا إذا " وكذلك الآد مثل فاعل. وجمع الإدة إدد. وأدت فلانا داهية تؤده أدا (بالفتح).

والإد أيضا الشدة. [والإد الغلبة والقوة] (١) قال الراجز:

نضون عني شدة وأدا* من بعد ما كنت صملا جلدا (٢)

انتهى كلامه. وقرأ أبو عبد الرحمن (٣) السلمي: " أدا " بفتح الهمزة. النحاس: يقال أد يؤد أدا فهو آد والاسم الإد، إذا جاء بشئ عظيم منكر. وقال الراجز:

قد لقي الاقران مني نكرا* داهية دهياء إذا إمرا

عن غير النحاس الثعلبي: وفيه ثلاث لغات " إذا " بالكسر وهي قراءة العامة " وأدا "

بالفتح وهي قراءة السلمي و " آد " مثل ماد وهي لغة لبعض العرب رويت عن ابن عباس وأبي العالية، وكأنها مأخوذة من الثقل [يقال]: آده الحمل يعود أودا أثقله.

قوله تعالى: (تكاد السماوات) قراءة العامة هنا وفي " الشورى " (٤) بالتاء. وقراءة

نافع ويحيى والكسائي " يكاد " بالياء لتقدم الفعل. (يتفطرن منه) أي يتشققن. وقرأ

نافع وابن كثير وحفص وغيرهم: بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفي " الشورى "

الشورى "

(١) في الأصول: الاد القوة والشدة في ج الاد: أيضا القوة. وصوابه كما في اللسان: الاد بالكسر الشدة والاد بالفتح الغلبة والقوة.

(٢) الصمل الشديد الصلب. وورد في كتب اللغة: (صملا نهدا) والنهد: القوى الشديد.

(٣) ليس في الأصول أبو عبد الله إلا نسخة ا.

(٤) راجع ج ١٦ ص ٤.

(106)

ووافقهم حمزة وابن عامر في " الشورى ". وقرأ هنا " ينفطرن " من الانفطار: وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضل في السورتين. وهي اختيار أبي عبيد، لقوله تعالى: " إذا السماء انفطرت " (١) [الانفطار: ١] وقوله: " السماء منفطر به " (١) [المزمل: ١٨]. وقوله: (وتنشق الأرض) أي

تتصدع. (وتخر الجبال هدا) قال ابن عباس: هدا أي تسقط بصوت شديد. وفي الحديث (اللهم إني أعوذ بك من الهد والهداة) قال شمر قال أحمد بن غياث المروزي:

الهد الهدم والهداة الخسوف. وقال الليث هو الهدم الشديد كحائط يهد بمرة يقال: هدني الامر وهد ركني أي كسرتني وبلغ مني قاله الهروي والجوهري: وهد البناء يهده هدا

كسره وضعضه وهدته المصيبة أي أوهنت ركنه وانهد الجبل أي انكسر. الأصمعي: والهد

الرجل الضعيف يقول للرجل للرجل إذا أوعده: إني لغير هد أي غير ضعيف. وقال ابن الأعرابي: الهد من الرجال الجواد الكريم وأما الجبان الضعيف فهو الهد بالكسر وأنشد (٢):

ليسوا بهدين في الحروب إذا * تعقد فوق الحراقف النطق والهداة صوت وقع الحائط ونحوه تقول منه: هد يهد (بالكسر) هديدا والهاد صوت يسمعه أهل الساحل يأتيهم من قبل البحر له دوي في الأرض وربما كانت منه الزلزلة ودويه هديده. النحاس " هدا " مصدر لان معنى " تخر " تهد. وقال غيره: حال أي مهدودة (أن دعوا للرحمن ولدا) " أن " في موضع نصب عند الفراء لان دعوا ومن أن دعوا فموضع " أن " نصب بسقوط الخافض. وزعم الفراء أن الكسائي قال: هي في موضع خفض بتقدير الخافض. وذكر ابن المبارك: حدثنا مسعر عن واصل عن عون بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود: إن الجبل ليقول للجبل يا فلان هل مر بك

اليوم ذاكر لله؟ فإن قال: نعم سر به ثم قرأ عبد الله " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا " الآية قال: (٣)

أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير؟! قال: وحدثني عوف عن غالب بن عجرد (٤) قال:

(١) راجع ١٩ ص ٢٤٢ وص ٤٧ فما بعد.

(٢) البيت للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

والحراقف (جمع حرقفة): مجتمع رأس الفخذ. والنطق (جمع نطاق): ما تشد به الأوساط.

(٣) أي قال عون

كما في (الدر المنثور) وغيره.
(٤) كذا في الأصول ولعله (غالب بن حجرة) وط هنا تحريف.

حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: إن الله تعالى لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم تك في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة وكان لهم

منها منفعة، فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بني آدم تلك الكلمة العظيمة

قولهم " اتخذ الرحمن ولدا " فلما قالوها اقشعرت الأرض وشاك الشجر. وقال ابن عباس:

اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار والبحار وما فيها من الحيتان فصار من ذلك الشوك

في الحيتان وفي الأشجار الشوك. وقال ابن عباس أيضا وكعب: فزعت السماوات والأرض

والجبال وجميع المخلوقات إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم وشاك الشجر واكفهرت الأرض وجذبت حين قالوا: اتخذ الله ولدا. وقال

محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة لقوله تعالى " تكاد السماوات

يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا " قال ابن العربي: وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر

الكافر ولا يرفعه إيمان المؤمن ولا يزيد هذا في ملكه كما لا ينقص ذلك من ملكه لما جرى شئ من هذا على الألسنة ولكنه القدوس الحكيم الحلیم فلم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون

قوله تعالى: (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد لان الولد يقتضي الجنسية والحدوث على ما بيناه في " البقرة " (١) أي لا يليق به ذلك

ولا يوصف به ولا يجوز في حقه لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله

سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس. قال: (٢)

في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة* ما ينبغي دونها سهل ولا جبل

(١) راجع ج ٢ ص ٨٥.

(٢) هو ابن أحمر الباهلي يصف جبلا. والخلقاء: الصخرة ليس فيها وشم ولا كسر أي الملساء. والعنقاء: أكمة جبل مشرف.



(١٥٨)

(إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) " إن " نافية بمعنى ما أي ما كل من في السماوات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مقرا له بالعبودية خاضعا ذليلا

كما قال: " وكل أتوه داخرين " (١) [النمل: ٨٧] أي صاغرين أذلاء أي الخلق كلهم عبيده فكيف يكون

واحد منهم ولدا له عز وجل تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا. و " آتي "

بالياء في الخط والأصل التنوين فحذف استخفافا وأضيف.

الثانية - في هذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد خلافا لمن قال إنه يشترطه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه. وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والملك فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه. ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبودية في طرفي تقابل فنفي أحدهما وأثبت الآخر

ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها وفي الحديث الصحيح (لا

يجزي

ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشترطه فيعتقه) خرجه مسلم. فإذا لم يملك الأب ابنه مع مرتبته

عليه فالابن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه.

الثالثة - ذهب إسحاق بن راهويه في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: (من أعتق شركا له في عبد) أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكمل على من أعتق شركا في أنثى وهو على

خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم فإنهم لم يفرقوا بين الذكر

والأنثى لان

لفظ العبد يراد به الجنس كما قال تعالى: " إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي

الرحمن

عبدا " فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبيد (٢) قطعا. وتمسك إسحاق بأنه قد

حكى عبدة في المؤنث.

الرابعة - روى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(يقول الله تبارك وتعالى كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك

فأما تكذيبه

إياي فقوله ليس يعيدني كما بدأتي وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه

إياي

فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لي كفوا أحد) وقد

تقدم
في [البقرة] (٣) وغيرها وإعادته في مثل هذا الموضوع حسن جدا.

-
- (١) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فما بعد.
(٢) كذا في ج وفي ا و ح: العبد.
(٣) تقدم الحديث في ج ٢ ص ٨٥ بلفظ آخر.

قوله تعالى: (لقد أحصاهم) أي علم عددهم (وعددهم عدا) تأكيد أي فلا يخفى عليه أحد منهم.

قلت: ووقع لنا في أسمائه سبحانه المحصي أعني في السنة من حديث أبي هريرة خرجه الترمذي واشتقاق هذا الفعل يدل عليه. وقال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني: ومنها

المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال: "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (١). ووقع في تفسير ابن عباس أن معنى

"لقد أحصاهم وعددهم عدا" يريد أقروا له بالعبودية وشهدوا له بالربوبية.

قوله تعالى: (وكلهم آتية يوم القيامة فردا) أي واحدا لا ناصر له ولا مال معه لينفعه (٢) كما قال تعالى: "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" (٣) فلا ينفعه

إلا ما قدم من عمل وقال: "وكلهم آتية" على لفظ وعلى المعنى آتوه. وقال القشيري: وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده فكيف رضيتم له

ملا ترضون لأنفسكم. وقد رد عليهم في مثل هذا في أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات ويقولون: الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك وقولهم: الأصنام بنات الله. وقال: "فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم" (٤).

قوله تعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (٩٦)

قوله تعالى: "إن الذين آمنوا أي صدقوا. "وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا" أي حبا في قلوب عباده. كما رواه الترمذي من حديث سعد وأبي هريرة: أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبه - قال - فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض. فذلك قوله تعالى: "سيجعل لهم

(١) راجع ج ١٨ ص ٢١٣ فما بعد.

(٢) كذا في الأصول إلا: ينفعه.

(٣) راجع ج ١٣ ص ١١٣ فما بعد.

(٤) راجع ج ٧ ص ٨٩ فما بعد.

الرحمن ودا " وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل إني أبغضت فلانا فينادي في السماء ثم تنزل

له البغضاء في الأرض) " قال هذا حديث حسن صحيح. وخرجه البخاري ومسلم بمعناه

ومالك في الموطأ وفي نوادر الأصول. وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال: حدثنا أبو مالك

الجنيبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن

الله أعطى المؤمن الألفة (١) والملاحة والمحبة في صدور الصالحين والملائكة المقربين - ثم تلا -

" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ". واختلف فيمن نزلت فقيل في علي رضي الله تعالى عنه روى البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لعلي بن أبي طالب: (قل يا علي اللهم اجعل لي عندك عهدا واجعل لي في قلوب المؤمنين

مودة) فنزلت الآية ذكره الثعلبي. وقال ابن عباس: نزلت في عبد الرحمن بن عوف جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودة لا يلقاه مؤمن إلا وقره لا مشرك ولا منافق إلا عظمه. وكان هرم بن حيان يقول: ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى

بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وقيل: يجعل الله تعالى لهم مودة في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة.

قلت: إذا كان محبوبا في الدنيا فهو كذلك في الآخرة فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا ولا يرضى إلا خالصا نقيا جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه. روى مسلم عن أبي هريرة

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل عليه السلام فقال إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا

فأحبه فيحبه أهل السماء - قال - ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه [قال] (٢) فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل

السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه - قال - فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض).

قوله تعالى: وإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به

قوما لدا (٩٧)

-
- (١) في ب و ج و ز و ط: المقه: والمقه بكسر الميم وآخره هاء: المحبة وفي ك: الشفقة.
(٢) من ب و ج و ط وك.

(١٦١)

قوله تعالى: فإنما يسرناه بلسانك) أي القرآن يعني بيناه بلسانك العربي وجعلناه سهلا على من تدبره وتأمله. وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه. (لتبشر به

المتقين) [أي المؤمنين] (١) (وتنذر به قوما لدا) اللد جمع الألد وهو الشديد الخصومة ومنه

قوله تعالى: " ألد الخصام (٢) " وقال الشاعر:

أبيت نجيا للهموم كأنني * أخاصم أقواما ذوي جدل لدا

وقال أبو عبيدة: الألد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل. الحسن: اللد الصم عن الحق. قال الربيع: صم أذان القلوب. مجاهد: فجارا. الضحاك: مجادلين في الباطل. ابن عباس: شدادا في الخصومة. وقيل: الظالم الذي لا يستقيم والمعنى واحد. وخصوا بالانذار لان الذي لا عناد عنده يسهل انقياده

قوله تعالى: وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (٩٤)

قوله تعالى: (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أي من أمة وجماعة من الناس يخوف أهل مكة. (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) في موضع نصب أي هل ترى منهم

أحد وتجد. " أو تسمع لهم ركزا " أي صوتا عن ابن عباس وغيره أي قد ماتوا وحصلوا [على] (٣)

أعمالهم. وقيل: حسا، قاله ابن زيد. وقيل: الركن ما لا يفهم من صوت أو حركة قاله اليزيدي وأبو عبيدة كركز الكتيبة وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد:

وتوجست ركز الأنيس فراعها * عن ظهر غيب والأنيس سقامها (٤)

وقيل: الصوت الخفي. ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض. وقال طرفة: وصادقتنا سمع التوجس للسري * لركز خفي أو لصوت مندد (٥)

(١) من ب و ج و ز و ط و ك.

(٢) راجع ج ٣ ص ١٤ فما بعد.

(٣) من ب و ج و ط و ك و ز.

(٤) توجست: سمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ولم تر الناس. والأنيس سقامها معناه: والأنيس هلاكها: أي يصيدها.

(٥) يصف طرفه في هذا البيت أذني ناقته يعني أذنيها لا تكذبها النبأة. والمندد صفة للصوت والصوت المندد المبالغ في النداء. ويروى: (لصوت مندد) بالإضافة وكسر الدال والأولى هي الرواية الجيدة.

وقال ذو الرمة يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد و كلاب:
إذا توجس ركزا مقفر ندس * نبأة الصوت ما في سمعه كذب
أي ما في استماعه كذب أي هو صادق الاستماع. والندس الحاذق فيقال: ندس
وندس كما يقال: حذر وحذر ويقظ ويقظ، والنبأة الصوت الخفي وكذلك الركن
والركاز المال المدفون. والله تعالى أعلم بالصواب.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة طه عليه السلام

سورة طه عليه السلام مكية في قول الجميع. نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه.
روى الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال خرج عمر متقلدا بسيف
ف قيل

له إن ختنك [وأختك] (١) قد صبوا (٢) فأتاها عمر وعندهما رجل من المهاجرين
يقال له: خباب

وكانوا يقرءون: " طه ". فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرؤه - وكان عمر
رضي

الله عنه يقرأ الكتب - فقالت له أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل
أو توضأ فقام عمر رضي الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ: " طه ". وذكره ابن
إسحاق

مطولا: فإن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله فلقبه
نعيم

ابن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا هذا الصابي الذي فرق أمر
قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك
نفسك من نفسك يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت
محمدا؟!!

أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟! فقال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك
سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه
فعليك

بهما. قال: فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة
فيها

(١) من ب و ج و ز و ط و ك.

(٢) صبا الرجل: خرج من دين إلى دين آخر.

" طه " يقرئهما إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال: ما هذه الهينمة (١) التي سمعت؟ قالوا له: ما سمعت شيئاً. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً إلى دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان كاتباً فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال لها: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وأنه لا يمسه إلا الطاهر. فقام عمر واغتسل فأعطته الصحيفة وفيها " طه " [فقرأها] (٢) فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنني سمعته أمس وهو يقول: (اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب) فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم وذكر الحديث.

مسألة أسند الدارمي أبو محمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تبارك وتعالى قرأ " طه " و " يس " قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لامة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا) قال ابن فورك معنى قوله: (إن الله تبارك وتعالى قرأ " طه " و " يس ") أي أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة في ذلك الوقت والعرب تقول: قرأت الشيء إذا تتبعته وتقول: ما قرأت هذه

(١) الهينة: الكلام الخفي لا يفهم.
(٢) من ب و ج وط وز وك.

الناقة في رحمها سلاقط أي ما ظهر فيها ولد فعلى هذا يكون الكلام سائغا وقراءته إسماعه

وإفهامه بعبارات يخلقها وكتابتها يحدثها. وهي معنى قولنا قرأنا كلام الله ومعنى قوله: " فاقراءوا ما تيسر من القرآن " " فاقراءوا ما تيسر منه " (١). ومن أصحابنا من قال معنى قوله:

(قرأ) أي تكلم به وذلك مجاز كقولهم ذقت هذا القول (٢) ذواقا بمعنى اختبرته. ومنه قول تعالى:

" فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " (٣) أي ابتلاهم الله تعالى به فسمي ذلك

ذواقا والخوف لا يذاق على الحقيقة لان الذوق في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح.

قال ابن فورك: وما قلناه أولا أصح في تأويل هذا الخبر لان كلام الله تعالى أزلي قديم سابق

لجملة الحوادث وإنما أسمع وأفهم من أراد من خلقه على ما أراد في الأوقات والأزمنة لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان.

قوله تعالى: طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢)

إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات

العلي (٤) الرحمن على العرش استوى (٥) له ما في السماوات

وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (٦) وإن تجهر بالقول

فإنه يعلم السر وأخفى (٧) الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى (٨)

قوله تعالى: " طه " اختلف العلماء في معناه فقال الصديق رضي الله تعالى عنه:

هو من الاسرار ذكره الغزنوي ابن عباس معناه يا رجل ذكره البيهقي. وقيل: إنها

لغة معروفة في عكل. وقيل في عك قال الكلبي: لو قلت في عك لرجل يا رجل لم

يجب

حتى تقول طه. وأنشد الطبري في ذلك فقال: (٤)

دعوت بطه في القتال فلم يجب * فخفت عليه أن يكون موائلا

(١) راجع ج ١٩ ص ٥٠ فما بعد.

(٢) في ب و ج و ط و ز و ك: هذا الامر.

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٩٣ فما بعد.

(٤) هو متمم بن نويرة ووائل: طلب النجاة.

ويروى مزايلا. وقال عبد الله بن عمرو: يا حبيبي بلغة عك ذكره الغزنوي وقال
قطرب: هو بلغة طئ وأنشد ليزيد بن المهلهل:
إن السفاهة طه من شمائلكم* لا بارك الله في القوم الملاعين
وكذلك قال الحسن: معنى " طه " يا رجل. وقاله عكرمة وقال هو بالسريانية كذلك
ذكره المهدي وحكاها الماوردي عن ابن عباس أيضا ومجاهد. وحكى الطبري: أنه
بالنبطية يا رجل. وهذا قول السدي وسعيد بن جبير وابن عباس أيضا قال:
إن السفاهة طه من خلائقكم* لا قدس الله أرواح الملاعين
وقال عكرمة أيضا: هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ذكره الثعلبي. والصحيح أنها
وإن

وجدت في لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا وأنها لغة يمنية في عك وطئ
وعكل

أيضا. وقيل: هو اسم من أسماء الله تعالى وقسم أقسم به. وهذا أيضا مروى عن
ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى
به كما سماه

محمدا. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لي عند ربي عشرة أسماء) فذكر
أن فيها طه ويس وقيل: هو اسم للسورة ومفتاح لها. وقيل: إنه اختصار من كلام
الله خص الله تعالى رسوله بعلمه. وقيل: إنها حروف مقطعة يدل كل حرف منها على
معنى

واختلف في ذلك فقيل الطاء شجرة طوبى والهاء النار الهاوية والعرب تعبر عن الشيء
كله

ببعضه كأنه أقسم بالجنة والنار. وقال سعيد بن جبير: الطاء افتتاح اسمه طاهر وطيب
والهاء

افتتاح اسمه هادي. وقيل " طاء " يا طامع الشفاعة للأمة " هاء " يا هادي الخلق إلى
الله (١).

وقيل: الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: يا
طاهرا

من الذنوب يا هادي الخلق إلى علام الغيوب. وقيل الطاء طبول الغزاة والهاء هيبتهم
في قلوب الكافرين. بيانه قوله تعالى: " سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب " (٢)
وقوله:

" وقذف في قلوبهم الرعب " (٣). وقيل: الطاء طرب أهل الجنة في الجنة والهاء هو
ان أهل النار

في النار. وقول سادس: إن معنى. " طه " طوبى لمن اهتدى قاله مجاهد ومحمد بن
الحنفية.

-
- (١) في الأصول جميعا: يا هادي الخلق إلى الملة.
(٢) راجع ج ٤ ص ٢٣٢ فما بعد.
(٣) راجع ج ١٨ ص ٣ فما بعد.

وقول سابع: إن معنى " طه " طأ الأرض وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى الترويح بين قدميه فقبل له: طأ الأرض أي لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح حكاه ابن الأنباري. وقد ذكر القاضي عياض في " الشفاء " أن الربيع بن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله تعالى: " طه " يعني طأ الأرض يا محمد. (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى). الزمخشري: وعن الحسن " طه " وفسر بأنه أمر بالوطين وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطاء الأرض بقدميه معا وأن الأصل طأ فقلبت همزته هاء كما قلبت [ألفا] (١) في (يطا) فيمن قال:
* لا هناك المرتع (٢) *
ثم بنى عليه هذا الأمر والهاء للسكت. وقال مجاهد: كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ثم نسخ ذلك بالفرض فنزلت هذه الآية. وقال الكلبي: لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة واشتدت عبادته، فجعل يصلي الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية فأمره الله تعالى أن يخفف عن نفسه فيصلّي وينام، فنسخت هذه الآية قيام الليل فكان بعد هذه الآية يصلي وينام. وقال مقاتل والضحاك: فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا فقال كفار قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فأنزل الله تعالى " طه " يقول:
يا رجل " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " أي لتتعب، على ما يأتي. وعلى هذا القول: إن " طه " [طاها أي] (٣) طأ الأرض فتكون الهاء والألف ضمير الأرض أي طأ الأرض برجليك في صلواتك وخففت الهمزة فصارت ألفا ساكنة. وقرأت طائفة: " طه " وأصله طأ بمعنى

(١) الزيادة من تفسير الزمخشري.

(٢) الشعر للفرزدق وتمام البيت:

راحت بمسلمة البغال عشية* فارعي فزارة لا هناك المرتع

قال هذا حين عزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق ووليها عمر بن هبيرة الفزاري فهجاهم الفرزدق ودعا لقومه

ألا يهنئوا النعمة بولايته. وأراد بغال البريد التي قدمت بمسلمة عند عزله. (شواهد سيبويه).

(٣) الزيادة من كتب التفسير.

طأ الأرض فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت: وقال زر بن حبیش: قرأ رجل على عبد الله بن مسعود " طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " فقال له عبد الله: " طه " فقال:

يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطأ الأرض برجليه أو بقدميه. فقال: " طه " كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأمال أبو عمرو وأبو إسحاق الهاء وفتحها الطاء. وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش. وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين واختاره أبو عبيد. الباقون بالتفخيم قال الثعلبي: وهي كلها لغات صحيحة فصيحة. النحاس:

لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين: إحداهما أنه ليس هاهنا ياء ولا كسرة فتكون

الإمالة والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة فهاتان علتان بينتان. قوله تعالى: " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " وقرئ. " ما نزل عليك القرآن لتشقى ". قال النحاس: بعض النحويين يقول هذه لام النفي وبعضهم يقول لام الجحود. وقال أبو جعفر: وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول: إنها لام الخفض والمعنى ما أنزلنا عليك

القرآن للشقاء. والشقاء يمد ويقصر. وهو من ذوات الواو. وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب. قال الشاعر:
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
فمعنى لتشقى: " لتتعب " بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى

" فلعلك باخع نفسك على آثارهم " (١) [الكهف: ٦] أي ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ولم يكتب عليك أن يؤمنوا

لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة. وروى أن أبا جهل [بن هشام] (٢) - لعنه

الله تعالى - والنضر بن الحرث قالاً للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك شقي لأنك تركت دين

آبائك فأريد رد ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في درك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها. وعلى الأقوال المتقدمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدت (٣) قدماه فقال له جبريل: أبق على نفسك فإن لها

عليك حقاً أي ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك في العبادة وتذيقها المشقة الفادحة

وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة.

-
- (١) راجع ج ١٠ ص ٣٥٣.
(٢) من ب و ج وط وز وك.
(٣) كذا في ب و ج وط وز وى.
أي تورمت كذا في أ.

قوله تعالى: (إلا تذكرة لمن يخشى) قال أبو إسحاق الزجاج: هو بدل من "تشقى" أي ما أنزلناه إلا تذكرة. النحاس: وهذا وجه بعيد وأنكره أبو علي من أجل أن التذكرة ليست بشقاء وإنما هو منصوب على المصدر أي أنزلنا لتذكر به تذكرة أو على المفعول

من أجله أي ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ما أنزلناه إلا للتذكرة. وقال الحسين بن الفضل: فيه

تقديم وتأخير مجازه: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى ولئلا تشقى. (تنزيلا)

مصدر أي نزلناه تنزيلا. وقيل: بدل من قوله "تذكرة". وقرأ أبو حياة الشامي: "تنزيل" بالرفع على معنى هذا تنزيل. (ممن خلق الأرض والسموات العلا) أي العالية الرفيعة

وهي جمع العليا كقوله: كبرى وصغرى وكبر وصغر أخبر عن عظمته وجبروته وجلاله ثم قال: (الرحمن على العرش استوى) ويجوز النصب على المدح. قال أبو إسحاق الخفض

على البدل. وقال سعيد بن مسعدة: الرفع بمعنى هو الرحمن. النحاس: يجوز الرفع بالابتداء

والخبر "له ما في السماوات وما في الأرض" فلا يوقف على "استوى" وعلى البدل من المضمرة

في "خلق" فيجوز الوقف على "استوى". وكذلك إذا كان خبر ابتداء محذوف ولا يوقف على "العلا". وقد تقدم القول في معنى الاستواء في "الأعراف" (١). والذي ذهب

إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستو على عرشه بغير حد ولا كيف كما يكون استواء المخلوقين. وقال ابن عباس يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة (له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) يريد ما تحت الصخرة التي

لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى. وقال محمد بن كعب يعني الأرض السابعة. ابن عباس (٢):

الأرض على نون والنون على البحر وأن طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي التي قال الله تعالى فيها "فتكن في صخرة

أو في السماوات أو في الأرض" والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت

الثرى إلا الله تعالى. وقال وهب بن منبه: على وجه الأرض سبعة أبحر والأرضون سبع

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ فما بعد.
(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواة غير ثقات
وقد تكلم العلماء في هذه الرواية وأمثالها.

بين كل أرضين بحر فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم ولولا عظمه وكثرة مائه
وبرده
لأحرق جهنم كل من عليها. قال: وجهنم على متن الريح ومتن الريح على حجاب من
الظلمة
لا يعلم عظمه (١) إلا الله تعالى وذلك الحجاب على الثرى وإلى الثرى انتهى علم
الخلايق.
قوله تعالى: (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) قال ابن عباس: السر ما حدث
به الانسان غيره في خفاء وأخفى منه ما أضمر في نفسه مما لم يحدث به غيره. وعنه
أيضا
السر حديث نفسك وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن أنت
تعلم
ما تسر به نفسك اليوم ولا تعلم ما تسر به غدا والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسره
غدا
والمعنى: الله يعلم السر وأخفى من السر وقال ابن عباس أيضا " السر " ما أسر ابن آدم
في نفسه " وأخفى " ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه فالله تعالى يعلم
ذلك كله
وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد وجميع الخلايق في علمه كنفس
واحدة
وقال قتادة وغيره: " السر " ما أضمره الانسان في نفسه " وأخفى " منه ما لم يكن ولا
أضمره
أحد. وقال ابن زيد: " السر " [سر] (٢) الخلايق " وأخفى " منه سره عز وجل وأنكر
ذلك
الطبري وقال إن الذي [هو] (٢) " أخفى " ما ليس في سر الانسان وسيكون في نفسه
كما قال
ابن عباس. (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) " الله " رفع بالابتداء أو على إضمار
مبتدأ أو على البدل من الضمير في " يعلم ". وحد نفسه سبحانه وذلك أن رسول الله
صلى الله
عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له فكبر ذلك عليهم
فلما سمعه
أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة: محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلهها آخر
وهو يدعو الله
والرحمن فأنزل الله تعالى: [" الرحمن على العرش استوى " وأنزل]: " قل ادعوا الله أو
ادعوا الرحمن

أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى " (٣) وهو واحد وأسماءه كثيرة ثم قال " الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ". وقد تقدم التنبيه عليها في سورة (الأعراف) (٤).

-
- (١) في ب و ج و ز و ط و ك و ي: غلظه.
(٢) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.
(٣) راجع ج ١٠ ص ٣٤٢.
(٤) راجع ج ٧ ص ٣٢٥ فما بعد.

قوله تعالى: وهل أتاك حديث موسى (٩) إذ رأى نارا فقال لأهله أمكثوا إني آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى (١٠) فلما أتاها نودي يا موسى (١١) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري (١٤) إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى (١٦)

قوله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى) قال أهل المعاني: هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه، أليس قد أتاك؟ وقيل: معناه وقد أتاك، قاله ابن عباس. وقال الكلبي: لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره. (إذ رأى نارا فقال لأهله أمكثوا إني آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الاجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا: يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه، لئلا يروا امرأته فأخطأ الرفقة - لما سبق في علم الله تعالى - وكانت ليلة مظلمة. وقال مقاتل: وكان ليلة

الجمعة في الشتاء. وهب بن منبه: استأذن موسى شعبيا في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج

بأهله وغنمه، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدم موسى النار فلم تور (١) المقدحة شيئا، إذ بصر بنار من بعيد على يسار

الطريق " فقال لأهله أمكثوا " أي أقيموا بمكانكم. " إني آنست نارا " أي أبصرت. قال ابن عباس فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عناب، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة حضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن حضرة الشجرة، ولا كثرة

(١) في ي: توره.

ماء الشجرة ولا نعمة الخضره تغيران حسن ضوء النار. وذكر المهدوي: فرأى النار -
فيما روى -

وهي في شجرة من العليق، فقصدتها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس في نفسه خيفة، ثم
دنت

منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة. الماوردي: كانت عند موسى نارا: وكانت عند
الله تعالى نورا. وقرأ حمزة " لأهله امكثوا " بضم الهاء، وكذا في " القصص " (١).
قال

النحاس هذا على لغة من قال: مررت بهو يا رجل، فجاء به على الأصل، وهو جائز إلا
أن

حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة. وقال: " امكثوا " ولم يقل أقيموا، لان
الإقامة

تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك. و " آنت " أبصرت، قاله ابن الأعرابي. ومنه
قوله: " فإن آنتم منهم رشدا " (٢) [النساء: ٦] أي علمتم. وآنت الصوت سمعته،
والقبس شعلة من

نار، وكذلك المقياس. يقال: قبست منه نارا أقبس قبسا فأقبسني أي أعطاني منه قبسا،
وكذلك اقبست منه نارا واقتبست منه علما أيضا أي استفدته، قال اليزيدي: أقبست
الرجل علما وقبسته نارا، فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته. وقال الكسائي: أقبسته نارا
أو علما سواء. وقال: وقبسته أيضا فيهما. " هدى " أي هاديا.

قوله تعالى: (فلما أتاهما) يعني النار (نودي) أي من الشجرة كما في سورة " القصص " " أي من جهتها وناحيتها على ما يأتي: (يا موسى إني أنا ربك).

قوله تعالى: (فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى) فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: " فاخلع نعليك " روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال: (كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف
وكمة

صوف وسراويل صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت) قال: هذا حديث غريب لا
نعرفه

إلا من حديث حميد الأعرج [حميد - هو ابن علي الكوفي (٣) -] منكر الحديث،
وحميد

ابن قيس الأعرج المكي صاحب مجاهد ثقة، والكمة القلنسوة الصغيرة. وقرأ العامة " ^{إني}

بالكسر، أي نودي فليل له يا موسى إني، واختاره أبو عبيد. وقرأ أبو عمرو وابن كثير

- (١) راجع ج ١٣ ص ٢٨٠.
(٢) راجع ج ٥ ص ٣٣ فما بعد.
(٣) الزيادة من الترمذي.

وابن محيـصن وحميد " أني " بفتح الألف بإعمال النداء. واختلف العلماء في السبب الذي

من أجله أمر بنخلع النعلين. والنخلع النزاع. والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض. فـقيل: أمر بطرح النعلين، لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مذكى، قاله كعب وعكرمة وقتادة. وقيل: أمر بذلك لينال بركة الوادي المقدس، وتمس قدماه تربة الوادي، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جريح. وقيل: أمر بنخلع النعلين للخشوع

والتواضع عند مناجاة الله تعالى. وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت. وقيل: إعظاماً لذلك الموضوع كما أن الحرم لا يدخل بنعلين إعظاماً له. قال سعيد بن جبير: قيل له طأ الأرض حافياً كما تدخل الكعبة حافياً. والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان

إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه، ولا تبالي كانت نعلاه

من مينة أو غيرها. وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على

الأعظم الشريفة، والجنّة الكريمة. ومن هذا المعنى قول عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخصاصية وهو يمشي بين القبور بنعليه: (إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك) قال:

فخلعتهما. وقول خامس: إن ذلك عبارة عن تفرغ قلبه من أمر الأهل والولد. وقد يعبر عن الأهل بالنعل. وكذلك هو في التعبير: (١) من رأى أنه لا بس نعلين فإنه يتزوج. وقيل:

لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى، ولا ينبغي أن يطاء [على] (٢) بساط رب العالمين بنعله.

وقد يحتمل أن يكون موسى أمر بنخلع نعليه، وكان ذلك أول فرض عليه، كما كان أول ما قيل

لمحمد صلى الله عليه وسلم: (قم فأندر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر) (٣) [المدثر: ٢ - ٣ - ٤ - ٥] والله أعلم

بالمراد من ذلك.

الثانية - في الخبر أن موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي. وقال أبو الأحوص: زار عبد الله أبا موسى في داره، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى، فقال أبو موسى لعبد الله: تقدم. فقال عبد الله: تقدم أنت في دارك. فتقدم وخلع (٤) نعليه، فقال عبد الله: أبا الوادي المقدس أنت؟! وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال: قلت

-
- (١) قوله في التعبير: يعنى تعبير الرؤيا.
(٢) من ب و ج و ز و ط وى.
(٣) راجع ج ١٩
ص ٥٨ فما بعد.
(٤) في ب و ج و ز و ط: نزع.

لانس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في نعلين قال: نعم. ورواه النسائي عن عبد الله

ابن السائب: أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه

وسلم يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم،

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: (ما حملكم على إلقاءكم نعالكم) قالوا:

رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن جبريل أتاني

فأخبرني أن فيهما قدرا) وقال: (إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قدرا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما). صححه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله،

ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرة من

ذكي، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: "خذوا زينتكم عند كل مسجد" (١) [الأعراف: ٣١] على ما تقدم. وقال إبراهيم النخعي في الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجا جاء فأخذها.

الثالثة - فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك، فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه). وقال أبو هريرة للمقبري: أخلعهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما. وما رواه عبد الله بن السائب رضي الله عنه أنه عليه

الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماما، فإن كنت إماما أو وحدك فافعل ذلك

إن أحببت، وإن كنت مأموما في الصف فلا تؤذ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلك، ولكن قدام قدميك. وروي عن جبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة - فإن تحقق فيهما نجاسة مجمع على تنجيسها كالدم والعدرة من بول (٢) بني آدم

لم يطهرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفا

فيها كبول الدواب وأورائها الرطبة فهل يطهرها المسح بالتراب من النعل والخف أو لا؟
قولان عندنا. وأطلق الاجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعي وأبو ثور.
وقال

(١) راجع ج ٧ ص ١٨٨ فما بعد.
(٢) في ك: من قبل.

أبو حنيفة: يزيله إذا ببس الحك والفرك، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ما عدا البول فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل. وقال الشافعي: لا يطهر شيئاً من ذلك كله إلا الماء. والصحيح قول من قال: إن المسح يطهره من الخف والنعل، لحديث أبي سعيد. فأما لو كانت النعل والخف من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق، ما عدا ما ذهب إليه الزهري والليث، على ما تقدم بيانه في سورة "النحل" (١). ومضى في سورة "براءة" (٢) القول في إزاله النجاسة والحمد لله.

الخامسة - قوله تعالى: (إنك بالوادي المقدس طوى) المقدس: المطهر. والقدس: الطهارة، والأرض المقدسة أي المطهرة، سميت بذلك لان الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين. وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض، وبعض الحيوان كذلك. ولله أن يفضل ما شاء. وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدساً بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين، فقد شاركه في ذلك غيره. و (طوى) اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وقال الضحاك: هو واد عميق مستدير مثل الطوى. وقرأ عكرمة: "طوى". الباقر "طوى". قال الجوهري: "طوى" اسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة.

وقال بعضهم: "طوى" مثل "طوى" وهو الشيء المشنى، وقالوا في قوله: "المقدس طوى":

طوي مرتين أي قدس. وقال الحسن: ثبت فيه البركة والتقديس مرتين. وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له: "طوى" لان موسى طواه بالليل إذ مر به فارتفع إلى أعلى الوادي، فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال: (إنك بالوادي المقدس) الذي طويته طوى، أي تجاوزته فطويته بسيرك. الحسن: معناه أنه قدس مرتين، فهو مصدر من طويته طوى أيضاً.

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥٦ فما بعد.

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٦٢ فما بعد.



(۱۷۰)

قوله تعالى: (وأنا اخترتك) أي اصطفتك للرسالة. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائي "وأنا اخترتك". وقرأ حمزة "وأنا اخترناك". والمعنى واحد إلا أن "وأنا اخترتك" ها هنا أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى

بنسق

الكلام، لقوله عز وجل: "يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك" وعلى هذا النسق جرت المخاطبة، قاله النحاس.

قوله تعالى: (فاستمع لما يوحي) فيه مسألة واحدة - قال ابن عطية: وحدثني أبي - رحمه الله - قال سمعت أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى يقول: لما قيل

لموسى

صلوات الله وسلامه عليه: "استمع لما يوحي" وقف على حجر، واستند إلى حجر،

ووضع

يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفاً. قلت: حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال: "الذين يستمعون القول

فيتبعون

أحسنه أولئك الذين هداهم (١) الله" [الزمر: ١٨] واذم على خلاف هذا الوصف فقال: "نحن أعلم بما يستمعون

به" (٢) الآية. فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم،

فقال: "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون" (٣) [الأعراف: ٢٠٤] وقال ها هنا: "فاستمع لما

يوحي" لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى. روى عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح وغيض البصر، والاصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم

على

العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها.

فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه

بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم. وقال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى

كتاب

الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما

يحب، وجعل

له في قلبه نورا.

-
- (١) راجع ج ١٥ ص ٢٤٣ فما بعد.
(٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧٢.
(٣) راجع ج ٧ ص ٣٥٣.

قوله تعالى: (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) فيه سبع مسائل: الأولى - اختلف في تأويل قوله: " لذكري " فقيل: يحتمل أن يريد لتذكرني فيها، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى

المفعول. وقيل: المعنى، أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة

إذ هي تضرع إلى الله تعالى، وقيام بين يديه، وعلى هذا فالصلاة هي الذكر. وقد سمي الله

تعالى الصلاة ذكرا في قوله: " فاسعوا إلى ذكر الله " (١) [الجمعة: ٩]. وقيل: المراد إذا نسيت فتذكرت

فصل كما في الخبر (فليصلها إذا ذكرها). أي لا تسقط الصلاة بالنسيان.

الثانية - روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول (أقم الصلاة لذكري)). وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج (٢) - وهو حجاج الأول الذي روى عنه

يزيد بن زريع - قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك [رضي الله عنه (٣)] قال: سئل رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال: (كفارتها أن يصلها إذا

ذكرها) تابعه إبراهيم بن طهمان عن حجاج، وكذا يروي همام بن يحيى عن قتادة. وروى

الدارقطني عن أبي هريرة [رضي الله عنه (٣)] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من نسي صلاة

فوقتها إذا ذكرها) فقوله: (فليصلها إذا ذكرها) دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل،

كثرت الصلاة أو قلت، وهو مذهب عامة العلماء وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به، لأنه

مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء. قلت: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال: " أقم الصلاة لدلوك الشمس " (٤) الآية وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس

لم يكن فعله مطابقا لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاص، وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قوله عليه الصلاة والسلام: (من نام عن صلاة

أو نسيها فليصلها إذا ذكرها) لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار
كان
قضاء لا أداء، لان القضاء بأمر متجدد وليس بالامر الأول.

(١) راجع ج ١٨ ص ٩٧ فما بعد.

(٢) في ج وط وك وى. ابن أبي الحجاج وما أثبتناه في الأصل
هو ما عليه التهذيب.

(٣) من ج وك.

(٤) راجع ج ١٠ ص ٣٠٢ فما بعد.

الثالثة - فأما من ترك الصلاة متعمدا، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصيا إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي، حكاه عنه ابن القصار.

والفرق بين المتعمد والناسي والنائم، حط المأثم، فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة

للجمهور قوله تعالى: " أقيموا الصلاة " (١) [الانعام: ٧٢] ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. هو

أمر يقتضي الوجوب. وأيضا فقد ثبت الامر بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مأثومين،

فالعامة أولى. وأيضا قوله: (من نام عن صلاة أو نسيها) والنسيان الترك، قال الله تعالى:

" نسوا الله فنسيهم " (٢) [التوبة: ٦٧] و " نسوا الله فأنساهم أنفسهم " (٣) [الحشر:

١٩] سواء كان مع ذهول أو لم يكن، لان

الله تعالى لا ينسى. وإنما معناه تركهم. و " ما ننسخ من آية أو ننسأها " (٤) [البقرة:

١٠٦] أي نتركها. وكذلك

الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي "

وهو تعالى لا ينسى [فيكون ذكره بعد نسيان (٥)] وإنما معناه علمت. فكذلك يكون معنى قوله:

(إذا ذكرها) أي علمها. وأيضا فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت، ثم جاء

الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يسقطها الإبراء كان في ديون الله تعالى ألا يصح

فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه. وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة. فان قيل فقد روى عن مالك:

من ترك الصلاة متعمدا لا يقضي أبدا. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلاما خرج

على التغليظ، كما روي عن ابن مسعود وعلي: أن من أفطر في رمضان عامدا لم يكفره صيام

الدهر وإن صامه. ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء. وقد روى أبو المطوس عن أبيه عن أبي

هريرة

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر

وإن صامه) وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ، وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود.

وقد جاءت الكفارة بأحاديث (٦) صحاح، وفي بعضها قضاء اليوم، والحمد لله تعالى. الرابعة - قوله عليه الصلاة والسلام: (من نام عن صلاة أو نسيها) الحديث يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام: (رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ)

(١) راجع ج ١ ص ٣٤٤ فما بعد.

(٢) راجع ج ٨ ص ١٩٩ فما بعد.

(٣) راجع ج ١٨ ص ٤٣.

(٤) راجع ج ٢ ص ٦١.

(٥) من ج وك وط وي.

(٦) في ب وز وك: بأسانيد.

والمراد بالرفع هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: (وعن الصبي حتى يحتلم) وإن كان ذلك جاء في أثر واحد، فقف على هذا الأصل.

الخامسة - اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائنة وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو في صلاة، فجملة مذهب مالك: أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتالي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتالي حضر وقتها، وعلى نحو هذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث، إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا: الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائنة ولصلاة الوقت. فإن خشى فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يوجب الترتيب عندهم. وقد روى عن الثوري وجوب الترتيب، ولم يفرق بين القليل والكثير. وهو تحصيل مذهب الشافعي. قال الشافعي: الاختيار أن يبدأ بالفائنة ما لم يخف فوات هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزاءه. وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر. وقال: لا ينبغي لاحد أن يصلي صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه. وروى الدارقطني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام: (إذا ذكر أحدكم صلاة وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتالي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي) وعمر بن أبي عمر مجهول (١).

قلت: وهذا لو صح كانت حجة للشافعي في البداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله: أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله والله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فوالله إن صليتها) (٢) فنزلنا البطحان (٣) فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها

(١) عمر بن أبي عمر: هو أحد رواة هذا الحديث عن مكحول عن ابن عباس. ولفظ الحديث في الدارقطني هكذا:

(إذا نس أحدكم الصلاة فذكرها وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي) كذا في ب وز وك.

(٢) إن نافية أي ما صليتها.

(٣) بطحان (بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء): موضع بالمدينة.

المغرب. وهذا نص في البداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيق غير ممتد في الأشهر عندنا، وعند الشافعي كما تقدم. وروى الترمذي عن أبي عبيدة بن عبد الله

ابن مسعود عن أبيه: أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى، فأمر بالاذان بلالا فقام فأذن، ثم أقام فصلى

الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء. وبهذا أستدل العلماء على أن من فاتته صلوات، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها في وقت واحد. واختلفوا

إذا ذكر فائتة في مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال: يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة، وبه قال مالك والليث والزهري وغيرهم كما قدمناه. الثاني - يبدأ بالحاضرة وبه

قال الحسن والشافعي وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا. الثالث -

يتخير فيقدم أيتهما شاء، وبه قال أشهب.

وجه الأول: كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة، قاله القاضي عياض. واختلفوا في مقدار اليسير، فعن مالك: الخمس فدون، وقد قيل: الأربع فدون لحديث جابر، ولم يختلف المذهب أن الست كثير.

السادسة - وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة، فإن كان وراء الامام فكل من قال بوجود الترتيب ومن لم يقل به [يقول (١)]، يتمادى مع الامام حتى يكمل صلاته. والأصل في هذا

ما رواه مالك والدارقطني عن ابن عمر قال: (إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو

مع الامام فليصل مع الامام فإذا فرغ من صلاته فليصل الصلاة التي نسي ثم ليعد صلاته التي

صلى مع الامام) لفظ الدارقطني، وقال موسى بن هارون: وحدثناه أبو إبراهيم الترمذي،

قال: حدثنا سعيد [به] (٢) ورفعته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ووهب في رفعه، فإن كان قد رجع

عن رفعه فقد وفق للصواب. ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يصلى التي

ذكر، ثم يصلي التي صلى مع الامام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات، على ما قدمنا
ذكره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين. وذكر الخرقى
(٣) عن

-
- (١) في ك وط وى.
(٢) الزيادة من الدارقطني.
(٣) هذه النسبة إلى بيع الخرق والثياب.

أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتمها ويقضي المذكورة، وأعاد

التي كان فيها إذا كان الوقت واسعا فإن خشى خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألا يعيدها،

وقد أجزأته ويقضي التي عليه. وقال مالك: من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين سلم من ركعتين، فإن كان إماما انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك، لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلم. ولو ذكرها في صلاة قد

صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو انهدمت عليه

كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضيف إليها أخرى.

السابعة - روى مسلم عن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث الميضأة بطوله، وقال فيه ثم قال: (أما لكم في أسوة) ثم قال: (أما إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى

فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها) وأخرجه الدارقطني

هكذا بلفظ مسلم سواء، فظاهره يقتضي إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها

من الوقت الآتي، ويعضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين، وذكر القصة وقال في آخرها: (فمن أدرك منكم صلاة الغداة من غد صالحا فليقض معها مثلها).

قلت: وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة، لما رواه الدارقطني عن عمران ابن حصين قال: سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة - أو قال في سرية

فلما كان وقت السحر عرسنا، فما استيقظنا حتى أيقظنا حر الشمس، فجعل الرجل منا يشب

فزعا دهشا، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعت

الشمس، فقضى القوم حوائجهم، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة، فقلنا: يا نبي الله ألا نقضيها لوقتها من الغد؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم
(أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم). وقال الخطابي: لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا،
ويشبهه

أن يكون الامر به استحبابا ليحرز فضيلة الوقت في القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه

السلام: (أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم) ولأن الطرق الصحاح من حديث عمران بن حصين ليس فيها من تلك الزيادة شئ، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو محتمل كما بيناه. قلت: ذكر الكيا الطبري في [أحكام القرآن] له أن من السلف من خالف قوله عليه

الصلاة والسلام: (من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك) فقال: يصبر إلى مثل وقته فليصل، فإذا فات الصبح فليصل من الغد. وهذا قول بعيد شاذ. قوله تعالى: (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) آية مشكلة، فروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ "أكاد أخفيها" بفتح الهمزة، قال: أظهرها. "لتجزى"

أي الاظهار للجزاء، رواه أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد

ابن جبير. وقال النحاس: وليس لهذه الرواية طريق غير هذا. قلت: وكذا رواه أبو بكر الأنباري في كتاب الرد، حدثني أبي حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائي، ح - وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف حدثنا يحيى

الحماني حدثنا محمد بن سهل. قال النحاس، وأجود من هذا الاسناد ما رواه يحيى القطان

عن الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ: "أكاد أخفيها" بضم الهمزة.

قلت: وأما قراءة ابن جبير "أخفيها" بفتح الهمزة بالاسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري قال الفراء: معناه أظهرها من خفيت الشئ أخفيه إذ أظهرته. وأنشد الفراء لامرئ القيس:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه * وإن تبعثوا الحرب لا نقعد
أراد لا نظهره، وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون "أخفيها" بضم الهمزة معناه أظهرها

لأنه يقال: خفيت الشئ وأخفيته إذا أظهرته، فأخفيته من حروف الأضداد يقع على

الستر والاظهار. وقال أبو عبيدة: خفيت وأخفيت بمعنى واحد، النحاس: وهذا حسن، وقد

حكاه عن أبي الخطاب (١) وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك في صدقه، وقد روى عنه

سيبويه وأنشد:

وإن تكتموا الداء لا نخفه * وإن تبعثوا الحرب لا نقعد
كذا رواه أبو عبيدة عن أبي الخطاب بضم النون. وقال أمرؤ القيس أيضا:
خفاهن من أنفاقهن كأنما * خفاهن ودق من عشي مجلب (٢)
أي أظهرهن. وروى: " من سحب مركب " بدل " من عشي مجلب ". وقال أبو بكر
الأنباري: وتفسير للآية آخر: " إن الساعة آتية أكاد " انقطع الكلام على " أكاد " وبعده
مضمرة أكاد آتية بها، والابتداء " أخفيها لتجزى كل نفس " قال ضابئ البرجمي: (٣)
هممت ولم أفعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله
أراد وكدت أفعل، فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمرة معه في القرآن.
قلت: هذا الذي اختاره النحاس، وزيف القول الذي قبله فقال يقال: خفى الشيء
يخفيه إذا أظهره، وقد حكى أنه يقال: أخفاه أيضا إذا أظهره، وليس بالمعروف، قال:
وقد رأيت علي بن سليمان لما أشكل عليه معنى " أخفيها " عدل إلى هذا القول، وقال:
معناه كمعنى " أخفيها ". قال النحاس: ليس المعنى على أظهر ولا سيما و " أخفيها "

قراءة

شاذة، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشاذة إلى الشاذة، ومعنى المضمرة أولى، ويكون
التقدير: إن الساعة آتية أكاد آتية بها، ودل: " آتية " على آتية بها، ثم قال: " أخفيها "

على

الابتداء. وهذا معنى صحيح، لان الله عز وجل قد أخفى الساعة التي هي القيامة،
والساعة

التي يموت فيها الانسان ليكون الانسان يعمل، والامر عنده مبهم فلا يؤخر التوبة.

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد.

(٢) خفاهن: أظهرهن. والانفاق:

(جمع نفق): وهو الحجر. والودق: المطر. والمجلب: الذي له جلبة. وقبله:

ترى الغار في مستيف القاع لاحبا * على جدد الصحراء من شد ملهب

يقول: وقع حوافر الفرس على الأرض أخرج الفأر من حجرتها لأنه ظنه مطرا.

(٣) قاله وهو محبوب حبه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه لهجائه بعض بني جرول بن نهشل ولم يزل
في حبسه إلى أن مات.

قلت: وعلى هذا القول تكون اللام في " لتجزى " متعلقة ب " - أخفيها ". وقال أبو علي:

هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، ومعنى " أخفيها " أزيل عنها خفاءها، وهو سترها كخفاء الألفية [وهي الأكسية] (١) والواحد خفاء بكسر الخاء [ما تلف به] (١) القربة،

وإذا زال عنها سترها ظهرت. ومن هذا قولهم: أشكيتهم، أي أزلت شكواهم، وأعديته أي قبلت

استعداءه ولم أحوجه إلى إعادته. وحكى أبو حاتم عن الأخصش: أن " كاد " زائدة مؤكدة.

قال: ومثله " إذا أخرج يده لم يكذبها " (٢) [النور: ٤٠] لان الظلمات التي ذكرها الله تعالى بعضها يحول

بين الناظر والمنظور إليه. وروى معناه عن ابن جبير، والتقدير: إن الساعة آتية أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. وقال الشاعر: (٣)

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه * فما إن يكاد قرنه يتنفس
أراد فما يتنفس. وقال آخر:

وألا ألوم النفس فيما أصابني * وألا أكاد بالذي نلت أنجح
معناه: وألا أنجح بالذي نلت، فأكاد توکید للكلام. وقيل: المعنى " أكاد أخفيها " أي أقارب ذلك، لأنك إذا قلت: كاد زيد يقوم، جاز أن يكون قام، وأن يكون لم يقوم. ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب. قال اللغويون: كدت أفعل معناه

عند العرب: قاربت الفعل ولم أفعل، وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاء. وشاهده قول الله

عزت عظمتها: " فذبحوها وما كادوا يفعلون " (٤) [البقرة: ٧١] معناه: وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة

عليهم. وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد. وقيل:

معنى. " أكاد أخفيها " أريد أخفيها. قال الأنباري: وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر: كادت وكدت وتلك خير إرادة * لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

معناه: أرادت وأردت. وقال ابن عباس وأكثر المفسرين فيما ذكره الثعلبي: إن المعنى أكاد أخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أبي. وفي مصحف ابن مسعود: أكاد

(١) من ك وز.

(٢) راجع ج ١٢ ص ٢٨٣ فما بعد.

(٣) هو زيد الخيل.
(٤) راجع ج ١ ص ٤٥٢ فما بعد.

أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق. وفي بعض القراءات: فكيف أظهرها لكم. وهذا محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العرب في كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء قال: كدت أخفيه من نفسي. والله تعالى لا يخفي عليه شيء، قال معناه قطرب وغيره. [والله أعلم] (١) وقال الشاعر:

أيام تصحبني هند وأخبرها * ما أكتم النفس من حاجي وأسراري
فكيف يخبرها بما تكتم نفسه. ومن هذا [الباب] (١) قوله صلى الله عليه وسلم: (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) الزمخشري وقيل معناه: أكاد أخفيها من نفسي، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مطرح، والذي غرهم منه أن في مصحف أبي: أكاد أخفيها من نفسي، وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها.

قلت: وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسي، أي إن إخفاءها كان من قبلي ومن عندي لا من قبل غيري. وروى عن ابن عباس أيضا: أكاد أخفيها من نفسي، ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا أظهر عليها أحدا. وروى عن سعيد بن جبير قال: قد أخفاها. وهذا على أن كاد زائدة. أي إن الساعة آتية أخفيها، والفائدة في إخفائها التخويف والتهويل. وقيل: تعلق "لتجزى" بقول تعالى: (وأقم الصلاة) فيكون في الكلام تقديم وتأخير، أي أقم الصلاة لتذكرني (لتجزى كل نفس بما تسعى) أي بسعيها. (إن الساعة آتية أكاد أخفيها). والله أعلم. وقيل: هي متعلقة بقوله: (آتية) أي إن الساعة آتية لتجزى (فلا يصدنك عنها) أي لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصديق لها. (من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) أي فتهلك. وهو في موضع نصب بجواب النهي.

قوله تعالى: وما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هي عصاي أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مأرب أخرى (١٨)

(١) من ج و ط و ك و ي.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (وما تلك بيمينك) قيل: كان هذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا، لأنه قال: (فاستمع لما يوحى) ولا بد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة

نبوة نفسه، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك. ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة

آية كافية له في نفسه، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد، وبرهانا يلقي به قومه. واختلف

في " ما " في قوله: (وما تلك) فقال الزجاج والفراء: هي اسم ناقص وصلت ب " - يمينك "

أي ما التي بيمينك؟ وقال الفراء أيضا: " تلك " بمعنى هذه، ولو قال: ما ذلك لجاز، أي ما ذلك

الشيء: ومقصود السؤال تقرير الامر حتى يقول موسى: هي عصاي، لتثبت الحجة عليه بعد

ما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل. وقال ابن الجوهري وفي بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقيل له: ألقها لترى

منها العجب فتعلم أنه لا ملك عليها ولا تنضاف إليك. وقرأ ابن إسحاق: " عصي " على

لغة هذيل، ومثله " يا بشرى " (١) و " محيي " (٢) وقد تقدم. وقرأ الحسن: " عصاي " بكسر الياء لالتقاء

الساكنين. ومثل هذا قراءة حمزة: " وما أنتم بمصرخي " (٣) [إبراهيم: ٢٢]. وعن ابن أبي إسحاق سكون الياء.

الثانية - في هذه الآية دليل على جواب السؤال (٤) بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: " وما تلك بيمينك يا موسى " ذكر معاني أربعة: وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا، والتوكؤ، والهش والمآرب المطلقة. فذكر موسى من منافع عصاه عظمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك. وفي الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال:

(هو الطهور ماؤه الحل ميتته). وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال (نعم ولك أجر). ومثله في الحديث كثير.

الثالثة - قوله تعالى: (أتوكأ عليها) أي أتحمّل عليها في المشي والوقوف، ومنه الاتكاء (وأهش بها) " وأهش " أيضا، ذكره النحاس. وهي قراءة النخعي (٥)، أي أخطب بها

-
- (١) راجع ج ٩ ص ١٥٢ وص ٣٥٧.
(٢) راجع ج ٧ ص ١٥٢.
(٣) راجع ج ٩
ص ٣٥٧.
(٤) في ج وط وك وى: المسؤول.
(٥) وروى عن النخعي أيضا أنه قرأ: (وأهش)
بضم الهمزة والشين من (أهش) رباعيا.

الورق، أي أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمي تناوله فتأكله.
قال الراجز:

أهش بالعصا على أغنامي * من ناعم الأراك والبشام
يقال: هش على غنمه يهش بضم الهاء في المستقبل. وهش إلى الرجل يهش بالفتح.
وكذلك

هش للمعروف يهش وهششت أنا: وفي حديث عمر: هششت يوماً فقبلت وأنا صائم.
قال شمر: أي فرحت واشتهيت. قال: ويجوز هاش بمعنى هش. قال الراعي:
فكبر للرؤيا وهاش فؤاده * وبشر نفسا كان قبل يلومها
أي طرب. والأصل في الكلمة الرخاوة. يقال رجل هش وزوج هش. وقرأ عكرمة:
" وأهس " بالسین غير معجمة، قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: معناهما مختلف،
فالهش بالاعجام خبط الشجر، والهس بغير إعجام زجر الغنم، ذكره الماوردي،
وكذلك ذكر
الزمخشري. وعن عكرمة: " وأهس " بالسین أي أنحي عليها زاجرا لها والهس زجر
الغنم.

الرابعة - قوله تعالى: (ولى فيها مآرب أخرى) أي حوائج. واحدها مأربة ومأربة
ومأربة. وقال: " أخرى " على صيغة الواحد، لان مآرب في معنى الجماعة، لكن المهيح
(١)

في توابع جمع ما لا يعقل الافراد والكناية عنه بذلك، فإن ذلك يجري مجرى الواحدة
المؤنثة، كقوله تعالى " ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها " (٢) [الأعراف: ١٨٠]
وكقوله: " يا جبال أوبي معه " (٣) [سبأ: ١٠]
وقد تقدم هذا في " الأعراف " (٢).

الخامسة - تعرض قوم لتعدد منافع العصا منهم ابن عباس، قال: إذا انتهت
إلى رأس بئر فقصر الرشا وصلته بالعصا، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض
وألقيت عليها ما يظلني، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلتها بها، وإذا مشيت ألقىتها
على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخللة، وأقاتل بها السباع عن الغنم.

(١) المهيح: الطريق الواضح الواسع البين.

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٢٥ وص ٣٢٧ فما بعد.

(٣) راجع ج ١٤ ص ٢٦٤ فما بعد.

وروى عنه ميمون بن مهران قال: إمساك العصا سنة للأنبياء، وعلامة للمؤمن. وقال الحسن

البصري: فيها ست خصال، سنة للأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغم المنافقين، وزيادة في الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوة إذا أعبأ. ولقي الحجاج أعرابيا فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي (١)، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري،

وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني من العثر، وألقي عليها كسائي

فيقيني الحر، ويدفئني من القر، وتدني إلي ما بعد مني، وهي محمل سفرتي، وعلاقة إداوتي،

أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرمح

في الطعان، وعن السيف عند منازلة الاقران، ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهش

بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى.

قلت: منافع العصا كثيرة، ولها مدخل في مواضع من الشريعة: منها أنها تتخذ قبلة في الصحراء، وقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام عنزة (٢) تركز له فيصلي إليها، وكان إذا خرج

يوم العيد أم بالحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها، وذلك ثابت في الصحيح. والحربة والعنزة والنيزك والآلة أسماء لمسمى واحد. وكان له محجن وهو عصا معوجة الطرف يشير به

إلى الحجر إذا لم يستطع أن يقبله، ثابت في الصحيح أيضا. وفي الموطأ عن السائب بن يزيد

أنه قال: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبي بن كعب وتميما الداري أن يقوموا للناس

بإحدى عشرة ركعة، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام،

وما كنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر. وفي الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام كان له منحصرة (٣). والاجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكئا على سيف أو عصا،

فالعصا

مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل. وقد جمع الله لموسى

-
- (١) في ج: لصلواتي.
(٢) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً وفيها سنان مثل سنان الرمح.
(٣) المنحصرة بالخاء المعجمة والصاد المهملة: ما يختصره الانسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو
مقرعة
أو قضيب وقد يتكئ عليه. النهاية.

في عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون. واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته. وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه

وسلم وعزته، وكان يخطب بالقضيب - وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا - وعلى

ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ

المحصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب. وأنكرت الشعوبية على خطباء

العرب أخذ المحصورة والإشارة بها إلى المعاني. والشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم. قال مالك:

كان عطاء بن السائب يمسك المحصورة يستعين بها. قال مالك: والرجل إذا كبر لم يكن مثل

الشباب يقوى بها عند قيامه.

قلت: وفي مشيئه كما قال بعضهم:

قد كنت أمشي على رجلين معتمدا * فصرت أمشي على أخرى من الخشب
قال مالك رحمه الله ورضي عنه: وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصي يتوكلون عليها،

حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليه

حتى يقوم. ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم، ويصلح حاله وحالهم معه.

ومنه قوله عليه السلام: (وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه) (١) في إحدى الروايات.

وقد روي عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه: (لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم في الله)

رواه عبادة بن الصامت، خرجه النسائي. ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: (علق)

سوطك حيث يراه أهلك) وقد تقدم هذا في "النساء" (٢). ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من

هذه الدار، كما قيل لبعض الزهاد: مالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض؟ قال:

إني أعلم أنني مسافر، وأنها دار قلعة، وأن العصا من آلة السفر، فأخذه بعض الشعراء

فقال:

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها * علي ولا أني تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها * لأعلمها أن المقيم على سفر

(١) هذا من حديث فاطمة بنت قيس حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أبا جهم بن
حذيفة

ومعاوية بن أبي سفيان خطباها فقال: (أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء وأما معاوية فصعلوك لا
مال له)
الترمذي.

(٢) راجع ج ٥ ص ١٧٤.

قوله تعالى: قال ألقها يا موسى (١٩) فألقاها فإذا هي حية تسعى (٢٠)
قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (٢١) واضمم يدك إلى جناحك
تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى (٢٣)
قوله تعالى: (قال ألقها يا موسى): لما أراد الله تعالى أن يدربه في تلقي النبوة
وتكاليدها أمره بإلقاء العصا، " فألقاها " موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها. وكانت
عصا

ذات شعبتين فصارت الشعبتان لها فما وصارت حية تسعى أي تنتقل، وتمشي وتلتقم
الحجارة فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة ف " - ولي مدبرا ولم يعقب " (١)
[النمل: ١٠]. فقال الله له:

" خذها ولا تخف " وذلك أنه " أوجس في نفسه خيفة " [طه: ٦٧] أي لحقه ما يلحق
البشر. وروي
أن موسى تناولها بكمي جبته فنهى عن ذلك، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت
أول مرة

وهي سيرتها الأولى، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفرغ منها إذا ألقاها عند فرعون.
ويقال:

إن العصا بعد ذلك كانت تماشيته وتحادثه ويعلق عليها أحماله، وتضيء له الشعبتان
بالليل

كالشمع، وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشعبتان كالدلو وإذا انتهى ثمرة ركزها في الأرض
فأثمرت تلك الثمرة. وقيل: إنها كانت من آس الجنة. وقيل: أتاه جبريل بها. وقيل:
ملك. وقيل قال له شعيب: خذ عصا من ذلك البيت فوقع بيده تلك العصا، وكانت
عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: " فإذا هي حية تسعى " النحاس: ويجوز " حية " يقال: خرجت فإذا زيد
جالس وجالسا. والوقف " حيه " بالهاء. والسعي المشي بسرعة وخفة. وعن ابن عباس:
انقلبت ثعبانا ذكرا يتلع الصخر والشجر، فلما رآه يتلع كل شيء خافه ونفر منه. وعن
بعضهم،

إنما خاف منه لأنه عرف ما لقي آدم منها. وقيل لما قال له ربه: " لا تخف " بلغ من
ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها. " سنعيدها سيرتها
الأولى "

سمعت علي بن سليمان يقول: التقدير إلى سيرتها، مثل " واختار موسى قومه " (٢)
[الأعراف: ١٥٥] قال: ويجوز

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٨٣.

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٩٣ فما بعد.



(۱۹۰)

قوله تعالى: (واضمم يدك إلى جناحك) يجوز في غير القرآن ضم بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين، والفتح أجود لخفته، والكسر على الأصل. ويجوز الضم على الاتباع. ويد أصلها يدي على فعل، يدل على ذلك أيد. وتصغيرها يديّة. والجناح العضد، قاله مجاهد. وقال: " إلى " بمعنى تحت. قطرب: " إلى جناحك " إلى جيبك، ومنه قول الراجز:

* أضمه للصدر والجناح *

وقيل: إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح. لأنه مائل في محل الجناح. وقيل إلى عندك.

وقال مقاتل " إلى " بمعنى مع أي مع جناحك. (تخرج بيضاء من غير سوء) من غير برص نورا ساطعا، يضئ بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا. عن ابن عباس

وغيره: فخرجت نورا مخالفة لونه. و " بيضاء " نصب على الحال، ولا ينصرف لان فيها

ألفي التأنيث لا يزيلا لأنها فكأن لزومها علة ثانية، فلم ينصرف في النكرة، وخالفنا الهاء لان الهاء

تفارق الاسم. و " من غير سوء " " من " صلة " بيضاء " كما تقول: ابيضت من غير سوء.

(آية أخرى) سوى العصا. فأخرج يده من مدرعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس

يعشي (١) البصر. و " آية " منصوبة على البدل من بيضاء، قاله الأخفش. النحاس: وهو قول حسن. وقال الزجاج: المعنى آتيناك آية أخرى أو (٢) نؤتيك، لأنه لما قال: " تخرج

بيضاء من غير سوء " دل على أنه قد آتاه آية أخرى. (لنريك من آياتنا الكبرى) يريد العظمى. وكان حقه (٣) أن يقول الكبيرة وإنما قال: " الكبرى " لوفاق رؤوس الآي. وقيل:

فيه إضمار، معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته.

قوله تعالى: اذهب إلى فرعون إنه طغى (٢٤) قال رب أشرح لي صدري (٢٥) ويسر لي أمري (٢٦) واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولني (٢٨) واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥)

-
- (١) في ب وز وك: يغشى. بالمعجمة.
- (٢) في ك: أي.
- (٣) هذه العبارة يجب اطراحها في كلام الباري فالكبرى معناها العظمى. محققه.

قوله تعالى: (اذهب إلى فرعون إنه طغى) لما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون، وأن يدعو. و " طغى " معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد. (قال رب أشرح لي صدري. ويسر لي أمري. وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي. واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي) طلب الإعانة لتبليغ الرسالة.

ويقال: إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن، فقال موسى: يا رب فكيف تأمرني أن آتية وقد ربطت على قلبه، فأتاه ملك من خزان الريح فقال: يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به. فقال موسى عند ذلك: " رب أشرح لي صدري " أي وسعه ونوره بالايمان والنبوة. (ويسر لي أمري) أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى

فرعون. (وأحلل عقدة من لساني) يعني العجمة التي كانت فيه من جمره النار التي أطفأها

في فيه وهو طفل. قال ابن عباس: كانت في لسانه رتة. وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمه، وأخذ بلحيته فنتفها فقال فرعون لآسية: هذا عدوي فهات الذباحين. فقالت آسية: على رسلك فإنه صبي لا يفرق بين الأشياء. ثم أتت بطستين فجعلت في أحدهما جمراً وفي الآخر جوهراً فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على

النار حتى رفع جمره ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرتة. وروي أن يده احترقت

وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ. ولما دعاه قال إي رب تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها. وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده لثلاً يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤكلة. ثم اختلف هل زالت تلك الرتة، فقيل: زالت بدليل قوله " قد أوتيت سؤالك يا موسى " [طه: ٣٦] وقيل: لم تزل كلها، بدليل قوله حكاية

عن فرعون: " ولا يكاد يبين " (١) [الزخرف: ٥٢]. ولأنه لم يقل: أحلل كل لساني، فدل على أنه بقى

في لسانه شيء من الاستمساك. وقيل: زالت بالكلية بدليل قوله " أوتيت سؤالك " [طه: ٣٦]

وإنما قال فرعون: " ولا يكاد يبين " [الزخرف: ٥٢] لأنه عرف منه تلك العقدة في التربية، وما ثبت عنده أن الآفة زالت.

(١) راجع ج ١٦ ص ٩٩.

(١٩٢)

قلت: وهذا فيه نظر، لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون: " ولا يكاد يبين " حين كلمه موسى بلسان ذلق فصيح. والله أعلم. وقيل: إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه. (يفقهوا قولي) أي يعملوا ما أقوله لهم ويفهموه (١). والفقه في كلام العرب الفهم. قال أعرابي لعيسى بن عمر: شهدت عليك بالفقه. تقول منه: فقه الرجل بالكسر. وفلان لا يفقه ولا ينقه (٢). وأفقهتك الشيء. ثم خص به علم الشريعة، والعالم به فقيه. وقد فقه بالضم فقاهاة وفقهه الله وتفقه إذا تعاطى ذلك. وفاقهته

إذا باحثته في العلم، قاله الجوهري. والوزير المؤازر كالأكيل المؤاكل، لأنه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله. في كتاب النسائي عن القاسم بن محمد: سمعت عمي (٣) تقول قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا

إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه). ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: (ما بعث الله

من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة

تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله) رواه البخاري. فسأل موسى الله تعالى أن

يجعل له وزيرا، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصورا على الوزارة حتى لا يكون شريكا له في النبوة،

ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة. وعين فقال " هارون " وانتصب على البديل من قوله: " وزيرا ". أو يكون منصوبا ب " - اجعل " على التقديم والتأخير، والتقدير:

واجعل لي هارون أخي وزيرا. وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بثلاث.

(اشدد به أزرى) أي ظهري. والأزر الظهر من موضع الحقوين، ومعناه تقوى به نفسي، والأزر القوة وأزره قواه. ومنه قوله تعالى: " فأزره فاستغلظ " (٤) [الفتح: ٢٩] وقال

أبو طالب: (٥)

أليس أبونا هاشم شد أزره * وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
وقيل: الأزر العون، أي يكون عوننا يستقيم به أمري. قال الشاعر:

شددت به أزري وأيقنت أنه * أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبه

(١) في ج وز وك: يفقهوه.

(٢) معناه لا يعلم ولا يفهم. ونقته الحديث أنقته إذا فهمته.

(٣) في ج وى: عمي.

(٤) راجع ج ١٦ ص ٢٩٥.
(٥) هذا البيت من قصيدة له
قالها في أمر الشعب والصحيفة.

وكان هارون أكثر لحما من موسى، وأتم طولاً، وأبيض جسماً، وأفصح لساناً. ومات قبل

موسى بثلاث سنين. وكان في جبهة هارون شامة، وعلى أرنبة أنف موسى شامة، وعلى طرف لسانه شامة، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده، وقيل: إنها كانت سبب العقدة (١) التي في لسانه. والله أعلم. (وأشركه في أمري) أي في النبوة وتبليغ الرسالة.

قال المفسرون: كان هارون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هارون، وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه، فقال له موسى:

إن الله أمرني أن آتي فرعون فسألت ربي أن يجعلك معي رسولا. وقرأ العامة "أخي أشدد" بوصل الألف "وأشركه" بفتح الهمزة على الدعاء، أي أشدد يا رب أزري وأشركه معي في أمري. وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حياة والحسن وعبد الله ابن أبي إسحاق "أشدد" بقطع الألف "وأشركه" [بضم الألف أي أنا أفعل ذلك أشدد

أنا به أزري (وأشركه) (٢)] أي أنا يا رب "في أمري". قال النحاس: جعلوا الفعلين في موضع جزم جوابا لقوله: "أجعل لي وزيرا" وهذه القراءة شاذة بعيدة، لأن جواب مثل هذا إنما يتخرج بمعنى الشرط والمجازاة، فيكون المعنى: إن تجعل لي وزيرا من أهلي أشدد

به أزري، وأشركه في أمري. وأمره النبوة والرسالة، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به، إنما سأل الله عز وجل أن يشركه معه في النبوة. وفتح الياء من "أخي" ابن كثير

وأبو عمر. (كي نسبحك كثيرا) قيل: معنى "نسبحك" نصلي لك. ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان. أي نزهك عما لا يليق بجلالك. "وكثيرا" نعت لمصدر محذوف. ويجوز أن يكون نعتا لوقت. والادغام حسن. وكذا (ونذكرك كثيرا). (إنك كنت بنا بصيرا) قال الخطابي: البصير المبصر، والبصير العالم بخفيات الأمور، فالمعنى، أي عالما بنا، ومدركا لنا في صغرنا فأحسنت إلينا، فأحسن إلينا [أيضا] (٣) كذلك يا رب.

قوله تعالى: قال قد أوتيت سؤالك يا موسى (٣٦) ولقد مننا عليك مرة أخرى (٣٧) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨) أن أقذفه في التابوت فأقذفه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي

(١) في ب و ج و ز و ط و ك و ي: سبب العقلة في لسانه. ولهذا اللفظ وجه.

(٢) من ب و ط و ز و ك.

(۳) من ب و ج وی.

(۱۹۴)

وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (٣٩) إذ تمشى
أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك
كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك
فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى (٤٠)
واصطنعتك لنفسى (٤١) اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا
في ذكري (٤٢)

قوله تعالى: (قال أوتيت سؤالك يا موسى) لما سأله شرح الصدر، وتيسير الامر
إلى ما ذكر، أجاب سؤاله، وأتاه طلبته ومرغوبه. والسؤال الطلبة، فعل بمعنى مفعول،
كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول. وقوله تعالى: (ولقد مننا عليك مرة
أخرى) أي قبل هذه، وهي حفظه سبحانه له من شر الأعداء في الابتداء، وذلك حين
الذبح.

والله أعلم. والامن الاحسان والافضال. وقوله: (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي) قيل:
" أوحينا " ألهمنا. وقيل: أوحى إليها في النوم. وقال ابن عباس [رضي الله عنهما (١)]:
أوحى إليها كما أوحى إلى النبيين. (أن أقدفيه في التابوت) قال مقاتل: مؤمن آل فرعون
هو الذي صنع التابوت ونجره وكان اسمه حزقيل. وكان التابوت من جميز. (فاقدفيه
في اليم)

أي اطرقيه في البحر: نهر النيل. (فليلقه) قال الفراء: " فاقدفيه في اليم " أمر وفيه معنى
المجازاة. أي اقدفيه يلقه اليم. وكذا قوله: " اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم " (٢).
[العنكبوت: ١٢]. (يأخذه

عدو لي وعدو له) يعني فرعون، فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطعا ووضعته فيه موسى،
وقيرت رأسه وخصاصه - يعني شقوقه - ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير
في دار

فرعون، فساقه الله في ذلك النهر إلى دار فرعون. وروى أنها جعلت في التابوت قطنا
محلوجا،

فوضعت فيه وقيرته وجصصته، ثم ألقته في اليم. وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر
كبير،

فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبي
أصبح

(١) من ج وك.

(٢) راجع ج ١٣ ص ٣٣٠ فما بعد.

الناس، فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه. وظاهر القرآن يدل على أن البحر

ألقاه بساحله وهو شاطئه، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه. ويحتمل أن يكون

إلقاء اليم بموضع من الساحل، فيه فوهة (١) نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة. والله أعلم.

وقيل: وجدته ابنة فرعون وكان بها برص، فلما فتحت التابوت شفيت. وروي أنهم حين

التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدرُوا عليه، وعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأت

في جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته، فإذا صبي نوره بين عينيه، وهو يمص إبهامه لبنا فأحبه. وكانت لفرعون بنت برصاء، وقال له الأطباء: لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد

فيه شبه إنسان دواؤها ريقه، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرئت. وقيل: لما نظرت إلى وجهه برئت. والله أعلم. وقيل: وجدته جوار لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون

فرأى صبيا من أصبح الناس وجهها، فأحبه فرعون. فذلك قوله تعالى: (وألقيت عليك محبة مني) قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه. وقال ابن عطية (٢): جعل عليه

مسحة

من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه. وقال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحه ما رآه أحد

إلا أحبه وعشقه. وقال عكرمة: المعنى جعلت فيك حسنا وملاحه فلا يراك أحد إلا أحبك.

وقال الطبري: المعنى ألقى عليك رحمتي. وقال ابن زيد: جعلت من رآك أحبك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبتك آسية بنت مزاحم فتبتك. (ولتصنع على

عيني)

قال ابن عباس: يريد أن ذلك بعيني حيث جعلت في التابوت، وحيث ألقى التابوت في البحر،

وحيث التقطك جوارى امرأة فرعون، فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه، فقالت منهن

واحدة: لا تفتحنه حتى تأتين به سيدتكن فهو أحظى لكن عندها، وأجدر بالألا تتهمكن بأنكن

وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأنفسكن. وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقىنه

أولئك الجوارى. فذهبن بالتابوت إليها مغلقا، فلما فتحته رأت صبيا لم ير مثله قط،

وألقى
عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون، فقالت له: [القصص: ٩] " قرّة عين لي
ولك " (٣) قال لها فرعون:
أما لك فنعم، وأما لي فلا. فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن فرعون
قال

(١) فوهة الوادي بالضم والشد: فمه كفوهته.

(٢) في ب و ج و ز و ط و ك و ي: عطية.

(٣) راجع ج ١٣ ص ٢٥٠ فما بعد.

نعم هو قرّة عين لي ولك لآمن وصدق) فقالت: هبه لي ولا تقتله، فوهبه لها. وقيل:
" ولتصنع على عيني " أي تربي وتغذي على مرأى مني، قاله قتادة. قال النحاس: وذلك
معروف في اللغة، يقال: صنعت الفرس وأصنعت إذا أحسنت القيام عليه. والمعنى. "

ولتصنع
على عيني " فعلت ذلك. وقيل: اللام متعلقة بما بعدها من قوله: " إذ تمشي أختك "

على
التقديم والتأخير ف " - إذ " ظرف " لتصنع ". وقيل: الواو في " ولتصنع " زائدة. وقرأ
ابن القعقاع " ولتصنع " بإسكان اللام على الأمر، وظاهره للمخاطب والمأمور غائب.
وقرأ

أبو نهيك: " ولتصنع " بفتح التاء. والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي وعلى
عين مني.

ذكره المهدوي. " إذ تمشي أختك " العامل في " إذ تمشي " ألقىت " أو " تصنع ".
ويجوز أن يكون بدلا من " إذ أوحينا " وأخته اسمها مريم. (فتقول هل أدلكم على من
يكفله) وذلك أنها خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لما وهبه فرعون من امرأته طلبت
له الأمراض، كان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أخته، فأخذته ووضعته في حجرها
وناولته

ثديها فمصه وفرح به. فقالوا لها: تقيمين عندنا، فقالت: إنه لا لبن لي ولكن أدلكم
على من يكفله وهم له ناصحون. قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي. فقالوا: لها لبن؟ قالت:
لبن أخي هارون. وكان هارون أكبر من موسى بسنة. وقيل: بثلاث. وقيل: بأربع،
وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين، فولد هارون فيها، قاله
ابن

عباس. فجاءت الام فقبل ثديها. فذلك قوله تعالى: (فرجعناك إلى أمك) وفي مصحف
أبي " فرددناك ". (كي تقرر عينها ولا تحزن) وروى عبد الحميد عن ابن عامر " كي
تقرر

عينها " بكسر القاف. قال الجوهري: وقررت به عينا وقررت به قرّة وقرورا فيهما.
ورجل قرير العين، وقد قرّت عينه تقرر وتقرر نقيض سخنت. وأقر الله عينه أي أعطاه
حتى

تقرر فلا تطمح إلى من هو فوقه، ويقال: حتى تبرد ولا تسخن. وللسرور دمة باردة،
وللحزن دمة حارة. وقد تقدم هذا المعنى في (مريم) (١). " ولا تحزن " أي على
فقدك.

(وقتل نفسا) قال ابن عباس: قتل قبطيا كافرا. قال كعب: وكان إذ ذاك ابن اثنتي

(١) راجع ص ٨١ فما بعد من هذا الجزء.

عشرة سنة. في صحيح مسلم: وكان قتله خطأ، على ما يأتي. (فنجيناك من الغم) أي
آمنك

من الخوف والقتل والحبس. (وفتناك فتونا) أي اختبرناك اختباراً حتى صلحت للرسالة،
وقال قتادة: بلونك بلاء. مجاهد: أخلصناك إخلاصاً. وقال ابن عباس: اختبرناك بأشياء
قبل الرسالة، أولها: حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه
في اليم،

ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل
الدرّة، فدرأ

ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفاً يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب
بها

على رعاية الخلق. فيقال: إنه ندله من الغنم جدي فاتبعه أكثر النهار، وأتبعه، ثم أخذه
فقبله وضمه إلى صدره، وقال له: أتعبتني وأتعبت نفسك، ولم يغضب عليه. قال وهب
ابن منبه: ولهذا اتخذ الله تعالى كليماً، وقد مضى في (النساء) (١).

قوله تعالى: (فلبث سنين في أهل مدين) يريد عشر سنين أتم الأجلين. وقال وهب:
لبث عند شعيب ثمانين وعشرين سنة، منها عشرة مهر امرأته صفورا ابنة شعيب، وثمانين
عشرة إقامة عنده حتى ولد له عنده. وقوله: (ثم جئت على قدر يا موسى) قال ابن
عباس

وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان: يريد موافقاً للنبوة والرسالة، لان الأنبياء لا يبعثون إلا
أبناء

أربعين سنة. وقال مجاهد ومقاتل: " على قدر " على وعد. وقال محمد بن كعب: ثم
جئت

على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء فيه. والمعنى واحد. أي جئت في الوقت الذي
أردنا

إرسالك فيه. وقال الشاعر:

نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر
قوله تعالى: (واصطنعتك لنفسي) قال ابن عباس: أي اصطفتك لوحي ورسالتي. وقيل:
" اصطنتك " خلقتك، مأخوذ من الصنعة. وقيل: قويتك وعلمتك لتبلغ عبادي أمري
ونهي. (أذهب أنت وأخوك بآياتي) قال ابن عباس: يريد التسع الآيات التي أنزلت عليه.
(ولا تنيا في ذكرى) قال ابن عباس: تضعفاً أي في أمر الرسالة، وقاله قتادة. وقيل:

تفترأ. قال الشاعر: (٢)

فما ونى محمد مذان غفر * له الاله ما مضى وما غبر

(١) راجع ج ٦ ص ١٨.
(٢) هو العجاج.

والونى الضعف والفتور، والكلال والاعياء [وكله مراد في الآية] (١). وقال امرؤ القيس:

مسح إذا ما السابحات على الونى * أثرن غبارا بالكديد المركل (٢)
ويقال: ونيت في الامر أنى ونى وونيا أي ضعفت فأنا وان وناقة وانية وأونيتها أنا
أضعفتها

وأعتبتها: وفلان لا ينى كذا، أي لا يزال، وبه فسر أبان معنى الآية واستشهد بقول
طرفة:

كأن القدور الراسيات أمامهم * قباب بنوها لا تنى أبدا تغلى
وعن ابن عباس أيضا: لا تبطنأ. وفي قراءة ابن مسعود: " ولا تهنا في ذكري "
وتحميدي

وتمجيدي وتبليغ رسالتي.

قوله تعالى: أذهباً إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا
لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤)

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (اذهبا) قال في أول الآية: " اذهب أنت وأخوك بآياتي "
وقال هنا: " اذهباً " فقيل: أمر الله تعالى موسى وهرون في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة
فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تشريفا له، ثم كرر للتأكيد. وقيل: بين بهذا أنه
لا يكفي ذهاب أحدهما. وقيل: الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس، والثاني بالذهاب
إلى فرعون.

الثانية - في قوله تعالى: (فقولا له قولا لينا) دليل على جواز الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له
العصمة، ألا تراه

قال: " فقولا له قولا لينا " وقال: " لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى " [طه: ٤٦]
فكيف بنا فنحن

أولى بذلك. وحينئذ يحصل الأمر أو الناهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه، وهذا واضح.

(١) من ب و ج وى.

(٢) مسح معناه يصب الجرى صبا. والسابحات اللاتي عدوهن سباحة
والسباحة في الجري بسط الأيدي. والكديد: الموضع الغليظ. والمركل: الذي يركل بالأيدي. ومعنى البيت:
أن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا مهلا.

الثالثة - واختلف الناس في معنى قوله: (لينا) فقالت فرقة منهم الكلبي وعكرمة: معناه كنياه، وقاله ابن عباس ومجاهد والسدي. ثم قيل: وكنيته أبو العباس. وقيل: أبو الوليد. وقيل: أبو مرة، فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطمع بإسلامه. وقد (١) يجوز ذلك وإن لم يطمع بإسلامه، لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) ولم يقل وإن طمعتم في إسلامه،

ومن الأكرام دعاؤه بالكنية. وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية: (أنزل أبا وهب)

فكناه. وقال لسعد: (ألم تسمع ما يقوله أبو حباب) يعني عبد الله بن أبي. وروى في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة، لا يجد رسولا يبلغ كلاما

حتى خرج. فجرى له ما قص الله علينا من ذلك، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين

في سيرتهم مع الظالمين، وربك أعلم بالمهتدين. وقيل قال له موسى: تؤمن بما جئت به،

وتعبد رب العالمين، على أن لك شبابا لا يهرم إلى الموت، وملكا لا ينزع منك إلى الموت،

وينسأ في أجلك أربعمئة سنة، فإذا مت دخلت الجنة. فهذا القول اللين. وقال ابن مسعود:

القول اللين قوله تعالى " فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتحشى " (٢) [النازعات: ١٨ - ١٩]. وقد

قيل أن القول اللين قول موسى: يا فرعون إنا رسولا ربك رب العالمين. فسماه بهذا الاسم

لأنه [كان] (٣) أحب إليه مما سواه مما قيل له، كما يسمى عندنا الملك ونحوه.

قلت: القول اللين هو القول الذي لا خشونة فيه، يقال: لان الشيء يلين لينا، وشئ لين ولين مخفف منه، والجمع ألياء. فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولاً لينا، فمن

دونه أحرى بأن يقتدى بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه. وقد قال الله تعالى:

" وقولوا للناس حسنا " (٤) [البقرة: ٨٣]. على ما تقدم في " البقرة " بيانه والحمد لله.

الرابعة - قوله تعالى: (لعله يتذكر أو يخشى) معناه: على رجائكما وطمعكما، فالتوقع

فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر، قاله كبار النحويين: سيبويه وغيره. وقد تقدم في أول
(البقرة) (٥). قال الزجاج: " لعل " لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون. وقيل " لعل
" هاهنا بمعنى

-
- (١) في ج وك: وقيل.
(٢) راجع ج ١٩ ص ١٨٩ فما بعد.
(٣) من ب و ج وي وك وى.
(٤) راجع ج ٢ ص ١٦ فما بعد.
(٥) راجع ج ١ ص ٢٢٧.

الاستفهام. والمعنى فانظر هل يتذكر. وقيل: هي بمعنى كي. وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن قول هارون لموسى لعله يتذكر أو يخشى، قاله الحسن. وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع. وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: " آمنت أنه لا إله

إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين " (١) [يونس: ٩٠]. ولكن لم ينفعه ذلك، قاله أبو بكر الوراق وغيره. وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية: هذا رفك بمن يقول أنا الإله فكيف رفك بمن يقول أنت الإله؟! وقد قيل: إن فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه، وشاور

امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان فقال: لا تفعل، بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا، وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا. وقال له: أنا أرك شابا فحضب لحيته بالسواد فهو أول من حضب.

قوله تعالى: قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٤٥)
قوله تعالى: (قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) قال الضحاك:
" يفرط " يعجل. قال: و " يطغى " يعتدى. النحاس: التقدير نخاف أن يفرط علينا منه أمر، قال الفراء: فرط منه أمر أي بدر، قال: وأفرط أسرف. قال: وفرط ترك. وقراءة الجمهور " يفرط " بفتح الياء وضم الراء، ومعناه يعجل ويبادر بعقوبتنا. يقال: فرط

مني أمر أي بدر، ومنه الفارط في الماء الذي يتقدم القوم إلى الماء. أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه، قاله المبرد. وقرأت فرقة منهم ابن محيصة " يفرط "

بفتح الياء والراء، قال المهدوي: ولعلها لغة. وعنه أيضا بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله

حامل التسرع إلينا. وقرأت طائفة " يفرط " بضم الياء وكسر الراء، وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصة أيضا. ومعناه يشطط في أذيتنا، قال الراجز:
* قد أفرط العليج علينا وعجل *

قوله تعالى: قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى (٤٦)

(١) راجع ج ٨ ص ٣٧٧ فما بعد.

(٢٠١)

فيه مسألتان:

الأولى - قال العلماء: لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه. وهذه الآية ترد على من قال: إنه لا يخاف، والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم. ولقد أحسن البصري

رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله - أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقبل له: فقد خاطرت بنفسك.

فقال: لان تختلف الأسنه في جوفي أحب إلي من أن يعلم الله أني أخاف شيئا سواه - :
قد خاف من كان خيرا من عامر، موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له: [الرجل] (١): " إن الملا

يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني

من القوم الظالمين " (٢) [القصص: ٢٠ - ٢١] وقال: " فأصبح في المدينة خائفا يترقب " (٢) [القصص: ١٨] وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم: " فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الاعلى " [طه: ٦٧ - ٦٨].

قلت: ومنه حفر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم،

مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحدا، ثم كان من أصحابه ما لا يجمله أحد

من تحولهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة، تخوفا على أنفسهم من مشركي

مكة، وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعديهم. وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال

لها سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم: كذبت يا عمر،

كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار

- أو أرض - البعداء (٣) البغضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله، وأيم الله لا أطعم طعاما

ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن كنا نؤذي

ونخاف.
الحديث بطوله خرجه مسلم. قال العلماء: فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس
بني آدم

(١) من ك.

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٦٤ فما بعد وص ٢٥٩.

(٣) البعداء: أي في النسب.

البغضاء: أي في الدين وقول أسماء: كذبت يا عمر أي أخطأت وقد استعملوا كذب يعنى أخطأ.

[عليه] (١) كاذب، وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها. قالوا: ولا ضار أضر

من سبع عاد في فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك.

الثانية - قوله تعالى: "إنني معكما" يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون. وهذا كما تقول: الأمير مع فلان إذا أردت أنه يحميه. وقوله: "أسمع وأرى" عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين.

قوله تعالى: فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى (٤٧) إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى (٤٨) قال فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠)

قوله تعالى: (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) في الكلام حذف، والمعنى: فأتياه فقولا له ذلك. (فأرسل معنا بني إسرائيل) أي حل عنهم. (ولا تعذبهم) أي بالسخرة والتعب في العمل. وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد، يذبح أبناءهم، ويستخدم (٢) نساءهم، ويكلفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المدائن مالا يطيقونه.

(قد جئناك بآية من ربك) قال ابن عباس: يريد العصا واليد. وقيل: إن فرعون قال له: وما هي؟ فأدخل يده في جيب قميصه، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع مثل شعاع الشمس، غلب نورها على نور الشمس فعجب منها. ولم يره العصا إلا يوم الزينة. (والسلام على من أتبع الهدى) قال الزجاج: أي من أتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل

وعذابه. قال: وليس بتحية، [قال: (٣) والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب.

(١) الزيادة يقتضيها السياق.

(٢) في ا: يستحي.

(٣) من ب و ج و ط و ك و ي.

الفراء: السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء. (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب) يعني الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في جهنم في الآخرة. (على من كذب) أنبياء الله (وتولى) أعرض عن الايمان. وقال ابن عباس: هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا.

قوله تعالى: (قال فمّن ربكما يا موسى) ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي. وقيل: خصصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية. وقيل إنهما جميعا بلغا الرسالة وإن كان ساكتا، لأنه في وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وازره الآخر

وأيده. فصار لنا في هذا البناء فائدة علم، أن الاثنين إذا قلدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود مستغنى عنه في وقت دون وقت أنهما أديا الامر الذي قلدا وقاما به

واستوجبا الثواب، لان الله تعالى قال: "أذهبا إلى فرعون" وقال: "أذهب أنت وأخوك" وقال: "فقولا له" فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا في وقت الخطاب

بقوله: "فمّن ربكما" أنه كان حاضرا مع موسى. (قال) موسى: (ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه) أي أنه يعرف بصفاته، وليس له أسم علم حتى يقال فلان بل هو خالق العالم،

وهو الذي خص كل مخلوق بهيئة وصورة، ولو كان الخطاب معهما لقالا: قال ربنا. "وخلقه" أول مفعولي أعطى، أي أعطى خليقته كل شئ يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أي أعطى كل شئ صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، على قول الضحاك على ما يأتي. (ثم هدى) قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: أعطى كل شئ

زوجه من جنسه، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه، وعن ابن عباس: ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة. وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شئ صلاحه، وهداه

لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شئ صورة، لم يجعل خلق الانسان في خلق البهائم،

ولا خلق البهائم في خلق الانسان، ولكن خلق كل شئ فقدره تقديرا. وقال الشاعر: وله في كل شئ خلقة* وكذاك الله ما شاء فعل

(۲۰۴)

يعني بالخلقة الصورة، وهو قول عطية ومقاتل. وقال الضحاك: أعطى كل شيء خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له. يعني اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين

للنظر، والاذن للسمع. وقيل: أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة. وقال الفراء: خلق الرجل للمرأة ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ثم هدى الذكر للأُنثى. فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه.

قلت: وهذا معنى قول ابن عباس. والآية بعمومها تتناول جميع الأقوال. وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ " الذي أعطى كل شيء خلقه " بفتح اللام، وهي قراءة ابن أبي إسحاق.

ورواها نصير عن الكسائي وغيره، أي أعطى بني آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه. فالقراءتان متفقتان في المعنى.

قوله تعالى: قال فما بال القرون الأولى (٥١) قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى (٥٢) فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (قال فما بال) البال الحال، أي وما حالها وما شأنها، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب،

وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله تعالى في اللوح المحفوظ. وقيل: المعنى فما بال القرون

الأولى لم يقروا بذلك. أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك. وقيل: إنما سأله عن أعمال

القرون الأولى فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى، ومحفوظة عنده في كتاب. أي هي مكتوبة

فسيجازيهم غدا بها وعليها. وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ. وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة.

الثانية - هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكتبتها لئلا تنسى. فإن الحفظ قد تعثره الآفات من الغلط والنسيان. وقد لا يحفظ الانسان ما

يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه. وروينا بالاسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له: أنكتب ما نسمع

منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب، فقال: " علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ". وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو

موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي). وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال: كان

رجل من الأنصار يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث ويعجبه ولا يحفظه،

فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إنني أسمع منك الحديث

يعجبني ولا أحفظه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (استعن بيمينك) وأوماً إلى الخط. وهذا نص. وعلى جواز كتب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بكتب الخطبة التي خطب بها في الحج لأبي شاه - رجل من اليمن -

لما سأله كتبها. أخرجه مسلم. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال: (قيدوا العلم بالكتابة). وقال معاوية بن قرة: من لم يكتب العلم لم يعد علمه علماً. وقد ذهب قوم إلى المنع من الكتب، فروى أبو نصر (١) قال قيل لأبي سعيد:

أنكتب حديثكم هذا؟ قال: لم تجعلونه قرآناً؟ ولكن احفظوا كما حفظنا. وممن كان لا يكتب الشعبي ويونس بن عبيد وخالد الحذاء - قال خالد: ما كتبت شيئاً قط إلا حديثاً

واحداً، فلما حفظته محوته - وابن عون والزهري. وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه، منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضمرة. وقال هشام بن حسان: ما كتبت حديثاً قط

إلا حديث الأعماق (٢) فلما حفظته محوته.

قلت: وقد ذكرنا عن خالد الحذاء مثل هذا. وحديث الأعماق أخرجه مسلم في آخر الكتاب: (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق - أو - بدابق) الحديث ذكره في كتاب

الفتن. وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ منهم الأعمش وعبد الله بن إدريس وهشيم

وغيرهم. وهذا احتياط على الحفظ. والكتب أولى على الجملة، وبه وردت الآي

والأحاديث،
وهو مروى عن عمر وعلي وجابر وأنس رضي الله عنهم، ومن يليهم من كبراء التابعين
كالحسن

-
- (١) كذا في ب و ط وى وهو الصواب. وأبو نضرة المنذر بن مالك بن قطعة.
(٢) الأعماق: موضع من أطراف المدينة ودابق: اسم موضع سوق بها. والشك من الراوي.

وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم، قال الله تعالى " وكتبنا له في الألواح من كل شيء " (١) [الأعراف: ١٤٥]. وقال تعالى: " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها

عبادي الصالحون " (٢) [الأنبياء: ١٠٥]. وقال تعالى: " واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة " (١) [الأعراف: ١٥٦] الآية. وقال تعالى:

" وكل شيء فعلوه في الزبر. وكل صغير وكبير مستطر " (٣) [القمر: ٥٢ - ٥٣]. وقال: " علمها عند ربي في كتاب "

إلى غير هذا من الآي. وأيضا فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد

والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، وإنما كره الكتب من

كره من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الاسناد لئلا يعتمد الكاتب فيهمله، أو يرغب

عن حفظه (٤) والعمل به، فأما والوقت متباعد، والاسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة

متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى،

والدليل على وجوبه أقوى، فإن أحتج محتج بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحاه) خرج مسلم، فالجواب أن ذلك كان متقدما،

فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحتها لأبي شاه وغيره. وأيضا كان ذلك لئلا يخلط بالقرآن

ما ليس منه. وكذا ما روى عن أبي سعيد أيضا - حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم

في الكتابة فأبى - إن كان محفوظا فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن

الثالثة - قال أبو بكر الخطيب: ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد، ثم الحبر خاصة دون المداد (٥) لان السواد أصبغ الألوان، والحبر أبقاها على مر الدهور. وهو آلة ذوي العلم،

وعدة أهل المعرفة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال: رأني الشافعي وأنا في مجلسه

وعلى قميصي حبر وأنا أخفيه، فقال: لم تخفيه وتستره؟ إن الحبر على الثوب من

المروءة لان
صورته في الابصار سواد، وفي البصائر بياض. وقال خالد بن زيد: الحبر في ثوب
صاحب الحديث
مثل الخلق (٦) في ثوب العروس. وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البلوى فقال:
مداد المحابر طيب الرجال* وطيب النساء من الزعفران
فهذا يليق بأثواب ذا* وهذا يليق بثوب الحصان

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٠ فما بعد وص ٢٩٦.

(٢) راجع ص ٣٤٩ من هذا الجزء.

(٣) راجع ج ١٧ ص ١٤٩.

(٤) في ب و ج و ز و ط ك وى: تحفظه.

(٥) لا فرق

في اللغة بين المداد والحبر ولعل المراد الكتابة بالحبر الأسود خاصة فالتفرقة بحسب اللون على ما يبدو.
(٦) الخلق: طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره.

وذكر الماوردي أن عبد الله (١) بن سليمان فيما حكى، رأى على بعض ثيابه أثر صفرة، فأخذ من

مداد الدواة وطلاه به، ثم قال: المداد بنا أحسن من الزعفران، وأنشد:

إنما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوي عطر الرجال

الرابعة - قوله تعالى: (لا يضل ربي ولا ينسى) اختلف في معناه على أقوال خمسة، الأول: إنه ابتداء كلام، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين. وقد كان الكلام تم في قوله: " في كتاب ". وكذا قال الزجاج، وأن معنى " لا يضل " لا يهلك من قوله: " أئذا ضللنا في الأرض " (٢) [السجدة: ١٠]. " ولا ينسى " شيئاً، نزهه عن الهلاك والنسيان. القول الثاني:

" لا يضل " لا يخطئ، قاله ابن عباس، أي لا يخطئ في التدبير، فمن أنظره فلحكمة أنظره،

ومن عاجله فلحكمة عاجله. القول الثالث: " لا يضل " لا يغيب. قال ابن الأعرابي:

أصل الضلال الغيبوبة، يقال: ضل الناسي إذا غاب عنه حفظ الشيء. قال: ومعنى.

" لا يضل ربي ولا ينسى " أي لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء. القول الرابع: قاله الزجاج أيضاً: وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى -: أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج

إلى

كتاب، والمعنى لا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا معرفتها، ولا ينسى ما علمه منها.

قلت: وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابي. وقول خامس: إن " لا يضل

ربي ولا ينسى " في موضع الصفة ل " - كتاب " أي الكتاب غير ضال عن الله عز وجل،

أي غير ذاهب عنه. " ولا ينسى " أي غير ناس له فهما نعتان ل " - كتاب ". وعلى هذا يكون

الكلام متصلاً، ولا يوقف على " كتاب ". تقول العرب. ضلني الشيء إذا لم أجده، وأضلته

أنا إذا تركته في موضع فلم تجده فيه. وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وعاصم

الجحدري وابن كثير فيما روى شبل عنه " لا يضل " بضم الياء على معنى لا يضيعه ربي

ولا ينساه. قال ابن عرفة: الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد، يقال: ضل عن

الطريق، وأضل الشيء إذا أضاعه. ومنه قرأ من قرأ " لا يضل ربي " أي لا يضيع،

هذا مذهب العرب.

(١) في (أدب الدنيا والدين): عبيد الله بن سليمان.
(٢) راجع ج ١٤ ص ٩١.

(٢٠٨)

قوله تعالى: الذي جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا
وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣)
كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي (٥٤)
منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥)
قوله تعالى: (الذي جعل لكم الأرض مهادا (١)) " الذي " في موضع [رفع] (٢) نعت
ل " - ربي " أي لا يضل ربي الذي جعل. ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمرة أي هو " الذي "

ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعني. وقرأ الكوفيون: " مهذا " هنا وفي " الزخرف " بفتح

الميم وإسكان الهاء. الباقيون " مهادا " واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لاتفاقهم على قراءة:
" ألم نجعل الأرض مهادا " (٣) [النبا: ٦]. النحاس: والجمع أولى لان " مهدا " مصدر
وليس هذا موضع

مصدر إلا على حذف، أي ذات مهد. المهدوي: ومن قرأ " مهدا " جاز أن يكون
مصدرا

كالفرش أي مهد لكم الأرض مهدا، وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي
ذات

مهد. ومن قرأ: " مهادا " جاز أن يكون مفردا كالفراش. وجاز أن يكون جمع " مهد "
استعمل

استعمال الأسماء فكسر. ومعنى " مهادا " أي فراشا وقرارا تستقرون عليها. (وسلك
لكم فيها

سبلا) أي طرقا. نظيره " والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا "
(٤) [نوح: ١٩ - ٢٠].

وقال تعالى: " الذي جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون "
(٥) [الزخرف: ١٠] (وأنزل

من السماء ماء) تقدم معناه. وهذا آخر كلام موسى، ثم قال الله تعالى: " فأخرجنا به
"

وقيل: كله من كلام موسى. والمعنى (فأخرجنا به) أي بالحرث والمعالجة، لان الماء
المنزل

سبب خروج النبات. ومعنى (أزواجا) ضروبا وأشباها، أي أصنافا من النبات المختلفة
الأزواج والألوان. وقال الأخفش: التقدير أزواجا شتى من نبات. قال: وقد يكون
النبات شتى، ف " شتى " يجوز أن يكون نعنا لأزواج، ويجوز أن يكون نعنا للنبات. و
" شتى "

-
- (١) (مهادا) بالجمع: قراءة (نافع) وعليها الأصل.
 - (٢) من ب و ج وزوي وك وى.
 - (٣) راجع ج ١٩ ص ١٦٩ فما بعد.
 - (٤) راجع ج ١٨ ص ٣٠٦.
 - (٥) راجع ج ١٦ ص ٦٤.

مأخوذ من شت الشيء أي تفرق. يقال: أمر شت أي متفرق. وشت الامر شتا وشتاتا تفرق، واشتت مثله. وكذلك التشتت. وشتته تشتتتا فرقه. وأشت بي قومي أي فرقوا أمري. والشتيت المتفرق. قال رؤبة يصف إبلا:

جاءت معا واطرقت شتيتا* وهي تثير الساطع السختيتا (١)
وشر شتيت أي مفلج. وقوم شتى، وأشياء شتى، وتقول: جاءوا أشتاتا، أي متفرقين، واحدهم شت، قاله الجوهري.

قوله تعالى: (كلوا وارعوا أنعامكم) أمر بإباحة. " وارعوا " من رعت الماشية الكلاً، ورعاها صاحبها رعاية، أي أسامها وسرحها، لازم ومعتد. (إن في ذلك لآيات لأولي النهى)

أي العقول. الواحدة نهية. قال لهم ذلك، لأنهم الذين ينتهي إلى رأيهم. وقيل: لأنهم يnehون النفس عن القبائح. وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً

لقوله: " فمن ربكما يا موسى ". وبين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله.
قوله تعالى: (منها خلقناكم) يعني آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض، قاله أبو إسحاق

الزجاج وغيره. وقيل: كل نطفة مخلوقة من التراب، على هذا يدل ظاهر القرآن. وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب

حفرته) أخرجه أبو نعيم الحافظ في باب ابن سيرين، وقال: هذا حديث غريب من حديث

عون لم نكتبه إلا من حديث أبي عاصم النبيل، وهو أحد الثقات الاعلام من أهل البصرة.

وقد مضى هذا المعنى مبينا في سورة (الانعام) (٢) عن ابن مسعود. وقال عطاء الخراساني: إذا

وقعت النطفة في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره

على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة ومن التراب، فذلك قوله تعالى: " منها خلقناكم

وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ". وفي حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم:

(إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملا من الملائكة

(١) السخيت: دقاق التراب: وهو الغبار الشديد الارتفاع. وىروى: (الشختيتا بالشين المعجمة.
(٢) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ فما بعد.

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها

في الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل " اكتبوا لعبدي كتابا في عليين وأعيدوه إلى الأرض

فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى " فتعاد روحه في جسده) وذكر

الحديث. وقد ذكرناه بتمامه في كتاب " التذكرة " وروى من حديث علي رضي الله عنه، ذكره

الثعلبي. ومعنى " وفيها نعيدكم " أي بعد الموت " ومنها نخرجكم " أي للبعث والحساب.

(تارة أخرى) يرجع هذا إلى قوله: " منها خلقناكم " لا إلى " نعيدكم ". وهو كقولك: اشترت ناقة ودارا وناقة أخرى، فالمعنى: من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى.

قوله تعالى: ولقد أريناكم كلها فكذب وأبى (٥٦) قال أجمتتنا

لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧) فلنأتينك بسحر مثله

فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨)

قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم الناس ضحى (٥٩) فتولى فرعون

فجمع كيده ثم أتى (٦٠) قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله

كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري (٦١)

قوله تعالى: (ولقد أريناكم آياتنا كلها) أي المعجزات الدالة على نبوة موسى. وقيل:

حجج الله الدالة على توحيده. (فكذب وأبى) أي لم يؤمن. وهذا يدل على أنه كفر

عنادا

لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا. نظيره " ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ".

(١)

قوله تعالى: (قال أجمتتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) لما رأى الآيات التي أتاه بها موسى قال: إنها سحر، والمعنى: جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والايمان بك، حتى تغلب على أرضنا وعلينا. (فلنأتينك بسحر مثله) أي لنعارضنك

(١) راجع ج ١٣ ص ١٦٣.

(٢١)

بمثل ما جئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله. (فاجعل بيننا وبينك موعدا)

هو مصدر، أي وعدا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد، كما قال تعالى: " وإن جهنم لموعدهم

أجمعين " (١) [الحجر: ٤٣] فالموعد ها هنا مكان. وقيل: الموعد اسم لزمان الوعد، كقوله تعالى: " إن موعدهم

الصبح " (٢) [هود: ٨١] فالمعنى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معروفا. قال القشيري: والأظهر أنه

مصدر ولهذا قال: (لا نخلفه) أي لا نخلف ذلك الوعد، والاختلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه.

وقال الجوهري: والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك الموعد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج: " لا نخلفه " بالجزم جوابا لقوله " اجعل ". ومن رفع فهو نعت

ل " - موعد " والتقدير: موعدا غير مخلف. (مكانا سوى) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة " سوى "

بضم السين. الباقلون بكسرهما، وهما لغتان مثل عدا وعدا وطوى وطوى. واختار أبو عبيد

وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس: والكسر أعرف وأشهر.

وكلهم نونوا الواو، وقد روي عن الحسن، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين. واختلف في معناه

فقيل: سوى هذا المكان، قاله الكلبي. وقيل: مكانا مستويا يتبين للناس ما بيناه فيه، قاله ابن زيد. ابن عباس: نصفا. مجاهد: منصفًا، وعنه أيضا وقتادة عدلا بيننا وبينك.

وقال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى " سوى " نصف وعدل وهو قول حسن، قال سيبويه يقال: سوى وسوى أي عدل، يعنى مكانا عدل، بين المكانين فيه النصفة، وأصله من

قولك: جلس في سواء الدار بالمد أي في وسطها، ووسط كل شئ أعدله، وفي الحديث

عن النبي صلى الله عليه وسلم: " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " (٣) [البقرة: ١٤٣]

أي عدلا، وقال زهير:

أرونا خطة لا ضيم فيها * يسوي بيننا فيها السواء

وقال أبو عبيدة والقتيبي: وسطا بين الفريقين، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإن أبانا كان حل ببلدة * سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

والفزر: سعد بن زيد مناة بن تميم. وقال الأخفش: "سوى" إذا كان بمعنى غير أو
بمعنى العدل
يكون فيه ثلاث لغات: إن ضمنت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعا. وإن فتحت
مددت،
تقول: مكان سوى وسوى وسواء، أي عدل ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن
جابر:

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٩ فما بعد.
(٢) راجع ج ٩ ص ٨١ (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٣

* وجدنا أبانا كان حل ببلدة *

البيت. وقيل: "مكانا سوى" أي قصدا، وأنشد صاحب هذا القول:

لو تمت حبيبتي ما عدتني * أو تمنيت ما عدت سواها

وتقول: مررت برجل سواك وسواك وسواك أي غيرك. وهما في هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان. وهم سواء للجميع وهم أسواء، وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس.

وانتصب

"مكانا" على المفعول الثاني لـ " - جعل ". ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه

مفعول

أو ظرف له، لأن الموعد قد وصف، والأسماء التي تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو

صغرت

لم ينبغ (١) أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع

موقع المفعول

الثاني، لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجره العرب مجرى المصادر مع الظروف،

لكنهم

يتسعون فيه كقوله تعالى: " إن موعدهم الصبح " (٢) [هود: ٨١] و " موعدكم يوم

الزينة ". واختلف

في يوم الزينة، ف قيل هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجمعون فيه، قاله قتادة والسدي

وغيرهما.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم عاشوراء. وقال سعيد بن المسيب: يوم سوق

كان لهم يتزينون فيها، وقاله قتادة أيضا. وقال الضحاك: يوم السبت. وقيل: يوم

النيروز، ذكره الثعلبي. وقيل: يوم يكسر فيه الخليج، وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه

يتفرجون

ويتنزهون، وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قبل النيل. وقرأ الحسن والأعمش

وعيسى

الثقفي والسلمي وهبيرة عن حفص " يوم الزينة " بالنصب. ورويت عن أبي عمرو،

أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا. والباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء. (وأن يحشر

الناس

ضحاً) أي وجمع الناس، ف " - أن " في موضع رفع على قراءة من قرأ: " يوم "

بالرفع. وعطف

" وأن يحشر " يقوي قراءة الرفع، لأن " أن " لا تكون ظرفا، وإن كان المصدر الصريح

يكون ظرفا كمقدم الحاج، لأن من قال: آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم

الحاج.

النحاس: وأولى من هذا أن يكون في موضع خفض عطفا على الزينة. والضحاً مؤنثة

تصغرها العرب بغير هاء لثلا يشبه تصغيرها ضحوة، قاله النحاس. وقال الجوهري:

(١) كذا في جميع الأصول.

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٨١.

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضحا وهي حين تشرق الشمس، مقصورة
تؤنث
وتذكر، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فعل
مثل صرد
ونغر، وهو ظرف غير متمكن مثل سحر، تقول: لقيته ضحا، وضحا إذ أردت به ضحا
يومك
لم تنونه، ثم بعده الضحاء ممدود مذكر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى. وخص الضحا
لأنه
أول النهار، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان في النهار متسع. وروى عن ابن مسعود
والجحدري
وغيرهما: " وأن يحشر الناس ضحا " على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه. وعن
بعض
القراء " وأن تحشر الناس " والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس وعن الجحدري
أيضا
" وأن نحشر " بالنون وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه،
وكتب
الكافر، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب
في الحق، ويكل حد المبطلين وأشياءهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل
بدو
وحضر، ويشيع في جمع أهل الوبر والمدر.
قوله تعالى: (فتولى فرعون فجمع كيده) أي حيله وسحره، والمراد جمع السحرة.
قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحرا، مع كل ساحر منهم حبال وعصى. وقيل:
كانوا
أربعمائة. وقيل: كانوا اثني عشر ألفا. وقيل: أربعة عشر ألفا. وقال ابن المنكدر: كانوا
ثمانين ألفا. وقيل: كانوا مجتمعين على رئيس يقال له شمعون. وقيل: كان اسمه يوحنا
معه
أثنا عشر نقيبا، مع كل نقيب عشرون عريفا، مع كل عريف ألف ساحر. وقيل كانوا
ثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمائة ألف ساحر
من الريف،
فصاروا تسعمائة ألف وكان رئيسهم أعمى. (ثم أتى) أي أتى الميعاد. (قال لهم موسى)
أي قال لفرعون والسحرة (ويلكم) دعاء عليهم بالويل. وهو بمعنى المصدر. وقال أبو
إسحاق
الزجاج: هو منصوب بمعنى ألزمهم الله ويلا. قال: ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى:

" يا ويلنا من بعثنا " (١) [يس: ٥٢] (لا تفتروا على الله كذبا) أي لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر. (فيسحتم بعذاب) من عنده أي يستأصلكم بالاهلاك.

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٩ فما بعد.

يقال فيه: سحت وأسحت بمعنى. وأصله من استقصاء الشعر. وقرأ الكوفيون " فيسحتكم "

من أسحت، الباقون " فيسحتكم " من سحت وهذه لغة أهل الحجاز و [الأولى (١) لغة] بني تميم.

وانتصب على جواب النهي. وقال الفرزدق.

وعض زمان يا بن مروان لم يدع * من المال إلا مسحتا (٢) أو مجلف (٣) الزمخشري: وهذا بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه. (وقد خاب من افتري)

أي خسرو وهلك، وخاب من الرحمة والثواب من ادعى على الله ما لم يأذن به. قوله تعالى: فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى (٦٢) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٦٣) فأجمعوا كيدكم ثم أتتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى (٦٤)

قوله تعالى: (فتنازعوا أمرهم بينهم) أي تشاوروا، يريد السحرة. (وأسروا النجوى) قال قتادة " قالوا ": إن كان ما جاء به سحرا فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر، وهذا الذي أسروه. وقيل الذي أسروا قولهم " إن هذان لساحران " الآيات قاله السدي ومقاتل. وقيل الذي أسروا قولهم: إن غلبنا اتبعناه، قاله الكلبي، دليله من ظهر من عاقبة أمرهم. وقيل: كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى " ويلكم لا تفتروا على الله كذبا " [طه: ٦١]: ما هذا بقول ساحر. و " النجوى " المنجاة يكون اسما ومصدرا، وقد تقدم في " النساء " (٤) بيانه.

(١) الزيادة من كتب التفسير.

(٢) ويروى: (إلا مسحت) ومن وراه كذلك جعل معنى. (لم يدع) لم يتقار ومن وراه (إلا مسحتا) جعل (لم يدع) بمعنى لم يترك. ورفع (مجلف) بإضمار كأنه قال: أو هو مجلف.

(اللسان).

(٣) المجلف: الذي بقيت منه بقية.

(٤) راجع ج ٥ ص ٣٨٢ فما بعد.

قوله تعالى: (إن هذين لساحران) قرأ أبو عمرو " إن هذين لساحران ". ورويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة، وكذلك قرأ الحسن وسعيد

بن جبير

وإبراهيم النخعي وغيرهم من التابعين، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدري، فيما ذكر

النحاس. وهذه القراءة موافقة للأعراب مخالفة للمصحف. وقرأ الزهري والخليل بن أحمد

والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم: في رواية حفص عنه " إن هذان " بتخفيف

" إن " " لساحران " وابن كثير يشدد نون " هذان ". وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف

ومن فساد الأعراب، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران. وقرأ المدنيون والكوفيون:

" إن هذان " بتشديد " إن " " لساحران " فوافقوا المصحف وخالفوا الأعراب. قال

النحاس: فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، وروى عن عبد الله بن

مسعود

أنه قرأ " إن هذان إلا ساحران " وقال الكسائي في قراءة عبد الله: " إن هذان ساحران " بغير لام، وقال الفراء في حرف أبي " إن ذان إلا ساحران " فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف.

قلت: وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب الرد له، والنحاس في إعرابه، والمهدوي في تفسيره، وغيرهم أدخل كلام بعضهم في بعض. وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو: إني لأستحي من الله [تعالى] (١) أن أقرأ " إن هذان " .

وروى عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى " لكن الراسخون في العلم " (٢)

ثم قال: " والمقيمين " (٢) وفي " المائدة " " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون " (٢) [المائدة: ٦٩]

و " إن هذان لساحران " فقالت: يا بن أختي! هذا خطأ من الكاتب. وقال عثمان ابن عفان رضي الله عنه: في المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم. وقال أبان بن عثمان:

قرأت هذه الآية عند أبي عثمان بن عفان، فقال: لحن وخطأ، فقال له قائل: ألا تغيروه؟ فقال: دعوه فإنه لا يحرم حلالاً ولا يحلل حرماً. القول الأول من الأقوال الستة: أنها لغة بني

الحرث بن كعب وزبيد وختعم. وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه

بالألف،

(١) من ك: (٢) راجع ج ٦ ص ١٣، وص ٢٤٦. راجع ما نقله القرطبي في رد هذا الكلام
ج ٦ ص ١٥. وكان إغفال المصنف لهذا أولى لأنه قدح في خط المصحف المروى عن أئمة اللغة الثقات.

يقولون: جاء الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: " ولا أدراكم به " [يونس: ١٦]

على ما تقدم (١). وأنشد الفراء لرجل من بني أسد (٢) - قال: وما رأيت أفصح منه:

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى * مساعا لناباه الشجاع لصمما (٣)

ويقولون: كسرت يدها وركبت علاه، بمعنى يديه وعليه، قال شاعرهم: (٤)

تزود منا بين أذناه ضربة * دعته إلى هابي التراب عقيم

وقال آخر: (٥) * طاروا علاهن فطر علاها *

أي عليهن وعليها.

وقال آخر: (٦) إن أباه وأبا أباه * قد بلغا في المجد غايتها

أي إن أبا أبيها وغايتها. قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية،

إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته، منهم أبو زيد الأنصاري،

وهو الذي يقول: إذا قال سيبويه حدثني من أثق به فإنما يعنيني، وأبو الخطاب الأحمش وهو رئيس من رؤساء اللغة، والكسائي والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب.

وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أن هذه لغة بني كنانة. المهدي: وحكى غيره أنها لغة

لخثعم. قال النحاس ومن أبين ما في هذا قول سيبويه: وأعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين، الأولى منهما حرف مد ولين وهو حرف الاعراب، قال أبو جعفر فقول سيبويه: وهو حرف الاعراب، يوجب أن الأصل ألا يتغير، فيكون " إن هذان " جاء

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٠ فما بعد.

(٢) هو المتلمس كما في (اللسان).

(٣) صمم الشجاع في عضته: أي عض ونيب فلم يرسل ما عض.

(٤) هو هوبر الحارثي. والهابي

من التراب ما ارتفع ودق.

(٥) قيل: هو لبعض أهل اليمن وأن قبله:

أي قلوب ركب تراها * طاروا علاهن فطر علاها

واشدد بمتنى حقب حقواها * ناجية وناجيا أباه

والحقو: الخاصرة. والناجية: السريعة.

(٦) نسبه الجوهري لأبي النجم وأن قبله:

واها لسلمي ثم واها واها * هي المنى لو أننا نلناها

يا ليت عينها لنا وفاها * بثمان نرضى به أباه

إن أباه... الخ. ونسبه بعضهم لرؤبة. وقيل: لبعض أهل اليمن وأن قبله:

أي قلوب ركب تراها * طاروا علاهن... الخ.

(٢١٧)

على أصله ليعلم ذلك، وقد قال تعالى " استحوذ عليهم الشيطان " (١) [المجادلة: ١٩]
ولم يقل استحاذا، ف جاء
هذا ليدل على الأصل، وكذلك " إن هذان " ولا يفكر في إنكار من أنكر هذه اللغة إذ
كان
الأئمة قد رووها. القول الثاني: أن يكون " إن " بمعنى نعم، كما حكى الكسائي عن
عاصم
قال: العرب تأتي ب " - إن " بمعنى نعم، وحكى سيويه أن " إن " تأتي بمعنى أجل،
وإلى
هذا القول كان محمد بن يزيد وإسماعيل بن إسحاق القاضي يذهبان، قال النحاس:
ورأيت
أبا إسحاق الزجاج وعلي بن سليمان يذهبان إليه. الزمخشري: وقد أعجب به أبو
إسحاق.
النحاس: وحدثنا علي بن سليمان، قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام
النيسابوري،
ثم لقيت عبد الله بن أحمد [هذا] (٢) فحدثني، قال حدثني عمير بن المتوكل، قال
حدثنا محمد
ابن موسى النوفلي من ولد حرث بن عبد المطلب، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفي
عن جعفر
ابن محمد عن أبيه عن علي - وهو ابن الحسين - عن أبيه عن علي بن أبي طالب
رضوان الله
عليهم أجمعين، قال: لا أحصي كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على
منبره:
" إن الحمد لله نحمده ونستعينه " ثم يقول: " أنا أفصح قریش كلها وأفصحها بعدي
أبان
ابن سعيد بن العاص " قال أبو محمد الخفاف قال عمير: إعرابه عند أهل العربية والنحو
" إن الحمد
لله " بالنصب إلا أن العرب تجعل " إن " في معنى نعم كأنه أراد صلى الله عليه وسلم
نعم الحمد
لله، وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتح [في] (٣) خطبها بنعم. وقال الشاعر في
معنى نعم:
قالوا غدرت فقلت إن وربما * نال العلا وشفى الغليل الغادر
وقال عبد الله بن قيس الرقيات:
بكر العواذل في الصبا * ح يلمني وألومهنه

ويقلن شيب قد علا* ك وقد كبرت فقلت إنه
فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل: " إن هذان لساحران " بمعنى نعم ولا
تنصب.

قال النحاس: أنشدني داود بن الهيثم، قال أنشدني ثعلب:
ليت شعري هل للمحب شفاء* من جوى حبهن إن اللقاء

-
- (١) راجع ج ١٧ ص ٣٠٥.
(٢) الزيادة من (إعراب القرآن) للنحاس.
(٣) من ب و ج و ط و ك

قال النحاس: وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئاً لأنه إنما يقال: نعم زيد خارج، ولا تكاد تقع

اللام ها هنا، وإن كان النحويون قد تكلموا في ذلك فقالوا: اللام ينوي بها التقديم، كما قال:

خالي لأنت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الأخوالا
آخر:

أم الحليس لعجوز شهره * ترضى من الشاة بعظم الرقبة
أي لخالي ولام الحليس، وقال الزجاج: والمعنى في الآية إن هذان لهما ساحران ثم حذف

المبتدأ. المهدوي: وأنكره أبو علي وأبو الفتح بن جني. قال أبو الفتح: "هما" المحذوف

لم يحذف إلا بعد أن عرف، وإذا كان معروفاً فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام، ويقبح

أن تحذف المؤكد وتترك المؤكد. القول الثالث: قاله الفراء أيضاً [قال] (١): وجدت الألف دعامة

ليست بلام الفعل فزدت عليها نونا ولم أغيرها كما قلت: "الذي" ثم زدت عليه نونا فقلت:

جاءني الذين عندك، ورأيت الذين عندك، ومررت بالذين عندك. القول الرابع: قاله بعض

الكوفيين قال الألف في "هذان" مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير. القول الخامس: قال أبو إسحاق: النحويون القدماء يقولون الهاء ها هنا مضمرة، والمعنى إنه هذان لساحران، قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب "إن" و"هذان" خبر "إن" و"ساحران" يرفعها "هما" المضمرة [والتقدير] (٢) إنه هذان لهما ساحران. والأشبه (٣)

عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم "إن" و"هذان" رفع بالابتداء وما بعده خبر

الابتداء. القول السادس: قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية،

فقال: إن شئت أحببتك بجواب النحويين، وإن شئت أحببتك بقولي، فقلت: بقولك، فقال: سألني إسماعيل بن إسحاق عنها فقلت: القول عندي أنه لما كان يقال: "هذا"

في موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد أجريت

التثنية مجرى الواحد فقال: ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به، قال ابن كيسان: فقلت له: فيقول القاضي به حتى يؤنس به، فتبسم.

-
- (١) من ب و ج وط وك.
 - (٢) الزيادة يقتضيها السياق.
 - (٣) في ب وك: الا ثبت.

قوله تعالى: (يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) هذا من قول فرعون للسحرة، أي غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه، كما قال فرعون:

"إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد" (١) [غافر: ٢٦]. ويقال فلان حسن الطريقة

أي حسن المذهب. وقيل: طريقة القوم أفضل القول، وهذا الذي ينبغي أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به، فالمعنى: ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم، استمالة لهم. أو يذهبا ببني إسرائيل وهم الأمثال وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء. أو يذهبا بأهل طريقتم فحذف المضاف. و "المثلى" تأنيث الأمثل، كما يقال الأفضل

والفضلي. وأنت الطريقة على اللفظ، وإن كان يراد بها الرجال. ويجوز أن يكون التأنيث

على الجماعة. وقال الكسائي: "بطريقتكم" بسنتكم وسمتكم. و "المثلى" نعت كقولك

امرأة كبرى. تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم. قوله تعالى: (فأجمعوا كيدكم) الاجماع الاحكام والعزم على الشئ. تقول: أجمعت الخروج وعلى الخروج أي عزمت. وقراءة كل الأمصار "فأجمعوا" إلا أبا عمرو فإنه قرأ:

"فأجمعوا" بالوصل وفتح الميم. وأحتج بقوله تعالى: "فجمع كيده ثم أتى". قال النحاس:

وفيما حكى لي عن محمد بن يزيد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه،

وهي القراءة التي عليها أكثر الناس. قال: لأنه احتج ب " - جمع " وقوله عز وجل: "فجمع كيده" قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده "فأجمعوا" ويقرب أن يكون بعده "فأجمعوا"

أي اعزموا وجدوا، ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه. يقال: أمر مجمع

ومجمع عليه. قال النحاس: ويصح قراءة أبي عمرو "فأجمعوا" أي اجمعوا كل كيد لكم

وكل حيلة فضموه مع أخيه. وقاله أبو إسحاق. الثعلبي: القراءة بقطع الألف وكسر الميم

لها وجهان: أحدهما - بمعنى الجمع، تقول: أجمعت الشئ وجمعته بمعنى واحد، وفي الصحاح: وأجمعت الشئ جعلته جميعا، قال أبو ذؤيب يصف حمرا:

فكأنها بالجزع بين نبايع* وأولات ذي العرجاء نهب مجمع

-
- (١) راجع ج ١٥ ص ٣٠٤ فما بعد.
(٢) نبايع: اسم مكان أو جبل أو واد في بلاد هذيل ويجمع على (نبايعات).

أي مجموع. والثاني - أنه بمعنى العزم والاحكام، قال الشاعر:
يا ليت شعري والمنى لا تنفع * هل أغدون يوما وأمري مجمع *
أي محكم. (ثم اتوا صفا) قال مقاتل والكلبي: جميعا. وقيل: صفوفا ليكون أشد
لهيبتكم. وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبي عبيدة، قال يقال: أتيت الصف
يعني المصلى، فالمعنى عنده اتوا الموضع الذي تجتمعون فيه يوم العيد. وحكى عن
بعض

فصحاء العرب: ما قدرت أن آتي الصف، يعني المصلى. وقال الزجاج: يجوز أن يكون
المعنى ثم اتوا والناس مصطفون، فيكون على هذا مصدرا في موضع الحال. ولذلك لم
يجمع.

وقرئ: " ثم ايتوا " بكسر الميم وياء. ومن ترك الهمزة أبدل من الهمزة ألفا. (وقد أفلح
اليوم من استعلى) أي من غلب. وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض. وقيل:
من قول فرعون لهم.

قوله تعالى: قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من
ألقى (٦٥) قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم
أنها تسعى (٦٦) فأوجس في نفسه خيفة موسى (٦٧) قلنا لا تخف
إنك أنت الأعلى (٦٨) وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما
صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (٦٩) فألقى السحرة
سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى (٧٠) قال آمنتم له قبل أن آذن
لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم
من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد
عذابا وأبقى (٧١)

قوله تعالى: (قالوا يا موسى) يريد السحرة. (إما أن تلقى) عصاك من يدك (وإما أن نكون أول من ألقى) تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم. (قال بل ألقوا فإذا حبالهم) في الكلام حذف، أي فألقوا، دل عليه المعنى. وقرأ الحسن: (وعصيتهم) بضم العين. قال هارون القارئ: لغة بنى تميم "وعصيتهم" وبها يأخذ الحسن. الباقون بالكسر اتباعاً لكسرة الصاد. ونحوه دلي ودلي وقسي وقسي. (يخيل إليه من سحرهم أنها

تسعى). وقرأ ابن عباس وأبو حياة وابن ذكوان وروح عن يعقوب: "تخيل" بالتاء، وردوه إلى العصي والحبال إذ هي مؤنثة. وذلك أنهم لطحوا العصي بالزئبق، فلما أصابها حر الشمس ارتهشت واهتزت. قال الكلبي: خيل إلى موسى أن الأرض حياة وأنها تسعى على بطنها. وقرئ: "تخيل" بمعنى تتخيل وطريقه طريق "تخيل" ومن قرأ "يخيل"

بالياء رده إلى الكيد. وقرئ "نخيل" بالنون على أن الله هو المخيل للمحنة والابتلاء. وقيل:

الفاعل. "أنها تسعى" ف - "أن" في موضع رفع، أي يخيل إليه سعيها، قاله الزجاج. وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب، أي بأنها ثم حذف الباء. والمعنى في الوجه الأول:

تشبه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى. وقال الزجاج: ومن قرأ بالتاء جعل "أن"

في موضع نصب أي تخيل إليه ذات سعي. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع بدلا من الضمير في "تخيل" وهو عائد على الحبال والعصي، والبدل فيه بدل اشتمال. و "تسعى" معناه تمشي.

قوله تعالى: (فأوحس في نفسه خيفة موسى) أي أضمر. وقيل: وجد. وقيل: أحس. أي من الحيات وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم. وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه. وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق

الناس قبل ذلك فيفتنوا. وقال بعض أهل الحقائق: إن كان السبب أن موسى عليه السلام

لما التقى بالسحرة وقال لهم: "ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب" التفت فإذا

جبريل على يمينه فقال له يا موسى ترفق بأولياء الله. فقال موسى: يا جبريل هؤلاء سحرة

جاءوا بسحر عظيم ليبتلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردوا دين الله، تقول:

ترفق

(۲۲۲)

بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة. فلما قال له ذلك، أوجس في نفس موسى وخطر أن ما يدريني ما علم الله في،
فلعلي أكون الآن في حالة، وعلم الله في علي خلافها كما كان هؤلاء. فلما علم الله ما في قلبه
أوحى الله إليه " لا تخف إنك أنت الاعلى " أي الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلاء
في الجنة، للنبوة والاصطفاء الذي أتاك الله به. وأصل " خيفة " خوفاً فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء.
قوله تعالى: (وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا) (١) ولم يقل وألق عصاك، فجائز أن يكون
تصغيراً لها، أي لا تبال بكثرة جبالهم وعصيتهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك،
فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمتها. وجائز أن يكون تعظيماً لها
أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها
أقل شئ وأزره عندها، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها. و " تلقف " بالجزم جواب الامر،
كأنه قال: إن تلقه تتلقف، أي تأخذ وتبتلع. وقرأ السلمي وحفص: " تلقف " ساكنة اللام من لقف يلقف لقفاً. وقرأ ابن ذكوان وأبو حياة الشامي ويحيى بن الحرث " تلقف "
بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف. والخطاب لموسى. وقيل: للعصا. واللقف
الاحذ بسرعة، يقال: لقفت الشئ " بالكسر " ألقفه لقفاً، وتلقفته أيضاً أي تناولته بسرعة.
عن يعقوب: يقال رجل لقف ثقف أي خفيف حاذق. واللقف " بالتحريك " سقوط الحائط. ولقد لقف الحوض لقفاً أي تهور من أسفله وأتسع. وتلقف وتلقم وتلهم بمعنى. وقد مضى في (الأعراف) (٢). لقمتم اللقمة " بالكسر " لقمها، وتلقمتها إذا ابتلعها
في مهلة. وكذلك لهمه " بالكسر " إذا ابتلعه. " ما صنعوا " أي الذي صنعوه. وكذا (إنما صنعوا) أي إن الذي صنعوه " كيد " بالرفع " سحر " بكسر السين وإسكان الحاء،

وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما. وفيه وجهان: أحدهما - أن يكون الكيد مضافا إلى
السحر

(١) تلقف بالتشديد قراءة (نافع).

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٧ فما بعد.

على الاتباع من غير تقدير حذف. والثاني - أن يكون في الكلام حذف أي كيد ذي سحر.

وقرأ الباقون: " كيد " بالنصب (١) بوقوع الصنع عليه و " ما " كافة ولا تضر هاء " ساحر "

بالإضافة. والكيد في الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر. ويجوز فتح " أن "

على معنى لان ما صنعوا كيد ساحر. (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أي لا يفوز ولا ينجو

حيث أتى من الأرض. وقيل: حيث احتال. وقد مضى في (البقرة) (٢) حكم الساحر ومعنى

السحر فتأمله هناك.

قوله تعالى: (فألقي السحرة سجدا) لما رأوا من عظيم الامر وخرق العادة في العصا، فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي، وكانت حمل ثلاثمائة بعير ثم عادت عصا

لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصي إلا الله تعالى. وقد مضى في (الأعراف) (٣) هذا المعنى

وأمر العصا مستوفى. (قالوا آمنا برب هارون وموسى. قال آمنتم له) أي به، يقال: آمن له وآمن به، ومنه " فآمن له لوط " (٤) [العنكبوت: ٢٦] وفي الأعراف (قال آمنتم به قبل أن آذن لكم).

إنكار منه عليهم، أي تعديتهم وفعلتم ما لم آمركم به. (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر).

أي رئيسكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم. وإنما أراد فرعون بقول هذا ليشبه

على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى،

بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته. (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل. قال سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبدى في جذع نخلة * فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

فقطع وصلب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى. وقرأ ابن محيصن هنا وفي الأعراف " فلأقطعن "

" ولأصلبنكم " بفتح الألف والتخفيف من قطع وصلب. (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى)

يعني أنا أم رب موسى.

-
- (١) العبارة هنا على إطلاقها تفيد أن هذه قراءة الجمهور. والجمهور قرأ: (كيد ساحر) برفع (كيد) كما في (البحر) وغيره قال في البحر: وقرأ الجمهور: (كيد) بالرفع.
- (٢) راجع ج ٢ ص ٤٣ فما بعد.
- (٣) راجع ج ٧ ص ٢٥٩.
- (٤) راجع ج ١٣ ص ٣٣٩.

قوله تعالى: قالوا لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٧٣) إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى (٨٤) ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى (٧٥) جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى (٧٦)

قوله تعالى: (قالوا) يعني السحرة (لن نُؤثرك) أي لن نختارك (على ما جاءنا من البينات) قال ابن عباس: يريد من اليقين والعلم. وقال عكرمة وغيره: لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة، فلماذا قالوا: " لن نُؤثرك ". وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فقيل لها: غلب موسى وهرون، فقالت: آمنت برب موسى وهرون. فأرسل إليها فرعون فقال: أنظروا أعظم صخرة فإن مضت (١) على قولها فألقوها عليها، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها في الجنة، فمضت على قولها فانزع روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس في جسدها (٢) روح. وقيل: قال مقدم السحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى: انظر إلى هذه الحية هل تخوفت؟ (٣) فتكون جنياً أو لم تتخوف فهي من صنعة الصانع الذي لا يعزب عليه مصنوع، فقال: ما تخوفت، فقال: آمنت برب هارون وموسى. (والذي فطرنا) قيل: هو معطوف على " ما جاءنا من البينات " أي لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا أي خلقنا. وقيل: هو قسم أي والله لن نُؤثرك. (فاقضي ما أنت قاض) التقدير: ما أنت قاضيه. وليست " ما " هنا التي تكون مع الفعل بمنزلة المصدر، لان تلك توصل بالافعال، وهذه موصولة بابتداء وخبر.

(١) في ب وا و ج و ط و ك: مرت.
(٢) في ا و ب و ط و ك و ي: وليس فيها روح.
(٣) في ب و ج و ط: (تخوفت أو لم تتخوف - ما تخوفت) بالجيم.

قال ابن عباس: فاصنع ما أنت صانع. وقيل: فاحكم ما أنت حاكم، أي من القطع والصلب.

وحذفت الياء من قاض في الوصل لسكونها وسكون التنوين. واختار سيبويه إثباتها في الوقف

لأنه قد زالت علة [التقاء] (١) الساكنين. (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أي إنما ينفذ أمرك

فيها. وهي منصوبة على الظرف، والمعنى: إنما تقضى في متاع هذه الحياة الدنيا. أو وقت هذه

الحياة الدنيا، فتقدر حذف المفعول. ويجوز أن يكون التقدير: إنما تقضى أمور هذه الحياة

الدنيا، فتنتصب انتصاب المفعول و " ما " كافة لان. وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل " ما "

بمعنى الذي وتحذف الهاء من تقضي ورفعت " هذه الحياة الدنيا ". (إنا آمنة بربنا) أي صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى. (ليغفر لنا خطايانا) يريدون الشرك

الذي كانوا عليه. (وما أكرهتنا عليه من السحر) " ما " في موضع نصب معطوفة على الخطايا.

وقيل: لا موضع لها وهي نافية، أي ليغفر لنا خطايانا من السحر وما أكرهتنا عليه. النحاس:

والأول أولى. المهدوي: وفيه بعد، لقولهم: " إن لنا لاجرا إن كنا نحن الغالبين " (٢) وليس

هذا بقول مكرهين، ولأن الاكراه ليس بذنب، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه

صغارا. قال الحسن: كانوا يعلمون السحر أطفالا ثم عملوه مختارين بعد. ويجوز أن يكون

" ما " في موضع رفع بالابتداء ويضم الخبر، والتقدير: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع

عنا. و " من السحر " على هذا القول والقول الأول يتعلق ب " - أكرهتنا ". وعلى أن " ما " نافية يتعلق ب " - خطايانا ". (والله خير وأبقى) أي ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف،

قاله ابن عباس. وقيل: الله خير لنا منك وأبقى عذابا لنا من عذابك لنا وهو جواب قوله: " ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى " وقيل: الله خير لنا إن أطعناه، وأبقى عذابا منك إن عصيناه.

قوله تعالى: (إنه من يأت ربه مجرماً) قيل: هو من قول السحرة لما آمنوا.
وقيل: ابتداء كلام من الله عز وجل. والكناية في "إنه" ترجع إلى الأمر والشأن.
ويجوز

إن من يأت، ومنه قول الشاعر:
إن من يدخل الكنيسة يوماً* يلق فيها جاذراً وظباء (٣)

(١) من ب و ج وط وك وى.

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٨.

(٣) البيت للأخطل وهو نصراني.

أراد إنه من يدخل، أي أن الامر هذا، وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة.

والمجرم الكافر. وقيل: الذي يقترب المعاصي ويكتسبها. والأول أشبه لقوله تعالى: (فإن له

جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) وهذه صفة الكافر المكذب الجاحد - على ما تقدم بيانه في سورة (النساء) (١) وغيرها - فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته. قال الشاعر:
ألا من لنفس لا تموت فينقضي * شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وقيل: نفس الكافر معلقة في حنجرتة أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها. ومعنى. (من يأت ربه مجرما) من يأت موعد ربه. ومعنى (ومن يأتته مؤمنا) أي يمت عليه ويوافيه مصدقا به. (قد عمل) أي وقد عمل " الصالحات " أي الطاعات وما أمر به ونهى عنه. (فأولئك لهم الدرجات العلا) أي الرفيعة التي قصرت دونها الصفات. ودل قوله: " ومن يأتته مؤمنا " على أن المراد بالمجرم المشرك.

قوله تعالى: (جنات عدن) بيان للدرجات وبدل منها، والعدن الإقامة. وقد تقدم (٢) بيانه. (تجري من تحتها) أي من تحت غرفها وسررها (الأنهار) من الخمر والعسل واللبن والماء. وقد تقدم. (خالدين فيها) أي ماكثين دائمين. (وذلك جزاء من تزكى) أي من تطهر من الكفر والمعاصي. ومن قال هذا من قول السحرة قال: لعل السحرة سمعوه

من موسى أو من بني إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون.

قلت: ويحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا، والله أعلم. قوله تعالى: ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم

طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (٧٧) فأتبعهم فرعون

بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم (٧٨) وأضل فرعون قومه وما هدى (٧٩)

قوله تعالى: (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي) تقدم الكلام في هذا مستوفى. (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا) أي يابسا لا طين فيه ولا ماء. وقد مضى في (البقرة) (٣)

(١) راجع ج ٥ ص ٢٥٣.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٩٦.

(٣) راجع ج ١ ص ٣٨٩ فما بعد.

ضرب موسى البحر وكنيته إياه وإغراق فرعون فلا معنى للإعادة. (لا تخاف دركا)
أي لحاقا من فرعون وجنوده. " ولا تخشى " قال ابن جريج قال أصحاب موسى [له]
(١): هذا فرعون

قد أدركنا، وهذا البحر قد غشنا، فأنزل الله تعالى: " لا تخاف دركا ولا تخشى " أي
لا تخاف

دركا من فرعون ولا تخشى غرقا من البحر أن يمسك إن غشيك. وقرأ حمزة " لا
تخف "

على أنه جواب الامر. التقدير إن تضرب لهم طريقا في البحر لا تخف. و " لا تخشى "
مستأنف على تقدير: ولا أنت تخشى. أو يكون مجزوما والألف مشبعة من فتحة،
كقوله:

" فأضلونا السبيلا " (٢) [الأحزاب: ٦٧] أو يكون على حد قول الشاعر: (٣)
* كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا *

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح. وهذا مذهب الفراء. وقال
آخر:

هجوت زبان ثم جئت معذرا * من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

وقال آخر (٤): ألم يأتيك والانباء تنمي * بما لاقت لبون بني زياد

قال النحاس: وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من
الشعر،

وأیضا فإن الذي جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا، لان الياء والواو مخالفتان
للألف،

لأنهما تتحركان والألف لا تتحرك، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم
تحذف

الحركة للجزم، وهذا محال في الألف، والقراءة الأولى أبين لان بعده " ولا تخشى "
مجمع

عليه بلا جزم، وفيها ثلاث تقديرات: الأول - أن يكون " لا تخاف " في موضع الحال
من المخاطب، التقدير: فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا غير خائف ولا خاش. الثاني
أن يكون في موضع النعت للطريق، لأنه معطوف على يبس الذي هو صفة، ويكون
التقدير:

لا تخاف فيه، فحذف الراجع من الصفة. والثالث - أن يكون منقطعا خبر ابتداء
محذوف

تقديره: وأنت لا تخاف.

(١) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.

(٢) راجع ج ١٤ ص ٢٤٩.

(٣) هو عبد يغوث بن وقاص من شعراء الجاهلية. و صدر البيت:

* وتضحك مني شيخة عبشمية *

(٤) البيت من أبيات لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي وكان قد نشأت بينه وبين الربيع بن زياد شحناء في شأن درع فاستاق إبل الربيع وباعها بمكة من عبد الله بن جدعان القرشي.

قوله تعالى: (فأتبعهم فرعون بجنوده) أي أتبعهم ومعه جنوده، وقرئ " فاتبعهم " بالتشديد فتكون الباء في " بجنوده " عدت الفعل إلى المفعول الثاني، لان اتبع يتعدى إلى

مفعول واحد. أي تبعهم ليلحقهم بجنوده أي مع جنوده كما يقال: ركب الأمير بسيفه أي مع

سيفه. ومن قطع " فأتبع " يتعدى إلى مفعولين: فيجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد. يقال: تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد. وقوله: " بجنوده " في موضع الحال، كأنه قال: فأتبعهم سائقا جنوده. (فغشيه من اليم ما غشيه)

أي أصابهم من البحر ما غرقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالامر. (وأضل فرعون

قومه وما هدى) أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجا، لأنه قدر أن موسى

عليه السلام ومن معه لا يفوتونه، لان بين أيديهم البحر. فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا وبين الطرق الماء قائما كالجبال. وفي سورة الشعراء: " فكان كل فرق كالطود العظيم " (١) أي الجبل الكبير، فأخذ كل سبط طريقا. وأوحى الله إلى أطواد

الماء أن تشبكي فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض، فكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق في البحر والماء

قائما أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيئته، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم. وقيل إن

قوله: " وما هدى " تأكيد لاضلاله إياهم. وقيل: هو جواب قول فرعون: " ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد " (٢) [غافر: ٢٩] فكذبه الله تعالى. وقال ابن عباس " وما هدى "

أي ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه.

قوله تعالى: يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى (٨٠) كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى (٨١) وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٨٢)

(١) راجع ج ١٣ ص ١٠٠ فما بعد.
(٢) راجع ج ١٥ ص ٣٠٥ فما بعد.

قوله تعالى: (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليذكروه. (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) "جانب" نصب على المفعول الثاني ل "واعدنا" ولا يحسن أن ينتصب على الظرف، لأنه ظرف مكان محض غير مبهم. وإنما

تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة. قال مكي:

هذا أصل لا خلاف فيه، وتقدير الآية. وواعدناكم إتيان جانب الطور، ثم حذف المضاف.

قال النحاس: أي أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام.

وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لان الوعد كان لأجلهم. وقرأ أبو عمرو "وواعدناكم" بغير

ألف واختاره أبو عبيد، لان الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة، والمواعدة لا تكون

إلا من اثنين. وقد مضى في (البقرة) (١) هذا المعنى. و "الأيمن" نصب، لأنه نعت للجانب

وليس للجبل يمين ولا شمال، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل.

وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه. (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أي في التيه. وقد تقدم

القول فيه (٢). (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أي من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله إذ لا صنع

فيه لآدمي فتدخله شبهة. (ولا تطغوا) أي لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا، لان الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز. وقيل: المعنى، أي لا تكفروا النعمة ولا تنسوا [شكر النعم ولا شكر] (٢) المنعم بها عليكم. وقيل: أي ولا تستبدلوا بها شيئاً آخر كما قال: "أستبدلون

الذي هو أدنى بالذي هو خير" (٢) [البقرة: ٦١] وقيل: لا تدخروا منه لأكثر من يوم وليلة، قال

ابن عباس: فيتدود عليهم ما ادخروه، ولولا ذلك ما تدود طعام أبدا. (فيحل عليكم غضبي)

أي يجب وينزل، وهو منصوب بالفاء في جواب النهي من قوله: "ولا تطغوا". (فيحل

عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب
والكسائي:
" فيحل " بضم الحاء (ومن يحلل) بضم اللام الأولى. والباقون بالكسر وهما لغتان.
وحكى

(١) راجع ج ١ ص ٣٩٤ وص ٤٠٦.
(٢) من ب و ط وى.

أبو عبيدة وغيره: أنه يقال حل يحل إذا وجب وحل يحل إذا نزل. وكذا قال الفراء:
الضم
من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب. والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى،
لأنهم
قد أجمعوا على قوله: " ويحل عليه عذاب مقيم " (١) [هود: ٣٩]. وغضب الله عقابه
ونقمته وعذابه.

" فقد هوى " قال الزجاج: فقد هلك، أي صار إلى الهاوية وهي قعر النار، من هوى
يهوي

هويًا أي سقط من علو إلى سفلى، وهوى فلان أي مات. وذكر ابن المبارك: أخبرنا
إسماعيل بن عياش قال حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شفي الأصبحي
(٢) قال:

إن في جهنم جبلا يدعى صعودا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه، قال الله
تعالى:

" سأرهقه صعودا " (٣) [المدثر: ١٧] وإن في جهنم قصرا يقال له هوى يرمى الكافر
من أعلاه فيهوي أربعين

خريفا قبل أن يبلغ أصله (٤) قال الله تعالى " ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى " وذكر
الحديث، وقد ذكرناه في كتاب " التذكرة ".

قوله تعالى: (وإني لغفار لمن تاب) أي من الشرك. (وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)
أي أقام على إيمانه حتى مات عليه، قاله سفيان الثوري وقتادة وغيرهما. وقال ابن
عباس:

أي لم يشك في إيمانه، ذكره الماوردي والمهدوي. وقال سهل بن عبد الله التستري
وابن

عباس أيضا: أقام على السنة والجماعة، ذكره الثعلبي. وقال أنس: أخذ بسنة النبي صلى
الله

عليه وسلم ذكره المهدوي، وحكاه الماوردي عن الربيع بن أنس. وقول خامس:
أصاب

العمل، قاله ابن زيد، وعنه أيضا تعلم العلم ليتهدي كيف يفعل، ذكر الأول المهدوي،
والثاني

الثعلبي. وقال الشعبي ومقاتل والكلبي: علم أن لذلك ثوبا وعليه عقابا، وقاله الفراء.
وقول ثامن: " ثم اهتدى " في ولاية أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، قاله ثابت
البناني.

والقول الأول أحسن هذه الأقوال - إن شاء الله - وإليه يرجع سائرهما. قال وكيع عن
سفيان: كنا نسمع في قوله عز وجل: " وإني لغفار لمن تاب " أي من الشرك " وآمن "

أي بعد الشرك " وعمل صالحا " صلى وصام " ثم أهتدي " مات على ذلك.

-
- (١) راجع ج ٩ ص ٣٣.
(٢) بالتصغير بن ماتع (بالتاء المثناة الفوقية) الأصبحي.
(٣) راجع ج ١٩ ص ٧٢.
(٤) في ك: قعره.

قوله تعالى: وما أعجلك عن قومك يا موسى (٨٣) قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى (٨٤) قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدى (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى (٨٨) أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا (٨٩) قوله تعالى: (وما أعجلك عن قومك يا موسى) أي ما حملك على أن تسبقهم. قيل: عنى بالقوم جميع بني إسرائيل، فعلى هذا قيل: استخلف هارون على بني إسرائيل، وخرج

معه بسبعين رجلا للميقات. فقوله: (هم أولاء على أثري) ليس يريد أنهم يسرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم. وقيل: لا بل كان أمر هارون بأن يتبع في بني إسرائيل أثره ويلتحقوا به. وقال قوم: أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله. [عز وجل] (١)

وقيل: لما وفد إلى طور سينا بالوعد اشتاق إلى ربه وطالت عليه المسافة من شدة الشوق

إلى الله تعالى، فضايق به الامر حتى شق قميصه، ثم لم يصبر حتى خلفهم ومضى وحده،

فلما وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى: " وما أعجلك عن قومك يا موسى " فبقي صلى الله

عليه وسلم متحيرا عن الجواب [لهذه (٢) الكلمة لما استقبله من صدق الشوق فأعرض عن

الجواب] وكنى عنه بقوله: " هم أولاء على أثري " وإنما سأله السبب الذي أعجله بقوله " ما " فأخبر عن مجيئهم بالأثر. ثم قال: (وعجلت إليك رب لترضى) فكنى عن

(١) من ى. وفي ك: تعالى.
(٢) من اوب و ج و ز و ط و ك و ى.

ذكر الشوق وصدقه (١) إلى ابتغاء الرضا. ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: "وعجلت

إليك رب لترضى" قال: شوقا. وكانت عائشة رضي الله عنها إذا آوت إلى فراشها تقول:

هاتوا المجيد. فتؤتى بالمصحف فتأخذه في صدرها وتنام معه تتسلى بذلك، رواه سفيان

عن معسر عن عائشة رضي الله عنها. وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه

وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول: "إنه حديث عهد بربي" فهذا من الرسول صلى الله عليه

وسلم وممن بعده من قبيل الشوق، ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه: "طال شوق

الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشوق". وقال ابن عباس: كان الله عالما ولكن قال: "وما أعجلك عن قومك" رحمة لموسى، وإكراما له بهذا القول، وتسكينا لقلبه، ورقة (٢) عليه،

فقال مجيبا لربه: "هم أولاء على أثري". قال أبو حاتم قال عيسى: بنو تميم يقولون: "هم أولى" مقصورة مرسله، وأهل الحجاز يقولون "أولاء" ممدودة. وحكى الفراء "هم أولاء على أثري" وزعم أبو إسحاق الزجاج: أن هذا لا وجه له. قال النحاس: وهو كما قال، لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هداي. ولا يخلو من إحدى جهتين:

إما أن يكون اسما مبهما فإضافته محال، وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا، لأن

ما بعده من تمامه وهو معرفة. وقرأ ابن أبي إسحاق ونصر ورويس عن يعقوب "على إثري" بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر، لغتان. "وعجلت إليك رب لترضى"

أي عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني. يقال: رجل عجل وعجل وعجول

وعجلان بين العجلة، والعجلة خلاف البطء.

قوله تعالى: (فإننا قد فتنا قومك من بعدك) أي اختبرناهم وامتحانهم بأن يستدلوا على الله عز وجل. (وأضلهم السامري) أي دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها. وقيل: فتناهم ألقيناهم في الفتنة: أي زينا لهم عبادة العجل، ولهذا قال موسى: "إن هي إلا فتنتك" (٣) [الأعراف: ١٥٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامري من قوم يعبدون البقر (٤)، فوقع بأرض

مصر

فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر. وقيل: كان رجلا

(١) في ب و ج وك وى: وصرفه.

(٢) المراد بالرقعة هنا التعطف.

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٩٤ فما بعد.

(٤) أي من أهل الهند كما في بعض الاخبار.

من القبط، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل،

من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

قوله تعالى: (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) حال وقد مضى في (الأعراف) (١) بيانه مستوفى. (قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسناً) وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا

على طاعته، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى، ليعملوا بما فيها فيستحقوا

ثواب عملهم. وقيل: وعدهم النصر والظفر. وقيل: وعده قوله: " وإني لغفار لمن تاب وآمن " الآية. (أفطال عليكم العهد) أي أفنسيتم، كما قيل، والشئ قد ينسى لطول العهد.

(أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) " يحل " أي يجب وينزل. والغضب العقوبة والنقمة.

والمعنى: أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله بكم، لأن أحداً لا يطلب

غضب الله (٢)، بل قد يرتكب ما يكون سبباً للغضب. (فأخلفتم موعدي) لأنهم وعده أن

يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور. وقيل: وعدهم على أثره للميقات

فتوقفوا. (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) بفتح الميم، وهي قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر.

قال مجاهد والسدي: ومعناه بطاقتنا. ابن زيد: لم نملك أنفسنا أي كنا مضطرين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " بملكنا " بكسر الميم. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لأنها اللغة

العالية. وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً. والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف، كأنه قال: بملكنا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ. وقرأ حمزة والكسائي:

" بملكنا " بضم الميم والمعنى بسلطاننا. أي لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك. ثم قيل قوله:

" قالوا " عام يراد به الخاص، أي قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور:

" ما أخلفنا موعدك بملكنا " وكانوا اثني عشر ألفاً وكان جميع بني إسرائيل ستمائة

ألف.
(ولكننا حملنا) بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة، قرأه نافع وابن كثير وابن عامر
وحفص
ورويس. الباقون بفتح الحرفين خفيفة. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لأنهم حملوا حلي
القوم

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٦ فما بعد.
(٢) في ب و ج و ز و ط و ك: غضب الرب.

معهم وما حملوه كرها. (أوزارا) أي أثقالا (من زينة القوم) أي من حليهم، وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة. وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون، لما قذفهم البحر إلى الساحل. وسميت أوزارا بسبب أنها كانت آثاما. أي لم يحل لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم، وأيضا فالأوزار هي الأثقال في اللغة. (فقدناها) أي ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحلي فقذفناه في النار ليزوب، أي طرحناه فيها. وقيل: طرحناه إلى السامري لترجع فترى فيها رأيك. قال قتادة:

إن السامري قال لهم حين استبطأ القوم موسى: إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلي، فجمعوه ودفعوه إلى السامري فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام. وقال معمر: الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضة صار عجلا جسدا له خوار. والخوار صوت البقر.

وقال ابن عباس: لما انسكبت الحلي في النار، جاء السامري وقال لهارون: يا نبي الله أولقي ما في يدي - وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي - فقذف التراب فيه، وقال:

كن عجلا جسدا له خوار، فكان كما قال للبلاء والفتنة، فخار خورة واحدة لم يتبعها مثلها.

وقيل: خواره وصوته كان بالريح، لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الريح في جوفه خار ولم تكن فيه حياة. وهذا قول مجاهد. وعلى القول الأول كان عجلا من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسدي. وروى حماد عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مر هارون بالسامري وهو يصنع العجل فقال: ما هذا؟ فقال: ينفع ولا يضر، فقال: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، فقال: اللهم إني أسألك أن يخور. وكان إذا خار سجدوا، وكان الخوار من أجل دعوة هارون. قال ابن عباس: خار كما يخور الحي من العجول. وروى أن موسى قال: يا رب هذا السامري أخرج لهم عجلا جسدا له خوار

من
عليه
عليهم، فمن جعل الجسد والخوار؟ قال الله تبارك وتعالى: أنا. قال موسى صلى الله
وسلم: وعزتك وجلالك وارتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلهم غيرك. قال: صدقت يا
حكيم

الحكماء. وقد تقدم هذا كله في سورة (الأعراف) (١). (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) أي قال السامري ومن (٢) تبعه وكانوا ميالين إلى التشبيه، إذ قالوا " اجعل لنا إلهًا كما لهم

آلهة " (١). الأعراف: ١٣٨ " (فنسي) أي فضل موسى [وذهب] (٣) بطلبه فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق

إلى ربه. وقيل: معناه فتركه موسى هنا وخرج يطلبه. أي ترك موسى إلهه هنا. وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: أي فنسي موسى أن يذكر لكم أنه إلهه.

وقيل: الخطاب خبر عن السامري. أي ترك السامري ما أمره به موسى من الإيمان فضل،

قاله ابن الأعرابي. فقال الله تعالى محتجا عليهم: " أفلا يرون " أي يعتبرون ويتفكرون. في (أن) - ه (لا يرجع إليهم قولاً) أي لا يكلمهم. وقيل: لا يعود إلى الخوار والصوت. (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعاً) فكيف يكون إلهاً؟! والذي يعبده موسى صلى الله عليه وسلم

يضر وينفع ويثيب ويعطى ويمنع. و " أن لا يرجع " تقديره أنه لا يرجع فلذلك ارتفع الفعل

فخففت " أن " وحذف الضمير. وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن. قال في فتية من سيوف الهند قد علموا * أن هالك كل من يحفى وينتعل وقد يحذف (٤) مع التشديد، قال:

فلو كنت ضيباً عرفت قرابتي * ولكن زنجي عظيم المشافر أي ولكنك.

قوله تعالى: ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري (٩٠) قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى (٩١) قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا (٩٢) ألا تتبعن أف عصيت أمري (٩٣)

قوله تعالى: (ولقد قال لهم هارون من قبل) أي من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم (يا قوم إنما فتنتم به) أي ابتليتم وأضللتهم به، أي بالعجل. (وإن ربكم الرحمن)

لا العجل. (فاتبعوني) في عبادته. (وأطيعوا أمري) لا أمر السامري. أو فاتبعوني في مسيري

إلى موسى ودعوا العجل. فعصوه و (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) أي لن نزال مقيمين على عبادة العجل (حتى يرجع إلينا موسى) فينظر هل يعبده كما عبدناه، فتوهموا أن موسى

يعبد العجل، فاعتزلهم هارون في أثني عشر ألفا، الذين (١) لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى

وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه: هذا صوت الفتنة،

فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا و (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم

ضلوا) أي أخطئوا الطريق وكفروا. (ألا تتبعن) " لا " زائدة أي أن تتبع أمري ووصيتي. وقيل: ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم. وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أنني لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم. وقيل: ما منعك من اللحوق بي لما فتنوا. (أف عصيت

أمري) يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي، قاله ابن عباس. وقيل: معناه هلا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريرا لهم وزجرا. ومعنى: " أف عصيت أمري " قيل: إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه " وقال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين " (٢) [الأعراف: ١٤٢]، فلما أقام معهم ولم يبالغ في منعهم

والإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره.

مسألة - وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه كحكمهم. وقد مضى هذا المعنى في آل عمران

والنساء والمائدة والانعام والأعراف والأنفال. وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله:

ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأعلم - حرس الله مدته - أنه أجمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون

بالقضيبي على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه، ويحضرون شيئا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين، [يرحمكم الله] (٣)

وهذا القول الذي يذكرونه

-
- (١) كذا في ب و ج وط وى. والذي في ا: من الذين.
(٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٧.
(٣) من ب وط وى.

يا شيخ كف عن الذنوب * قبل التفرق والزلل
واعمل لنفسك صالحا * ما دام ينفك العمل
أما الشباب فقد مضى * ومشيب رأسك قد نزل
وفي مثل هذا ونحوه (١). الجواب: - يرحمك الله - مذهب الصوفية بطالة وجهالة
وضلالة،
وما الاسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب
السامري، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو
دين
الكفار وعباد العجل، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن
كتاب
الله تعالى، وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على
رؤوسهم الطير من
الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل
لاحد
يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك
وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق.
قوله تعالى: قال بينوؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت
أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي (٩٤) قال فما خطبك
يا سامري (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر
الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي (٩٦) قال فأذهب فإن لك
في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى
إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا (٩٧)
إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما (٩٨)
قوله تعالى: (يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) ابن عباس: أخذ شعره يمينه
ولحيتته بيساره، لان الغيرة في الله ملكته، أي لا تفعل هذا فيتوهموا أنه منك استخفاف

(١) في ب و ج و ط و ك: وجوه.

أو عقوبة. وقد قيل: إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه. وقد مضى هذا في (الأعراف) (١) مستوفى. والله عز وجل

أعلم بما أراد نبيه عليه السلام. (إني خشيت أن تقول فرقت بين بيني إسرائيل) أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم فلو خرجت لاتبعني قوم ويتخلف

مع العجل قوم، وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء، وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلومني على ذلك. وهذا جواب هارون لموسى السلام عن قوله "أف عصيت أمري" وفي الأعراف "إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء" (١) [الأعراف: ١٥٠] لأنك أمرتني

أن أكون معهم. وقد تقدم. ومعنى (ولم ترقب قولي) لم تعمل بوصيتي في حفظ [-] هم، لأنك

أمرتني أن أكون معهم] (٢)، قاله مقاتل. وقال أبو عبيدة: لم تنتظر عهدي وقدمي. فتركه موسى ثم

أقبل على السامري ف (- قال فما خطبك يا سامري) أي، ما أمرك وشأنك، وما الذي حملك

على ما صنعت؟ قال قتادة: كان السامري عظيماً في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ولكن

عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على

أصنام لهم " قالوا يا موسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة " (١) [الأعراف: ١٣٨] فاغتنمها السامري وعلم أنهم يميلون

إلى عبادة العجل فاتخذ العجل. ف " - قال " السامري مجيباً لموسى: " بصرت بما لم يبصروا به "

يعني: رأيت ما لم يروا، رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة، فألقى في نفسي أن أقبض

من أثره قبضة، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم فلما سألك أن تجعل لهم إلهاً

زينت لي نفسي ذلك. وقال علي رضي الله عنه: لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام

إلى السماء، أبصره السامري من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس. وقيل قال السامري:

رأيت جبريل على الفرس وهي تلقي خطوها مد البصر فألقي في نفسي أن أقبض من

أثرها فما
ألقىته على شئ إلا صار له روح ودم. وقيل: رأى جبريل يوم نزل على رمكة (٣) وديق،
فتقدم
خيل فرعون في ورود البحر. ويقال: إن أم السامري جعلته حين وضعت في غار خوفا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٩ فما بعد وص ٢٨٦ وص ٢٥٣.

(٢) من ب و ج وط وك.

(٢) الرمكة: الفرس والبرذونة التي تتخذ النسل معرب. وهي هنا الفرس. والوديق: التي تشتهي الفحل.

من أن يقتله فرعون، فجاءه جبريل عليه السلام، فجعل كف السامري في فم السامري،
فوضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذ. وقد تقدم هذا المعنى في " الأعراف
" (١).

ويقال: إن السامري سمع كلام موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شمع
أحدهما ثور

والآخر فرس فألقاهما في النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر
في النيل

فأتى به الثور على قرنه، فتكلم السامري بذلك الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى
القبضة

في جوف العجل فحار. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وخلف: " بما لم تبصروا "
بالتاء على

الخطاب. الباقرن بالياء على الخبر. وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة
فقبضت

قبضة " بصاد غير معجمة. وروي عن الحسن ضم القاف من " قبضة " والصاد غير
معجمة. الباقرن: (قبضت قبضة) بالصاد المعجمة. والفرق بينهما أن القبض بجميع

الكف، والقبض بأطراف الأصابع، ونحوهما الخضم والقضم، والقبضة بضم القاف
القدر

المقبوض، ذكره المهدوي. ولم يذكر الجوهري " قبضة " بضم القاف والصاد غير
معجمة،

وإنما ذكر " القبضة " بضم القاف والصاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شيء، يقال:
أعطاه قبضة من سويق أو تمر أي كفا منه، وربما جاء بالفتح. قال: والقبض بكسر
القاف

والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس، قال الكميت:

لكم مسجدا لله المزوران والحصى * لكم قبضه من بين أثرى وأقترى (٢)
(فنبذتها) أي طرحتها في العجل.

(وكذلك سولت لي نفسي) أي زينته، قاله الأخفش. وقال ابن زيد: حدثني
نفسى. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: (قال فأذهب) أي قال له موسى فأذهب أي من بيننا (فإن لك في الحياة
أن تقول لا مساس) أي لا أمس ولا أمس طول الحياة. فنفاه موسى عن قومه وأمر بني
إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. [والله أعلم] (٣) قال الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله * ألا لا يريد السامري مساسا

- (١) راجع ج ٧ ص ٢٧٤.
(٢) أي من بين مثر ومقل.
(٣) من ك.

قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة، وكان الله عز وجل شدد عليه المحنة، بأن جعله لا يماس أحدا

ولا يمكن من أن يمسه أحد، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا. ويقال: ابتلى بالوسواس وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة: بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك - لا مساس -

وإن مس واحد من غيرهم أحدا منهم حم كلاهما في الوقت. ويقال: إن موسى هم بقتل

السامري، فقال الله تعالى له: لا تقتله فإنه سخي. ويقال لما قال له موسى: " فاذهب فإن

لك في الحياة أن تقول لا مساس " خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش،

لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالفائل: لا مساس، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه، كما قال الشاعر:

حمال رايات بها قناعسا* حتى تقول الأزد لا مسابسا (١)

مسألة: هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا، وقد فعل النبي

صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة (٢) الذين خلفوا. ومن التجأ إلى الحرم وعليه

قتل لا يقتل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى، وهو إرهاب إلى الخروج.

ومن هذا القبيل التغريب في حد الزنى، وقد تقدم جميع هذا كله في موضعه، فلا معنى لإعادته.

والحمد لله وحده. وقال هارون القارئ: ولغة العرب لا مساس بكسر السين وفتح الميم،

وقد تكلم النحويون فيه، فقال سيبويه: هو مبني على الكسر كما يقال اضرب الرجل. وقال

أبو إسحاق: لا مساس نفي وكسرت السين لان الكسرة من علامة التأنيث، تقول: فعلت

يا امرأة (٣). قال النحاس وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: إذا

أعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى، وإذا أعتل من جهتين وجب ألا ينصرف، لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء، فمساس ودراك أعتل من ثلاث جهات: منها أنه

معدول، ومنها أنه مؤنث، وأنه معرفة، فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين، كما تقول: اضرب الرجل. ورأيت أبا إسحاق

(١) كذا في الأصول ولم نقف عليه.

(٢) في ك: وصاحبيه.

(٣) كذا في النحاس. والذي في الأصول: فعلت المرأة.

يذهب إلى أن هذا القول خطأ، وألزم أبا العباس إذا سمي أمره بفرعون بينيه، وهذا لا يقوله أحد. وقال الجوهر في الصحاح: وأما قول العرب لا مساس مثل قظام فإنما

بني
على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المس. وقرأ أبو حياة " لا مساس ". (وإن لك موعدا لن تخلفه) يعني يوم القيامة. والموعود مصدر، أي إن لك وعدا لعذابك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: " تخلفه " بكسر اللام وله معنيان: أحدهما - ستأتيه ولن تجده مخلفا،

كما تقول: أحمدته أي وجدته محمودا. والثاني - على التهديد أي لا بد لك من أن تصير

إليه. الباقون بفتح اللام، بمعنى: إن الله لن يخلفك إياه. قوله تعالى: (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه) أي دمت وأقمت عليه. " عاكفا " أي ملازما، وأصله ظلت، قال: (١)
خلا أن العتاق من المطايا * أحسن به فهن إليه شوس
أي أحسن. وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل. وفي قراءة ابن مسعود: " ظلت "

بكسر الظاء. يقال: ظلت أفعل كذا إذا فعلته نهارا وظلت وظلت، فمن قال: ظلت حذف اللام الأولى تخفيفا، ومن قال: ظلت ألقى حركة اللام على الظاء. (لنحرقنه) قراءة العامة بضم النون وشد الراء من حرق يحرق. وقرأ الحسن وغيره: بضم النون وسكون

الحاء وتخفيف الراء من أحرقه يحرقه. وقرأ علي وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصة وأشهب

العقيلي " لنحرقنه " بفتح النون وضم الراء خفيفة، من حرقت الشيء أحرقه حرقا بردته وحككت

بعضه ببعض، ومنه قولهم: حرق نابه يحرقه ويحرقه أي سحقه حتى سمع له صريف، فمعنى هذه

القراءة لنبردنه بالمبارد، ويقال للمبرد المحرق. والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار. وقد

يمكن جمع ذلك فيه، قال السدي: ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح،

ثم برد عظامه بالمبرد وحرقه. وفي حرف ابن مسعود: " لنذبحنه ثم لنحرقنه " واللحم والدم إذا أحرقا

(١) هو أبو زيد والشوس (بالتحريك) قال ابن سيده: أن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه في شق العين التي ينظر بها ويكون ذلك حلقة ويكون من الكبر والتيه والغضب.

صارا رمادا فيمكن تذريته في اليم فأما الذهب فلا يصير رمادا وقيل: عرف موسى ما
صير به

الذهب رمادا، وكان ذلك من آياته. ومعنى "لنسنفه" لنظيره. وقرأ أبو رجاء "
لنسنفه"

بضم السين لغتان، والنسف نفض الشيء ليذهب به الريح وهو التذرية، والمنسف ما
ينسف

به الطعام، وهو شيء متصوب (١) الصدر أعلاه مرتفع، والنسافة ما يسقط منه، يقال:
اعزل النسافة وكل الخالص. ويقال: أتانا فلان كأن لحيته منسف، حكاه أبو نصر
أحمد بن حاتم. والمنسفة آلة يقلع بها البناء، ونسفت البناء نسفا قلعته، ونسفت البعير
الكأ

ينسفه بالكسر إذا اقتلعه بأصله، وانتسفت الشيء اقتلعته، عن أبي زيد.

قوله تعالى: (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما) لا العجل، أي
وسع

كل شيء علمه، يفعل الفعل عن العلم، ونصب على التفسير. وقرأ مجاهد وقتادة "وسع
كل
شيء علما".

قوله تعالى: كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد

آتيناك من لدنا ذكرا (٩٩) من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة

وزرا (١٠٠) خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا (١٠١) يوم ينفخ

في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا (١٠٢) يتخافتون بينهم إن لبثتم

إلا عشرا (٣٠١) نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة

إن لبثتم إلا يوما (١٠٤)

قوله تعالى: (كذلك) الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف. أي كما قصصنا

عليك خبر موسى "كذلك نقص عليك" قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق، ليكون

تسلية

لك، وليلد على صدقك. (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) يعني القرآن. وسمي القرآن ذكرا،

لما فيه من الذكر كما سمي الرسول ذكرا، لأن الذكر كان ينزل عليه. وقيل: "آتيناك

من

لدا ذكرا" أي شرفا، كما قال تعالى "وإنه لذكر لك" (٢) [الزخرف: ٤٤] أي

شرف وتنويه باسمك.

(١) في ب وز: منصوب.

(٢) راجع ج ١٦ ص ٩٣.



(٢٤٣)

قوله تعالى: (من أعرض عنه) أي القرآن فلم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه (فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) أي إثما عظيما وحملا ثقيلا. (خالدين فيه) يريد مقيمين فيه، أي في جزائه

وجزاؤه جهنم. (وساء لهم يوم القيامة حملا) يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة. وقرأ داود

ابن ربيع: " فإنه يحمل " .

قوله تعالى: (يوم ينفخ في الصور) قراءة العامة " ينفخ " بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بنون مسمى الفاعل. واستدل أبو عمرو بقوله تعالى: " ونحشر

بنون. وعن ابن هرمز " ينفخ " بفتح الياء أي ينفخ إسرافيل. أبو عياض: " في الصور " . الباقون: " في الصور " وقد تقدم هذا في (الانعام) (١) مستوفى وفي كتاب (التذكرة). وقرأ

طلحة بن مصرف " ويحشر " بضم الياء " المجرمون " رفعا بخلاف المصحف. والباقون

" ونحشر المجرمين " أي المشركين. (زرقا) حال من المجرمين، والزرق خلاف الكحل.

والعرب تنشاءم بزرق العيون وتدمه، أي تشوه خلقتهم بزرقه عيونهم وسواد وجوههم. وقال الكلبي والفراء: " زرقا " أي عميا. وقال الأزهري: [أي] (٢) عطاشا قد ازرققت أعينهم من

شدة العطش، وقاله الزجاج، قال: لان سواد العين يتغير ويزرق من العطش. وقيل: إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة، يقال: ابيضت عيني لطول انتظاري لكذا. وقول خامس: إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف، قال الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا بن مكعبير * كما كل ضبي من اللؤم أزرق
يقال: رجل أزرق العين، والمرأة زرقاء بينة الزرق. والاسم الزرقة. وقد زرقت عينه بالكسر

وازرقت عينه ازرقاقا، وازراقت عينه ازريقاقا. وقال سعيد بن جبير: قيل لابن عباس في قوله: " ونحشر المجرمين يومئذ زرقا " وقال في موضع آخر: " ونحشرهم يوم القيامة على

وجوههم عميا وبكما وصما " (٣) [الاسراء: ٩٧] فقال: إن ليوم القيامة حالات، فحالة يكونون فيها زرقا، وحالة عميا.

(يتخافتون بينهم) أصل الخفت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته خفته. [والمعنى] (٤)

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠ فما بعد.

(٢) من ك.

(٣) راجع ج ١٠ ص ٣٣٣.

(٤) من ب و ج و ط و ك.

يتسارون، قاله مجاهد، أي يقول بعضهم لبعض في الموقف سرا (إن لبثتم) أي ما لبثتم
يعني

في الدنيا، وقيل: في القبور (إلا عشرا) يريد عشر ليال. وقيل: أراد ما بين النفختين وهو
أربعون سنة، يرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار. - في قول ابن عباس -
فيستقصرون

تلك المدة. أو مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة، ويخيل إلى
أمثلهم

أي أعدلهم قولاً وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً يعني لبثهم في
الدنيا،

عن قتادة، فالتقدير: إلا مثل يوم. وقيل: إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه
من

نعيم الدنيا رأوه كيوم. وقيل: أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم في القبور على
ما تقدم. " وعشرا " و " يوماً " منصوبان ب " - لبثتم " .

قوله تعالى: ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً (١٠٥)

فيذرها قاعاً صفصفاً (١٠٦) لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً (١٠٧) يومئذ

يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع

إلا همساً (١٠٨) يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى

له قولاً (١٠٩) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً (١١٠)

قوله تعالى: (ويسألونك عن الجبال) أي عن حال الجبال يوم القيامة. (فقل) [فقد] (١)
جاء

هذا بفاء وكل سؤال في القرآن " قل " بغير فاء إلا هذا، لأن المعنى إن سألك عن
الجبال

فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط. وقد علم الله أنهم يسئلونه عنها، فأجابهم قبل
السؤال،

وتلك أسئلة تقدمت سألوها عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال،
فلذلك

كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسأله عنه بعد، فتفهمه. (ينسفها) يطيرها. " نسفاً " قال
ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعا من أصولها ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يصيرها
كالصوف

المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا. قال: ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ،
ثم كالهباء المنثور. (فيذرها) أي يذر مواضعها (قاعاً صفصفاً) القاع الأرض الملساء

(١) من ك.

(٢٤٥)

بلا نبات ولا بناء (١)، قاله ابن الأعرابي. وقال الجوهرى: والقاع المستوي من الأرض والجمع أقوع وأقواع وقيعان صارت الواو ياء لكسر ما قبلها. وقال الفراء: القاع مستنقع الماء والصفصيف القرعاء. الكلبي: هو الذي لا نبات فيه. وقيل: المستوى من الأرض كأنه على صف واحد في استوائه، قاله مجاهد. والمعنى واحد في القاع والصفصيف، فالقاع الموضع المنكشف، والصفصيف المستوى الأملس. وأنشد سيبويه (٢):

وكم دون بيتك من صفصيف * ودكدك رمل وأعقادها
و " قاعا " نصب على الحال والصفصيف. (لا ترى) في موضع الصفة. (فيها عوجا) قال ابن الأعرابي: العوج التعوج في الفجاج. والأمت النبك. وقال أبو عمرو: الأمت النبك وهي التلال الصغار واحدها نبك، أي هي أرض مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع.

تقول: امتلاً فما به أمت، وملأت القربة ملئاً لا أمت فيه، أي لا استرخاء فيه. والأمت في اللغة المكان المرتفع. وقال ابن عباس: " عوجا " ميلاً. قال: والأمت الأثر مثل الشراك. وعنه

أيضا " عوجا " واديا " ولا أمتا " رابية. وعنه أيضا: العوج [الانخفاض] (٣) والأمت الارتفاع

وقال قتادة: " عوجا " صدعا. (ولا أمتا) أي أكمة. وقال يمان: الأمت الشقوق في الأرض.

وقيل: الأمت أن يغلظ مكان في الفضاء أو الجبل ويدق في مكان، حكاة الصولي. قلت: وهذه الآية تدخل في باب الرقي، ترقى بها التاليل وهي التي تسمى عندنا بالبراريق

واحدها " بروقة "، تطلع في الجسد وخاصة في اليد: تأخذ ثلاث أعواد من تبن الشعير، يكون

في طرف كل عود عقدة، تمر كل عقدة على التاليل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد في مكان ندي، تعفن وتعفن التاليل فلا يبقى لها أثر، جربت ذلك في نفسي وفي غيري فوجدته نافعا إن شاء الله تعالى.

(٤)

قوله تعالى: (يومئذ يتبعون الداعي) يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور (لا عوج له) أي لا معدل لهم عنه، أي عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون

(١) في ك: ماء.

(٢) البيت للأعشى وقد وصف بعد المسافة بينه وبين الممدوح الذي قصده ليستوجب

بذلك جائزته. والدكدك: من الرمل المستوى. الأعمقاد (جمع) عقدة وهو المنعقد من الرمل المتراكب.
(٣) زيادة يقتضيها المعنى.
(٤) في ك: نافعاً بالله ولله الحمد. وفي ز: نافعاً بإذن الله والحمد لله.

عنه. وعلى هذا أكثر العلماء. وقيل: " لا عوج له " أي لدعائه. وقيل: يتبعون الداعي اتباعاً لا عوج له، فالمصدر مضمر، والمعنى: يتبعون صوت الداعي للمحشر، نظيره: " واستمع يوم يناد المنادي من مكان قريب " (١) [ق: ٤١] الآية. وسيأتي. (وخشعت الأصوات)

أي ذلت وسكنت، عن ابن عباس قال: لما أتى خبير الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع، فكل لسان ساكت هناك للهيبة. (لرحمن) أي من أجله. (فلا تسمع إلا همسا) الهمس الصوت الخفي، قاله مجاهد. عن ابن عباس: الحس الخفي. الحسن وابن جريح:

هو صوت وقع الاقدام بعضها على بعض إلى المحشر، ومنه قول الراجز:
* وهن يمشين بنا هميسا *

يعني صوت أخفاف الإبل في سيرها. ويقال للأسد الهموس، لأنه يهمس في الظلمة، أي يظاً وطئاً خفياً. قال رؤبة يصف نفسه بالشدة:

ليث يدق الأسد الهموسا * والأقهبين (٢) الفيل والجاموسا

وهمس الطعام، أي مضغه وفوه منضم، قال الراجز:

لقد رأيت عجباً مذ أمسا * عجائزا مثل السعالي خمسا

* يأكلن ما أصنع همسا همسا

وقيل: الهمس تحريك الشفة واللسان. وقرأ أبي بن كعب: " فلا ينطقون إلا همسا ". والمعنى متقارب، أي لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام. وبناء " ه م س " أصله

الخفاء كيفما تصرف، ومنه الحروف المهموسة، وهي عشرة يجمعها قولك: " حثه شخص

فسكت " وإنما سمي الحرف مهموساً لأنه ضعف الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس.

قوله تعالى: (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن) " من " في موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأول، أي لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شفاعة من أذن له الرحمن.

(ورضى له قولاً) أي رضي قوله في الشفاعة. وقيل: المعنى، أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن

له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضى. قال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله.

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٦.

(٢) سمي الفيل والجاموس أقهبين للونهما وهو الغيرة.



(۲۴۷)

قوله تعالى: (يعلم ما بين أيديهم) أي من أمر الساعة. (وما خلفهم) من أمر الدنيا
قاله قتادة. وقيل: يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب " وما خلفهم " ما خلفوه
وراءهم

في الدنيا. ثم قيل: الآية عامة في جميع الخلق. وقيل: المراد الذين يتبعون الداعي.
والحمد لله.

قوله تعالى: (ولا يحيطون به علما) الهاء في " به " لله تعالى، أي أحد لا يحيط به
علما، إذ الإحاطة مشعرة بالحد ويتعالى الله عن التحديد. وقيل: تعود على العلم، أي
أحد

لا يحيط علما بما يعلمه الله. وقال الطبري: الضمير في " أيديهم " و " خلفهم " و "
يحيطون "

يعود على الملائكة، أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها.

قوله تعالى: وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل
ظلما (١١١) ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما
ولا هضما (١١٢)

قوله تعالى: (وعنت الوجوه) أي ذلت وخضعت، قاله ابن الأعرابي وغيره. ومنه
قيل للأسير عان. قال أمية بن أبي الصلت:
ملك على عرش السماء مهيمن * لعزته تعنو الوجوه وتسجد
وقال أيضا

وعنا له وجهي وخلقي كله * في الساجدين لوجهه مشكورا
قال الجوهري: عنا يعنو خضع وذل وأعناه غيره، ومنه قوله تعالى: " وعنت الوجوه
للحي

القيوم ". ويقال أيضا: عنا فيهم فلان أسيرا، أي قام فيهم على إساره واحتبس. وعناه
غيره تعنية حبسه. والعاني الأسير. وقوم عناة ونسوة عوان. وعنت أمور نزلت. وقال
ابن عباس: " عنت " ذلت. وقال مجاهد: خشعت. الماوردي: والفرق بين الذل
والخشوع (١) - وإن تقارب معناهما - أن الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع (١)
أن يتذلل

لذي طاعة. وقال الكلبي " عنت " أي علمت. عطية العوفي: استسلمت. وقال طلق

(١) في ك: الخشوع.

ابن حبيب: إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود. النحاس: " وعنت الوجوه "

في معناه قولان: أحدهما: أن هذا في الآخرة. وروى عكرمة عن ابن عباس " وعنت الوجوه للحي القيوم " قال: الركوع والسجود، ومعنى " عنت " في اللغة القهر والغلبة، ومنه

فتحت البلاد عنوة أي غلبة، قال الشاعر (١):

فما أخذوها عنوة عن مودة * ولكن ضرب المشرفي استقلالها

وقيل: هو من العناء بمعنى التعب، وكنى عن الناس بالوجوه، لأن أثار الذل إنما تتبين في الوجه. (للحي القيوم) وفي القيوم ثلاث تأويلات، أحدها: أنه القائم بتدبير الخلق. الثاني - أنه القائم على كل نفس بما كسبت. الثالث - أنه الدائم الذي لا يزول ولا يبید.

وقد مضى في (البقرة) (٢) هذا. (وقد خاب من حمل ظلما) أي خسر من حمل شركا.

قوله تعالى: (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) لأن العمل لا يقبل من غير إيمان. و " من " في قوله " من الصالحات " للتبعيض، أي شيئا من الصالحات. وقيل: للجنس. (فلا يخاف) قرأ ابن كثير ومجاهد وابن محيصة: " يخف " بالجزم جوابا لقوله: " ومن

يعمل ". الباقون " يخاف " رفعا على الخبر، أي فهو لا يخاف، أو فإنه لا يخاف. (ظلما)

أي نقصا لثواب طاعته، ولا زيادة عليه في سيئاته. (ولا هضما) بالانتقاص من حقه. والهضم النقص والكسر، يقال: هضمت ذلك من حقي أي حططته وتركته. وهذا يهضم

الطعام أي ينقص ثقله. وامرأة هضيم الكشح ضامرة البطن. الماوردي: والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله، والهضم المنع من بعضه، والهضم ظلم وإن افترقا

من وجه، قال المتوكل الليثي:

إن الأذلة واللئام لمعشر * مولا هم المتهضم المظلوم

قال الجوهري: ورجل هضيم ومهتضم أي مظلوم. وتهضمه أي ظلمه واهتضمه إذا ظلمه وكسر عليه حقه.

(١) أنشده الفراء لكثير كما في (اللسان).

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٧١ فما بعد.



(٢٤٩)

قوله تعالى: وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد
لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا (١١٣) فتعالى الله الملك الحق
ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب
زدني علما (١١٤)

قوله تعالى: (وكذلك) أي كما بينا لك في هذه السورة من البيان ف (- كذلك جعلناه
قرآنا عربيا) أي بلغة العرب. (وصرفنا فيه من الوعيد) أي بينا ما فيه من التخويف
والتهديد والثواب والعقاب. (لعلهم يتقون) أي يخافون الله فيجتنبون معاصيه،
ويحذرون

عقابه. (أو يحدث لهم ذكرا) أي موعظة. وقال قتادة: حذرا وورعا. وقيل: شرفا،
فالذكر هاهنا بمعنى الشرف، كقوله: " وإنه لذكر لك ولقومك " (١) [الزخرف ٤٤].
وقيل: أي ليتذكروا
العذاب الذي توعدوا به. وقرأ الحسن: " أو نحدث " بالنون، وروي عنه رفع الشاء
وجزماها.

قوله تعالى: (فتعالى الله الملك الحق) لما عرف العباد عظيم نعمه، وإنزال القرآن
نزه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال: " فتعالى الله " أي جل الله (الملك الحق)، أي ذو
الحق.

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) علم نبيه كيف يتلقى القرآن. قال ابن
عباس:

كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصا على الحفظ،
وشفقة على القرآن مخافة النسيان، فنهاه الله عن ذلك وأنزل: " ولا تعجل بالقرآن ".
وهذا

كقوله تعالى: " لا تحرك به لسانك لتعجل به " (٢) [القيامة: ١٦] على ما يأتي. وروى
ابن أبي نجيح عن مجاهد

قال: لا تتله قبل أن تتبينه. وقيل: " ولا تعجل " أي لا تسئل إنزاله " من قبل أن يقضى
إليك "

أي يأتيك " وحيه ". وقيل: المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله. وقال
الحسن:

نزلت في رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب
القصاص،

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لها القصاص فنزل " الرجال قوامون على النساء " (٣)
[النساء ٣٤] ولهذا قال:

" وقل رب زدني علما " أي فهما، لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك.
وقرأ

ابن مسعود وغيره: " من قبل أن نقضي " بالنون وكسر الضاد " وحيه " بالنصب.

(١) راجع ج ١٦ ص ٩٣.

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٠٤.

(٣) راجع ج ٥ ص ١٦٨.

قوله تعالى: ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له
عزما (١١٥)

قوله تعالى: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي) قرأ الأعمش باختلاف عنه
" فنسي " بإسكان الياء وله معنيان: أحدهما - ترك، أي ترك الامر والعهد، وهذا قول
مجاهد

وأكثر المفسرين ومنه " نسوا الله فنسيهم " (١) [التوبة ٦٧]. و [وثانيهما] (٢) قال
ابن عباس: " نسي " هنا من السهو

والنسيان، وإنما أخذ الانسان من أنه عهد إليه فنسي. قال ابن زيد: نسي ما عهد الله
إليه في ذلك، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس. وعلى هذا القول يحتمل أن يكون
آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذا بالنسيان، وأن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا.
ومعنى " من قبل " أي من قبل أن يأكل من الشجرة، لأنه نهى عنها. والمراد تسلية النبي
صلى الله عليه وسلم، أي طاعة بني آدم الشيطان أمر قديم، أي إن نقض هؤلاء العهد
فإن

آدم أيضا عهدنا إليه فنسي: حكاه القشيري وكذلك الطبري. أي وإن يعرض يا محمد
هؤلاء

الكفرة عن آياتي، ويخالفوا رسلي، ويطيعوا إبليس فقدما فعل ذلك أبوهم آدم. قال
ابن عطية: وهذا التأويل ضعيف، وذلك كون آدم مثلا للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء
وآدم إنما عصى بتأويل، ففي هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم، وإنما الظاهر في
الآية

إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى
محمد

صلى الله عليه وسلم ألا يعجل بالقرآن، مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي فعوقب، ليكون
أشد في التحذير، وأبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم، والعهد ها هنا في
معنى الوصية،

" ونسي " معناه ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا، لأنه لا يتعلق بالناسي عقاب.
والعزم

المضي على المعتقد في أي شيء كان، وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من
الشجرة

لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده. والشئ الذي عهد إلى آدم هو ألا
يأكل

من الشجرة، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له. واختلف في معنى قوله: (ولم نجد له
عزما)

فقال ابن عباس وقتادة: لم نجد له صبورا عن أكل الشجرة، ومواظبة على التزام الامر.

قال

-
- (١) راجع ج ١٨ ص ٤٣.
(٢) زيادة يفتضيها السياق.

النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال: لفلان عزم أي صبر وثبات على التحفظ من المعاصي

حتى يسلم منها، ومنه. " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل " (١) [الأحقاف: ٣٥]. وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفي: حفظا لما أمر به، أي لم يتحفظ مما نهيته حتى نسي وذهب عن علم ذلك بترك

الاستدلال، وذلك أن إبليس قال له: إن أكلتها خلدت في الجنة يعني عين تلك الشجرة، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل في عموم النهي وكان يجب أن يستدل عليه فلم

يفعل، وظن أنها لم تدخل في النهي فأكلها تأويلا، ولا يكون ناسيا للشئ من يعلم أنه معصية. وقال ابن زيد: " عزما " محافظة على أمر الله. وقال الضحاك: عزيمة أمر. ابن كيسان: إصرارا ولا إضمارا للعود إلى الذنب. قال القشيري: والأول أقرب إلى تأويل

الكلام، ولهذا قال قوم: آدم لم يكن من أولي العزم من الرسل، لان الله تعالى قال: " ولم نجد له عزما ". وقال المعظم: كان الرسل أولو العزم، وفي الخبر: " ما من نبي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا " فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولى

العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى. وقد قال أبو أمامة: أن أحلام بني آدم جمعت منذ

خلق الله الخلق إلى يوم القيامة، ووضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في كفة أخرى

لرجحهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: " ولم نجد له عزما " قوله تعالى: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى (١١٦) فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (١١٧) إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى (١١٨) وأنتك لا تظمؤا فيها ولا تضحى (١١٩)

قوله تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) تقدم في (البقرة) (٢) مستوفى. (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما) نهى، ومجازه

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٢٠.

(٢) راجع ج ١ ص ٢٩١ فما بعد.

لا تقبلا منه فيكون ذلك سببا لخروجكما " من الجنة " " فتشقى " يعني أنت وزوجك لأنهما

في استواء العلة واحد، ولم يقل: فتشقى لان المعنى معروف، وآدم عليه السلام هو المخاطب، وهو المقصود. وأيضا لما كان الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص.

وقيل: الا خرج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده، وهو شقاوة البدن، ألا ترى أنه عقبه

بقوله: " إن لك ألا تجوع فيها ولا تعري " أي في الجنة " وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى "

فأعلمه أن له في الجنة هذا كله: الكسوة والطعام والشراب والمسكن، وأنت إن ضيقت الوصية، وأطعت العدو أخرجكما من الجنة فشقيت تعباً ونصباً، أي جعت وعريت وطمئت

وأصابتك الشمس، لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة. وإنما خصه بذكر الشقاء

ولم يقل فتشقيان: يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على

الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية. وأعلمنا

في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة

والمسكن، فإذا أعطاهها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور،

فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها، لان بها إقامة المهجة. قال الحسن المراد بقوله: " فتشقى " شقاء الدنيا، لا يرى ابن آدم إلا ناصباً. وقال الفراء: هو أن يأكل من كد يديه.

وقال سعيد بن جبير: أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه، ويمسح العرق عن جبينه،

فهو شقاؤه الذي قال الله تبارك وتعالى. وقيل: لما أهبط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة، فقال: يا آدم ازرع هذا، فحرث وزرع، ثم حصد ثم درس ثم نقى ثم طحن ثم عجن ثم خبز، ثم جلس ليأكل بعد التعب، فتدحرج رغيفه من

يده حتى صار أسفل الجبل، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه، قال: يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء، ورزق ولدك من بعدك ما كنت في الدنيا.

قوله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ)
فيه مسألتان:

(٢٥٣)

الأولى - قوله تعالى: (إن لك ألا تجوع فيه) أي في الجنة (ولا تعرى).
" وأنت لا تظماً فيها " أي لا تعطش. والظماً العطش. " ولا تضحى " أي تبرز للشمس
فتجد حرها. إذ ليس في الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى
طلوع

الشمس. قال أبو العالية: نهار الجنة هكذا: وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر.
قال أبو زيد: ضحا الطريق يضحو ضحوا إذا بدا لك وظهر. وضحيت وضحيت "
بالكسر "

ضحاً عرقت. وضحيت أيضاً للشمس ضحاء ممدود برزت وضحيت " بالفتح " مثله،
والمستقبل

أضحى في اللغتين جميعاً، قال عمر بن أبي ربيعة:
رأت رجلاً أيماً إذا الشمس عارضت * فيضحى وأما بالعشي فيخصر
وفي الحديث أن ابن عمر رأى رجلاً محرماً قد استظل، فقال: أضح لمن أحرمت له.
هكذا

يرويه المحدثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت. وقال الأصمعي: إنما هو اضح
لمن

أحرمت له، بكسر الألف وفتح الحاء من ضحيت أضحى، لأنه أمره بالبروز للشمس،
ومنه قوله تعالى: " وأنت لا تظماً فيها ولا تضحى " وأنشد:
ضحيت له كي أستظل بظله * إذا الظل أضحى في القيامة قالصا
وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما في رواية أبو بكر عنه " وأنت " بفتح الهمزة عطفا
على

" ألا تجوع ". ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفا على الموضع، والمعنى: ولك
أنت

لا تظماً فيها. الباقون بالكسر على الاستئناف، أو على العطف على " إن لك " (١).
قوله تعالى: فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على
شجرة الخلد وملك لا يبلى (١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما
وظفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى (١٢١)
ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (١٢٢)

(١) في الأصول في هذه الآية مسألتان ولكن المثبت مسألة واحدة. ولعل الثانية هي القراءة.

قوله تعالى: (فوسوس إليه الشيطان) تقدم في (الأعراف) (١). (قال) يعني الشيطان: (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وهذا يدل على المشافهة، وأنه

دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدم في (البقرة) (٢) بيانه، وتقدم هناك تعيين الشجرة،

وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة. (فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما

من ورق الجنة) تقدم في (الأعراف) (١) مستوفى. وقال الفراء: " وطفقا " في العربية أقبلا، قال وقيل: جعل يلصقان عليهما ورق التين.

قوله تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى) فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (وعصى) تقدم في (البقرة) (٢) القول في ذنوب الأنبياء. وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب

من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم وتصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل حملتها، وإن قبل

ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة

الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات،

وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه

السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهم صلوات الله وسلامه عليهم - وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم (٣)، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم

وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليه وسلامه.

الثانية - قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا يجوز لاحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يتدئ ذلك من قبل

(١) راجع ج ٧ ص ١٧٧ وص ١٨٠.

(٢) راجع ج ١ ص ٣٠٨ فما بعد وص ٣٠٥.

(٣) في ب و ج و ز و ط: رتبهم.

(٢٥٥)

نفسه فليس بجائز لنا في آبائنا الأذنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف في أئبنا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدم، الذي عذره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له. قلت: وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز، فالأخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع، وأنه لا يجوز الابتداء بشئ من ذلك

إلا في أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله، ولهذا قال الامام مالك بن أنس رضي الله عنه: من

وصف شيئاً من ذات الله عز وجل مثل قوله: "وقالت اليهود يد الله مغلولة" (١) [المائدة ٦٤] فأشار بيده

إلى عنقه قطعت يده، وكذلك في السمع والبصر يقطع ذلك منه، لأنه شبه الله تعالى بنفسه.

الثالثة - روى الأئمة واللفظ [المسلم] (٢) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: "احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال [له] (٣) آدم

يا موسى اصطفاك الله عز وجل بكلامه وخط لك بيده يا موسى: أتلومني على أمر قدره الله

علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثاً" (٤) قال المهلب قوله: "فحج آدم

موسى" أي غلبه بالحجة. قال الليث بن سعد: إنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى

عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن

يعيره بخطيئته قد غفرها الله تعالى له، ولذلك قال آدم: أنت موسى الذي آتاك الله التوراة،

وفيها علم كل شئ، فوجدت فيها أن الله قد قدر علي المعصية، وقدر علي التوبة منها، وأسقط

بذلك اللوم عني أفتلومني أنت والله لا يلومني وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذي قال له:

إن عثمان فر يوم أحد، فقال ابن عمر: ما على عثمان ذنب لان الله تعالى قد عفا عنه بقوله:

"ولقد عفا الله عنهم" (٥) [آل عمران: ١٥٥]. وقد قيل: إن آدم عليه السلام أب

وليس تعبيره من بره أن لو كان
مما يعير به غيره، فإن الله تبارك وتعالى يقول في الأبوين الكافرين: " وصاحبهما في
الدنيا
معروفا " (٦) [لقمان: ١٥] ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر: "
لئن لم تنته لأرجمنك
واهجرني مليا. قال سلام عليك " (٧) [مريم: ٤٦] فكيف بأب هو نبي قد اجتباه ربه
وتاب عليه وهدى.

-
- (١) راجع ج ٦ ص ٢٣٨.
(٢) في الأصول: اللفظ للبخاري. والتصويب عن صحيح مسلم.
(٣) من ب و ج وك.
(٤) ثلاثا: أي قال النبي صلى الله عليه وسلم (فحج آدم موسى) ثلاث مرات.
(٥) راجع ج ٤ ص ٢٤٣.
(٦) راجع ج ١٤ ص ٦٣.
(٧) راجع ص ١١١ من هذا الجزء.

الرابعة - وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زנית أو سرقت وقد قدر الله على ذلك، والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسئ على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه.

الخامسة - قوله تعالى: " فغوى " أي ففسد عليه عيشه، حكاة النقاش وأختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: " فغوى " ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا، والغي الفساد، وهو تأويل حسن وهو أولى من تأويل من يقول: " فغوى " معناه ضل، من الغي الذي هو ضد الرشد. وقيل: معناه جهل موضع رشده، أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهى عنها، والغي الجهل. وعن بعضهم " فغوى " فبشم

من كثرة الاكل، الزمخشري: وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً،

فيقول في فنى وبقى: فنى وبقى وهم بنو طي - تفسير خبيث. السادسة - قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاص ولا غاؤ كما أن من خاط مرة يقال له: خاط ولا يقال له خياط ما لم يتكرر منه الخياطة.

وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلف،

وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فيما أن تكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوة. قلت: هذا حسن. قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: " ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى " فذكر أن الاجتباء

والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحداً، لان

قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس والله أعلم. قوله تعالى: قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فيما يأتيكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (١٢٣) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤)

(१०१)

قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أئتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (١٢٧) قوله تعالى: (قال أهبطا منها جميعا) خطاب آدم وإبليس. " منها " أي من الجنة. وقد قال لإبليس: " أخرج منها مذؤوما مدحورا " [الأعراف ١٨] فلعله أخرج من الجنة إلى موضع من

السماء، ثم أهبط إلى الأرض. (بعضكم لبعض عدو) تقدم في (البقرة) (١) أي أنت عدو

للحية ولإبليس وهما عدوان لك. وهذا يدل على أن قوله: " اهبطا " ليس خطابا لآدم وحواء، لأنهما ما كانا متعادين، وتضمن هبوط آدم هبوط حواء. (فأما يأتينكم منى هدى)

أي رشدًا وقولا حقا. وقد تقدم في (البقرة) (١). (فمن تبع هداي) يعني الرسل والكتب.

(فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل

في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية. وعنه: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من

الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية. (ومن أعرض عن ذكرى) أي ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه. وقيل: عما أنزلت من الدلائل. ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول، لأنه كان منه الذكر. (فإن له معيشة ضنكا) أي عيشا ضيقا، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك يستوي فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع، قال عنترة:

إن يلحقوا أكرر وإن يستحلّموا * أشدد وإن يلفوا بضعك أنزل
وقال أيضا:

إن المنية لو تمثل مثلت * مثلي إذا نزلوا بضعك المنزل
وقرى: " ضنكى " على وزن فعلى: ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة

والتوكل عليه وعلى قسمته، فصاحبه ينفق مما رزقه الله - عز وجل - بسماح وسهولة

() راجع ج ١ ص ٣١٩ وص ٣٢٨ فما بعد.

ويعيش عيشا رافعا (١)، كما قال الله تعالى: " فلنحيينه حياة طيبة " (٢) [النحل ٩٧].
والمعرض عن الدين
مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح،
الذي
يقبض يده عن الانفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم: لا يعرض أحد
عن

ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، وكان في عيشة ضنك. وقال عكرمة:
" ضنكا " كسبا حراما. الحسن: طعام الضريع والزقوم. وقول رابع وهو الصحيح أنه
عذاب القبر، قاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن
النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرناه في كتاب " التذكرة "، قال أبو هريرة: يضيق
على

الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلعه، وهو المعيشة الضنك. (ونحشره يوم القيامة
أعمى)

وقيل: أعمى في حال وبصيرا في حال، وقد تقدم في آخر " سبحان " (٢) [الاسراء ١]
وقيل: أعمى عن

الحجة، قاله مجاهد. وقيل: أعمى عن جهات الخير، لا يهتدي لشيء منها. وقيل: عن
الحيلة في دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا يراه. (قال رب لم
حشرتني

أعمى) أي بأي ذنب عاقبتني بالعمى. (وقد كنت بصيرا) أي في الدنيا، وكأنه يظن أنه
لا ذنب له. وقال ابن عباس ومجاهد: أي " لم حشرتني أعمى " عن حجتي " وقد
كنت بصيرا "

أي عالما بحجتي، القشيري: وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة في الدنيا. (قال كذلك
أنتك

آياتنا) أي قال الله تعالى له " كذلك أنتك آياتنا " أي دلالاتنا (٣) على وحدانيتنا
وقدرتنا.

(فنسيتها) أي تركتها ولم تنظر فيها، وأعرضت عنها. (وكذلك اليوم تنسى) أي تترك
في العذاب، يريد جهنم. (وكذلك نجزي من أسرف) أي وكما جزينا من أعرض عن
القرآن، وعن النظر في المصنوعات، والتفكير فيها، وجاوز الحد في المعصية. (ولم
يؤمن بآيات

ربه) أي لم يصدق بها. (ولعذاب الآخرة أشد) أي أفضع من المعيشة الضنك، وعذاب
القبر. (وأبقى) أي أديم وأثبت، لأنه لا ينقطع ولا ينقضي.

- (١) عيش أرفع ورافع ورفيع.
(٢) راجع ج ١٠ ص ١٧٤ و ص ٣٣٣.
(٣) في ك: دلائلنا.

قوله تعالى: أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (١٢٨) ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى (١٢٩) فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسيح وأطراف النهار لعلك ترضى (١٣٠)

قوله تعالى: (أفلم يهد لهم) يريد أهل مكة، أي أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية، أي أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ما حل بالكفار قبلهم. وقرأ ابن عباس والسلمي وغيرهما: " نهذ لهم " بالنون وهي أئين. و " يهد " بالياء

مشكل لأجل الفاعل، فقال الكوفيون: " كم " الفاعل، النحاس: وهذا خطأ لان " كم " استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها وقال الزجاج: المعنى أو لم يهد لهم الامر بإهلاكنا من أهلكنا. وحقبة " يهد " على الهدى، فالفاعل هو الهدى تقديره: أفلم يهد الهدى لهم. قال الزجاج: " كم " في موضع نصب ب " - أهلكنا " .

قوله تعالى: (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما) فيه تقديم وتأخير، أي ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما، قاله قتادة. والزام الملازمة، أي لكان العذاب لازما لهم. وأضمر اسم كان. قال الزجاج: (وأجل مسمى) عطف على " كلمة " .

قتادة: والمراد القيامة، وقاله القتيبي وقيل: تأخيرهم إلى يوم بدر. قوله تعالى: (فاصبر على ما يقولون) أمره تعالى بالصبر على أقوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كذاب، إلى غير ذلك. والمعنى: لا تحفل بهم، فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدم ولا يتأخر. ثم قيل: هذا منسوخ بآية القتال. وقيل: ليس منسوخا، إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقى المعظم منهم.

قوله تعالى: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) قال أكثر المتأولين: هذا إشارة إلى الصلوات الخمس " قبل طلوع الشمس " صلاة الصبح (وقبل غروبها) صلاة العصر (ومن آناء الليل) العتمة (وأطراف النهار) المغرب والظهر، لان الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب. وقيل: النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم

طرفان، فعند الزوال طرفان، الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين

أطرافا على نحو " فقد صغت قلوبكما " (١) [التحريم: ٤] وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل. وقيل:

النهار للجنس فلكل يوم طرف، وهو إلى جمع لأنه يعود في كل نهار. و " آناء الليل " ساعاته

وواحد الآناء إني وإني وأنى. وقالت فرقة: المراد بالآية صلاة التطوع، قاله الحسن. قوله تعالى: (لعلك ترضى) بفتح التاء، أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به. وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم " ترضى " بضم التاء، أي لعلك تعطى ما يرضيك.

قوله تعالى: ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنتهم فيه ورزق ربك خير وأبقى (١٣١) وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى (١٣٢) قوله تعالى: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به) وقد تقدم معناه في (الحجر) (٣). " أزواجا " مفعول ب " - متعنا " . و " زهرة " نصب على الحال. وقال الزجاج: " زهرة "

منصوبة بمعنى " متعنا " لان معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة، أو بفعل مضمر وهو " جعلنا " أي جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا، عن الزجاج أيضا. وقيل: هي بدل من الهاء في " به " على الموضع كما تقول: مررت به أخاك. وأشار الفراء إلى نصبه على الحال، والعامل فيه " متعنا " قال: كما تقول مررت به المسكين، وقدره: متعناهم به زهرة في الحياة

الدنيا وزينة فيها. ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل " صنع الله " و " وعد الله " وفيه

(١) راجع ج ١٨ ص ١٨٨.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٥٦ فما بعد.

نظر. والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة،
كما قرئ: " ولا الليل سابق النهار " (١) بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام، وتكون " الحياة " مخفوضة على البدل من " ما " في قوله: " إلى ما متعنا

به " فيكون التقدير: ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرة أي في حال زهرتها. ولا يحسن أن يكون " زهرة " بدلا من " ما " على الموضع في قوله: " إلى ما متعنا " لان

" لنفتنهم " متعلق ب " - متعنا " و " زهرة الحياة الدنيا " يعني زينتها بالنبات. والزهرة، بالفتح في الزاي والهاء نور النبات. والزهرة بضم الزاي وفتح الهاء النجم. وبنو زهرة بسكون الهاء، قاله ابن عزيز. وقرأ عيسى بن عمر " زهرة " بفتح الهاء مثل نهر ونهر. ويقال: سراج زاهر أي له بريق. وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها. وفي الحديث: كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون أي نير اللون، يقال لكل شيء مستنير: زاهر، وهو

أحسن الألوان. (لنفتنهم فيه) أي لنبتليهم. وقيل: لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالا، ومعنى الآية: لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزنا، فإنه لا بقاء لها. " ولا تمدن " أبلغ من لا تنظرن،

لان الذي يمد بصره، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه:

مسألة: قال بعض الناس سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلني عليه السلام

إلى رجل من اليهود، وقال قل له يقول لك محمد: نزل بنا ضيف ولم يلف عندنا بعض الذي

يصلحه، فبعتي كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب فقال: لا، إلا برهن: قال: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: " والله إنني لأمين في السماء

أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأدبت إليه اذهب بدرعي إليه " ونزلت الآية تعزية له عن الدنيا. قال ابن عطية: وهذا معترض أن يكون سببا، لان السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي

بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالى

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٢ فما بعد.

وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم، والصبر على أقوالهم، والاعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا، إذ ذلك منصرف عنهم صائر إلى خزي.

قلت: وكذلك ما روى عنه عليه السلام أنه مر بإبل بني المصطلق وقد عبست (١) في أبوابها [وأبعارها] (٢) من السمن فتقنع بثوبه ثم مضى، لقوله عز وجل: " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم " الآية. ثم سلاه فقال: " ورزق ربك خير وأبقى " أي ثواب

الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى، لأنه يبقى والدنيا تفتنى. وقيل: يعني بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم.

قوله تعالى: (وأمر أهلك بالصلاة) أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمثلها معهم، ويصطر عليها ويلازمها: وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص. وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول " الصلاة ". ويروى أن عروة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله، وهو يقرأ " ولا تمدن عينيك " الآية إلى قوله: " وأبقى " ثم ينادي بالصلاة: الصلاة يرحمكم الله، ويصلي: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي وهو يتمثل بالآية.

قوله تعالى: (لا نسئلك رزقا) أي لا نسئلك أن ترزق نفسك وإياهم، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم، فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق أمرهم بالصلاة. وقد قال الله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق " (٣) [الذاريات ٥٦].

قوله تعالى: (والعاقبة للتقوى) أي الجنة لأهل التقوى، يعني العاقبة المحمودة وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهي كالمعدومة،

(١) عبست في أبوابها: هو أن تجف أبوابها وأبعارها على أفخاذها وذلك إنما يكون من الشحم.

(٢) الزيادة من (النهاية) لابن الأثير.

(٣) راجع ج ١٧ ص ٥٥.

قوله تعالى: وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى (١٣٣) ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى (١٣٤) قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى (١٣٥)

قوله تعالى: (وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه) يريد كفار مكة، أي لولا يأتينا محمد بأية توجب العلم الضروري. أو بأية ظاهرة كالناقة والعصا. أو هلا يأتينا بالآيات التي نقتربها نحن كما أتى الأنبياء من قبله:

قال الله تعالى: (أو لم تأتيتهم ما في الصحف الأولى) يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها. وقرئ "الصحف" بالتخفيف. وقيل: أو لم تأتيتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة. وقيل:

أو لم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقتربوا الآيات، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات أن يكون

حالهم حال أولئك. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص:

"أو لم تأتيتهم" بالتاء لتأنيث البينة. الباقون بالياء لتقدم الفعل ولأن البينة هي البيان والبرهان فردوه إلى المعنى، وأختره أبو عبيد وأبو حاتم. وحكى الكسائي "أو لم تأتيتهم بينة"

ما في الصحف الأولى" قال: ويجوز على هذا "بينة ما في الصحف الأولى". قال النحاس إذا نونت "بينة" ورفعت جعلت "ما" بدلا منها وإذا نصبتها فعلى الحال، والمعنى: أو لم يأتيتهم ما في الصحف الأولى مبينا.

قوله تعالى: (ولولا أهلكناهم بعذاب من قبله) أي من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن (لقالوا) أي يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أي هلا أرسلت إلينا رسولا. (فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وقرئ: "نذل ونخزى" على

ما لم يسم فاعله. وروى أبو سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهالك

في الفترة والمعنوه والمولود قال: (يقول الهالك في الفترة لم يأتي كتاب ولا رسول - ثم تلا -

" ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا " - الآية - ويقول المعنوه رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود رب لم أدرك العمل

فترفع لهم نار فيقول لهم ردوها وادخلوها - قال - فيردها أو يدخلها من كان في علم الله سعيدا

لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل [قال] (١) فيقول الله تبارك

وتعالى إياك عصيتم فكيف رسلي لو أتتكم). ويروى موقوفا عن أبي سعيد قوله وفيه نظر

وقد بيناه في كتاب " التذكرة " وبه احتج من قال: إن الأطفال وغيرهم يمتحنون في الآخرة.

" فنتبع " نصب بجواب التخصيص. " آياتك " يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

" من قبل أن نذل " أي في العذاب " ونخزي " في جهنم، قاله ابن عباس. وقيل: " من قبل أن نذل " في الدنيا بالعذاب " ونخزي " في الآخرة بعذابها. (قل كل متربص) أي قل لهم يا محمد كل متربص، أي كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولمن يكون

النصر. (فتربصوا فستعلمون الصراط السوي ومن اهتدى) يريد الدين المستقيم والهدى والمعنى: فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق. وقيل: فستعلمون يوم القيامة من اهتدى إلى طريق الجنة. وفي هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختم به السورة. وقرئ " فسوف تعلمون ". قال أبو رافع: حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكره الزمخشري. و " من " في موضع رفع عند الزجاج. وقال الفراء:

يجوز أن يكون في موضع نصب مثل. " والله يعلم المفسد من المصلح " (٢). قال أبو إسحاق:

هذا خطأ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و " من " ها هنا استفهام في موضع رفع بالابتداء، والمعنى: فستعلمون أصحاب الصراط السوي نحن أم أنتم؟. قال النحاس:

والفراء يذهب إلى أن معنى. " من أصحاب الصراط السوي " من لم يضل وإلى أن معنى. "

ومن
اهتدى " من ضل ثم اهتدى. وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدري " فسيعلمون من
أصحاب

(١) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.
(٢) راجع ج ٣ ص ٦٦.

الصراط السوا " بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فعلى بغير همزة، وتأنيث الصراط شاذ قليل، قال الله وتعالى: " اهدنا الصراط المستقيم " (١) [الفتحة: ٦] فجاء مذكرا في هذا وفي غيره، وقد رد هذا أبو حاتم قال: إن كان من السوء وجب أن يقال السوءى وإن كان من السواء وجب أن يقال: السيا بكسر السين والأصل السويا. قال الزمخشري: وقرئ " السواء " بمعنى الوسط والعدل، أو المستوى. النحاس وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدري أن يكون الأصل " السوءى " والساكن ليس بحاجز حصين، فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها. تمت والحمد لله وحده.

سورة الأنبياء

مكية في قول الجميع وهي مائة واثننا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (١)

ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهو يلعبون (٢)

لاهيبة قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم

أفتأتون السحر وأنتم تبصرون (٣)

قوله تعالى: (اقترب للناس حسابهم) قال عبد الله بن مسعود: الكهف ومريم

وطه والأنبياء من العتاق الأول، وهن من تلاميذ يريد من قديم ما كسب وحفظ من

القرآن

كالمال التلاد. وروي أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبني

جدارا

فمر به آخر في يوم نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من

القرآن؟ فقال الآخر: نزل " اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون " فنفض يده

من البنيان، وقال: والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب. " اقترب " أي قرب الوقت

(١) راجع ج ١ ص ١٤٦ فما بعد.

الذي يحاسبون فيه على أعمالهم. " للناس " قال ابن عباس: المراد بالناس هنا
المشركون
بدليل قوله تعالى: " إلا استمعوه وهم يلعبون " إلى قوله: " أفتأتون السحر وأنتم
تبصرون ".
وقيل: الناس عموم وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش، يدل على ذلك ما
بعد
من الآيات، ومن علم اقتراب الساعة قصر أمله، وطابت نفسه بالتوبة، ولم يركن إلى
الدنيا،
فكأن ما كان لم يكن إذا ذهب، وكل آت قريب، والموت لا محالة آت، وموت كل
إنسان
قيام ساعته، والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقل
مما مضى. وقال الضحاك: معنى " اقترب للناس حسابهم " أي عذابهم يعني أهل مكة،
لأنهم استبطنوا ما وعدوا به من العذاب تكديبا، وكان قتلهم يوم بدر. النحاس ولا
يجوز
في الكلام اقترب حسابهم للناس، لئلا يتقدم مضمرة على مظهر لا يجوز أن ينوى به
التأخير.
(وهم في غفلة معرضون) ابتداء وخبر. ويجوز النصب في غير القرآن على الحال. وفيه
وجهان: أحدهما: " وهم غفلة معرضون " يعني بالدنيا عن الآخرة. الثاني - عن
التأهب للحساب واما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. وهذه الواو عند سيبويه
بمعنى " إذ "
وهي التي يسميها النحويون واو الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: " يغشى طائفة
منكم
وطائفة قد أهمتهم أنفسهم " (١) [آل عمران: ١٥٤].
قوله تعالى: (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) " محدث " نعت ل " - ذكر ".
وأجاز
الكسائي والفراء " محدثا " بمعنى ما يأتيهم محدثا، نصب على الحال. وأجاز الفراء
أيضا رفع
محدث " على النعت للذكر، لأنك لو حذف " من " رفعت ذكرا، أي ما يأتيهم ذكر
من ربهم
محدث، يريد في النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان ينزل
سورة بعد
سورة، وآية بعد آية، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقت بعد وقت، لا أن القرآن
مخلوق.

وقيل: الذكر ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ويعظهم به. وقال: " من ربهم "
لان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحي، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم
وتحذيره

ذكر، وهو محدث، قال الله تعالى: " فذكر إنما أنت مذكر " (٢) [الغاشية: ٢١].
ويقال: فلان في مجلس

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤٢.

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٣٧.

الذكر. وقيل: الذكر الرسول نفسه، قاله الحسين بن الفضل بدليل ما في سياق الآية " هل هذا إلا بشر مثلكم " [الأنبياء: ٣] ولو أراد بالذكر القرآن لقال: هل هذا إلا أساطير الأولين، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: " ويقولون إنه لمجنون. وما هو إلا ذكر للعالمين " (١) [القلم: ٥١ - ٥٢]

يعني محمدا صلى الله عليه وسلم. وقال: " قد أنزل الله إليكم ذكرا (١). رسولا " [الطلاق: ١٠ - ١١]. " إلا استمعوه " يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته. " وهم يلعبون " الواو والحال يدل عليه " لاهية قلوبهم " ومعنى. " يلعبون " أي يلهون. وقيل: يشتغلون، فإن حمل تأويله على اللهو احتمال ما يلهون به وجهين: أحدهما: بلذاتهم. الثاني: بسماع ما يتلى عليهم. وإن حمل تأويله على الشغل احتمال ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما -

بالدنيا لأنها لعب، كما قال الله تعالى: " إنما الحياة الدنيا لعب ولهو " (٢) [محمد: ٣٦]. الثاني: يتشاغلون بالقدح فيه، والاعتراض عليه. قال الحسن: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل وقيل.

يستمعون القرآن مستهزئين. قوله تعالى: (لا هية قلوبهم) أي ساهية قلوبهم، معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم، من قول العرب: لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه ألهي لهما ولهيانا. و " لاهية " نعت تقدم الاسم، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الاعراب، فإذا تقدم النعت الاسم انتصب كقوله: " خاشعة أبصارهم " (١) [القلم: ٤٣] و " ودانية عليهم

ظلالها " (٣) [الانسان: ١٤] و " لاهية قلوبهم " قال الشاعر:
لعزة موحشا طلل * يلوح (٤) كأنه خلل
أراد: طلل موحش. وأجاز الكسائي والفراء " لاهية قلوبهم " بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية.

وأجاز غيرهما: الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ. وقال الكسائي: ويجوز

أن يكون المعنى، إلا استمعوه لاهية قلوبهم. (وأسروا النجوى الذين ظلموا) أي تناجوا فيما بينهم بالكذب، ثم بين من هم فقال: " الذين ظلموا " أي الذين أشركوا، ف " -

الذين
ظلموا " بدل من الواو في " أسروا " وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم، ولا يوقف
على هذا

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٥٥ فما بعد وص ٢٩٧ (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٥٧ (٣) راجع ج ١٩ ص ١٣٦
(٤) هو كثير عزة أي تلوح آثاره وتبين تبين الوشى في خلل السيوف، وهي أغشية الأغماد واحدها خلة.

القول على " النجوى ". قال المبرد وهو كقولك: إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله

فبنو بدل من الواو في انطلقوا. وقيل: هو رفع على الذم، أي هم الذين ظلموا: وقيل: على

حذف القول، التقدير: يقول الذين ظلموا وحذف القول، مثل " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم " [الرعد: ٢٣ - ٢٤]. واختار هذا القول النحاس، قال: والدليل على صحة

هذا الجواب أن بعده " هل هذا إلا بشر مثلكم " [الأنبياء: ٣]. وقول رابع: يكون منصوبا بمعنى أعني

الذين ظلموا: وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم، ولا يوقف على هذا الوجه على " النجوى " ويوقف على الوجوه الثلاثة المتقدمة قبله، فهذه

خمسة أقوال: وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال: أكلوني البراغيث، وهو حسن، قال الله تعالى: " ثم عموا وضموا كثير منهم " (١) [المائدة: ٧١]: وقال الشاعر:

بك نال النضال دون المساعي * فاهتدين النبال للأغراض

وقال آخر: (٢) ولكن ديافي أبوه وأمه * بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، مجازه: والذين ظلموا أسروا النجوى. أبو عبيدة: " أسروا " هنا من الأضداد، فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه:

قوله تعالى: (هل هذا إلا بشر مثلكم) أي تناجوا بينهم وقالوا: هل هذا الذكر

الذي هو الرسول، أو هل هذا الذي يدعوكم إلا بشر مثلكم، لا يتميز عنكم بشيء، يأكل

الطعام، ويمشي في الأسواق كما تفعلون: وما علموا أن الله عز وجل بين أنه لا يجوز أن

يرسل إليهم إلا بشرا ليتفهموا ويعلمهم: (أفتأتون السحر) أي إن الذي جاء به محمد صلى

الله عليه وسلم سحر، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا

به: و " السحر " في اللغة كل مموه لا حقيقة له ولا صحة. (وأنتم تبصرون). [قيل معناه (٣)

" وأنتم تبصرون "] أنه إنسان مثلكم مثل: " وأنتم تعقلون " لأن العقل البصر بالأشياء. وقيل:

المعنى، أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر: وقيل: المعنى، أفتعدلون إلى الباطل

وأنتم
تعرفون الحق، ومعنى الكلام التوييح.

-
- (١) راجع ج ٦ ص ٢٤٧.
(٢) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء. ودياف: موضع بالجزيرة،
وهم نبط الشام. والسليط، الزيت.
(٣) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.

قوله تعالى: قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم (٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون (٥) ما آمنت قبلهم من قرية أهلكتها أفهم يؤمنون (٦)

قوله تعالى: (قل (١) ربي يعلم القول في السماء والأرض) أي لا يخفي عليه شيء مما يقال

في السماء والأرض. وفي مصاحف أهل الكوفة " قال ربي " أي قال محمد ربي يعلم القول،

أي هو عالم بما تناجيتم به. وقيل: إن القراءة الأولى أولي لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يقول لهم هذا، قال النحاس:

والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أمر.

قوله تعالى: (بل قالوا أضغاث أحلام) قال الزجاج: أي قالوا الذي يأتي به أضغاث أحلام. وقال غيره: أي قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة، أي أهاويل رآها في المنام، قال معناه مجاهد وقتادة، ومنه قول الشاعر:

* كضغث حلم غر منه حالمة *

وقال القتيبي: إنها الرؤيا الكاذبة، وفيه قول الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفسد * ترقق للسرائي وأضغاث حالم

وقال اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل. وقد مضى هذا في " يوسف " (٢). فلما رأوا

أن الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا: (بل قالوا) ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا: " بل هو شاعر " أي هم متحIRON لا يستقرون على شيء: قالوا مرة سحر، ومرة أضغاث أحلام، ومرة افتراه، ومرة شاعر. وقيل: أي قال فريق إنه ساحر: وفريق إنه أضغاث أحلام، وفريق إنه افتراه، وفريق إنه شاعر. والافتراء الاختلاق، وقد تقدم.

(١) (قل) على الأمر قراءة (نافع).

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٠٠ فما بعد.

(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح. وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا: ينبغي أن يأتي بآية

نقترحها، ولم يكن لهم الاقتراح بعدما رأوا آية واحدة. وأيضا إذا لم يؤمنوا بآية هي من جنس ما هم أعلم الناس به، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها، ولو أبرأ الأكمه

والأبرص لقالوا: هذا من باب الطب، وليس ذلك من صناعتنا، وإنما كان سؤالهم تعنتا إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية. وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل: " ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم

معرضون " (١) [الأنفال: ٢٣].

قوله تعالى: (ما آمنت قبلهم من قرية) قال ابن عباس: يريد قوم صالح وقوم فرعون. (أهلكناها) يريد كان في علمنا هلاكها: (أفهم يؤمنون) يريد يصدقون، أي فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا، لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا، وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن في أصلابهم من يؤمن: و " من " زائدة في قوله: " من قرية " كقوله: " فما منكم من أحد عنه حاجزين " (٢) [الحاقة: ٤٧]:

قوله تعالى: وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاستأصروا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٧) وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين (٨) ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين (٩) لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون (١٠)

قوله تعالى: (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى (٣) إليهم) هذا رد عليهم في قولهم: " هل هذا إلا بشر مثلكم " [الأنبياء: ٣] وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم، أي لم يرسل قبلك إلا رجالا.

(١) راجع ج ٧ ص ٣٨٨.

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢٧٦.

(٣) (يوحى) بلياء قراءة نافع.

(فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم، قاله سفيان: وسماهم أهل الذكر، لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب: وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر محمد صلى الله عليه وسلم: وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن، أي فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن، قال جابر الجعفي: لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه نحن أهل الذكر: وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر، فالمعنى لا تبدءوا بالانكار وبقولكم ينبغي أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظروا المؤمنين لبيئوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر: والملك لا يسمى رجلا، لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظه تقول: رجل وامرأة، ورجل وصبي فقوله: "إلا رجالا" من بني آدم: وقرأ حفص وحمزة والكسائي: "نوحى إليهم". مسألة - لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله عز وجل: "فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم. قوله تعالى: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) الضمير في "جعلناهم" للأنبياء، أي لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب. - وما كانوا خالدين) يريد لا يموتون وهذا جواب لقولهم: "ما هذا إلا بشر مثلكم" [المؤمنون: ٣٣] وقولهم: "ما لهذا الرسول يأكل الطعام" (١) [الفرقان: ٧]. و "جسدا" اسم جنس، ولهذا لم يقل أجسادا، وقيل: لم يقل أجسادا، لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا. والجسد البدن، تقول منه: تجسد كما تقول من

الجسم تجسم. والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصبغ، وهو الدم أيضا، قال النابغة:
* وما أهريق على الأنصاب من جسد (٢) *

(١) راجع ج ١٣ ص ٤.

(٢) صدر البيت: * فلا لعمر الذي مسحت كعبته *
أقسم بالله أولا ثم بالدماء التي كانت تصب في الجاهلية على الأنصاب.

وقال الكلبي: والجسد هو المتجسد الذي فيه الروح يأكل ويشرب، فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسما وقال مجاهد: الجسد ما لا يأكل ولا يشرب،

فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسا ذكره الماوردي. قوله تعالى: (ثم صدقناهم الوعد) يعني الأنبياء، أي بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم. (ومن تشاء) أي الذين صدقوا الأنبياء. (وأهلكنا المسرفين) أي المشركين. قوله تعالى: (لقد أنزلنا إليكم كتابا) يعني القرآن. (فيه ذكركم) رفع بالابتداء والجملة في موضع نصب لأنها نعت لكتاب، والمراد بالذكر هنا الشرف، أي فيه شرفكم، مثل " وإنه لذكر لك ولقومك " (١) [الزخرف: ٤٤]. ثم نبههم بالاستفهام الذي معناه التوقيف فقال عز وجل: (أفلا تعقلون). وقيل: فيه ذكركم أي ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياء التي ذكرناها؟! وقال مجاهد: " فيه ذكركم " أي حديثكم. وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم. وقال سهل بن عبد الله:

العمل بما فيه حياتكم.
قلت: وهذه الأقوال بمعنى الأول يعمها، إذ هي شرف كلها، والكتاب شرف لنبينا صلى الله عليه وسلم، لأنه معجزته، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه، دليله قوله عليه السلام: (القرآن حجة لك أو عليك).

قوله تعالى: وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين (١١) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون (١٢) لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون (١٣) قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين (١٤) فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين (١٥)

(١) راجع ج ١٦ ص ٩٣ فما بعد.

قوله تعالى: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) يريد مدائن كانت باليمن. وقال أهل التفسير والاحبار: إنه أراد أهل حضور (١) وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مهدم، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له ضنن (٢) كثير الثلج، وليس بشعيب صاحب مدين، لأن قصة حضور قبل مدة عيسى عليه السلام، وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرس في ذلك التاريخ نبياً لهم اسمه حنظلة بن صفوان، وكانت حضور بأرض الحجاز من ناحية الشام، فأوحى الله إلى أرميا أن أيت بختنصر فأعلمه أنني قد سلطته على أرض العرب وأني منتقم بك منهم، وأوحى الله إلى أرميا أن أحمل معد بن عدنان على البراق إلى أرض العراق، كي لا تصيبه النقمة والبلاء معهم، فإني مستخرج من صلبه نبياً في آخر الزمان اسمه محمد، فحمل معد وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة، ثم إن بختنصر نهض بالجيوش، وكمن للعرب في مكان - وهو أول من اتخذ المكامن فيما ذكروا - ثم شن الغارات على حضور فقتل وسبى وخرب العامر، ولم يترك بحضور أثراً، ثم انصرف راجعاً إلى السواد. و " كم " في موضع نصب ب " - قصمنا " . والقصم الكسر، يقال: قصمت ظهر فلان وانقصمت سنه إذا انكسرت والمعنى به هاهنا الإهلاك. وأما الفصم (بالفاء) فهو الصدع في الشيء من غير بينونة، قال الشاعر: (٣)

كأنه دملج من فضة نبه* في ملعب من عذارى الحي مفصوم
ومنه الحديث (فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً). وقوله: " كان ظالمة " أي كافرة، يعني أهلها. والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان. (وأنشأنا) أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم (قوما آخرين). (فلما أحسوا) أي رأوا عذابنا، يقال: أحسست منه ضعفاً. وقال الأخفش: " أحسوا " خافوا وتوقعوا. (إذا هم منها يركضون) أي يهربون ويفرون. والركض العدو بشدة الوطئ. والركض

- (١) وتروى حضوراء (بالألف الممدودة) وفي ح الجمل بوزن شكور.
(٢) كذا في الأصول: الأب
ففيه ضئن كثير الملح صححه في الهامش.
(٣) هو ذو الرمة يذكر غزالا شبهه وهو نائم بدملج فضة
قد طرح ونسي. ونبه: أي منسي نسيته العذارى في الملعب.

تحريك الرجل، ومنه قوله تعالى: " اركض برجلك " (١) [ص: ٤٢] وركضت الفرس
برجلي استحثته

ليعدو ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا وليس بالأصل، والصواب ركض الفرس
على ما لم يسم فاعله فهو ركوض. (لا تركضوا) أي لا تفروا. وقيل: إن الملائكة
نادتهم لما انهزموا استهزاء بهم وقالت: " لا تركضوا ". (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه)
أي إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، والمترف المتنعم، يقال: أترف على فلان أي
وسع

عليه في معاشه. وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال: " وأترفناهم في الحياة الدنيا " (٢)
[المؤمنون: ٣٣].

(لعلكم تسألون) أي لعلكم تسألون شيئاً من دنياكم، استهزاء بهم، قاله قتادة. وقيل:
المعنى " لعلكم تسألون " عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به. وقيل: المعنى " لعلكم
تسألون " أي تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم، قيل لهم ذلك
استهزاء

وتقريعا وتوبيخا. (قالوا يا ويلنا) لما قالت لهم الملائكة: " لا تركضوا " ونادت يا
لنارات

الأنبياء! ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذي سلط عليهم عدوهم
بقتلهم

النبي الذي بعث فيهم، فعند ذلك قالوا " يا ويلنا إن كنا ظالمين " فاعترفوا بأنهم ظلموا
حين لا ينفع الاعتراف. (فما زالت تلك دعواهم) أي لم يزالوا يقولون: " يا ويلنا إنا كنا
ظالمين ". (حتى جعلناهم حصيدا) أي بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل، قاله
مجاهد.

وقال الحسن: أي بالعذاب. (حامدين) أي ميتين. والخمود الهمود كخمود النار إذا
طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيها بانطفاء
النار.

قوله تعالى: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين (١٦)
لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (١٧)
بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل
مما تصفون (١٨)

(١) راجع ج ١٥ ص ٢١١.

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٢١ فما بعد.

(۲۷۰)

قوله تعالى: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أي عبثا وباطلا، بل للتنبية على أن لها خالقا قادرا يجب امتثال أمره، وأنه يجازي المسئ والمحسن أي ما خلقنا

السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا ويكفر بعضهم، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا، ولا يؤمروا في الدنيا بحسن ولا ينهاوا عن قبيح. وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة.

قوله تعالى: (لو أردنا أن نتخذ لهوا) لما أعتقد قوم أن له ولدا قال: " لو أردنا أن نتخذ لهوا " واللهو المرأة بلغة اليمن، قاله قتادة. وقال عقبه بن أبي جسر - وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى: " لو أردنا أن نتخذ لهوا " - فقال: اللهو

الزوجة، وقاله الحسن. وقال ابن عباس: اللهو الولد، وقاله الحسن أيضا. قال الجوهري: وقد يكنى باللهو عن الجماع.

قلت: ومنه قول امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني * كبرت وألا يحسن اللهو أمثالي
وإنما سمي الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب، كما قال: (١)
* وفيهن ملهى للصديق ومنظر *

الجوهري - وقوله تعالى: " لو أردنا أن نتخذ لهوا " قالوا امرأة ويقال: ولدا. (لاتخذناه من لدنا) أي من عندنا لا من عندكم. قال ابن جريج: من أهل السماء لا من أهل الأرض.

قيل: أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله، أي كيف يكون منحوتكم ولدا لنا. وقال

ابن قتيبة: الآية رد على النصارى. (إن كنا فاعلين) قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن:

المعنى ما كنا فاعلين، مثل " إن أنت إلا نذير " (٢) [فاطر: ٢٣] أي ما أنت إلا نذير. و " إن " بمعنى الجحد

وتم الكلام عند قوله: " لاتخذناه من لدنا ". وقيل: إنه على معنى الشرط، أي إن كنا فاعلين

ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد، إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة

(١) هو زهير بن أبي سلمى والبيت من معلقته وتمامه: * أنيق لعين الناظر المتوسم *

(٢) راجع ج ١٤ ص...



(۲۷۶)

ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً. وقيل: لو أردنا أن نتخذ ولداً على طريق التبني لاتخذناه

من عندنا من الملائكة. ومال إلى هذا قوم، لأن الإرادة قد تتعلق بالتبني فأما اتخاذ الولد فهو محال، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل، ذكره القشيري.

قوله تعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل القذف الرمي، أي نرمي بالحق على الباطل. (فيدمغه) أي يقهره ويهلكه. وأصل الدماغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدماغة (١)). والحق هنا القرآن، والباطل الشيطان في قول مجاهد، قال: وكل ما في القرآن

من الباطل فهو الشيطان. وقيل: الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد

وغيره. وقيل: أراد بالحق الحجة، وبالباطل شبههم. وقيل: الحق المواعظ، والباطل المعاصي،

والمعنى متقارب. والقرآن يتضمن الحجة والموعظة. (فإذا هو زاهق) أي هالك وتالف، قاله قتادة. (ولكم الويل) أي العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الرب بما لا يجوز وصفه.

وقال ابن عباس: الويل واد في جهنم، وقد تقدم (١). "مما تصفون" أي مما تكذبون، عن

قتادة ومجاهد، نظيره: "سيجزيههم وصفهم" (٢) [الانعام: ١٣٩] أي بكذبهم. وقيل: مما تصفون الله به من

المحال وهو اتخاذ سبحانه الولد.

قوله تعالى: وله من في السماوات والأرض ومن عنده

لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار

لا يفترون (٢٠) أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون (٢١)

قوله تعالى: (وله من في السماوات والأرض) أي ملكاً وخلقاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقته. (ومن عنده) يعني الملائكة الذين ذكرتهم أنهم بنات الله.

(لا يستكبرون) أي لا يأنفون (عن عبادته) والتذلل له. (ولا يستحسرون) أي يعيون،

قاله قتادة. مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالاعياء والتعب، [يقال]: حسر البعير يحسر حسوراً أعياء وكل، واستحسر وتحسر مثله، وحسرتة أنا حسراً يتعدى ولا

يتعدى،

(١) راجع ج ٢ ص ٧ فما بعد.

(٢) راجع ج ٧ ص ٩٥ فما بعد.

(۲۷۷)

وأحسرتة أيضا فهو حسير. وقال ابن زيد: لا يملون. ابن عباس: لا يستنكفون. وقال أبو زيد: لا يكلون. وقيل: لا يفشلون، ذكره ابن الأعرابي، والمعنى واحد. (يسبحون الليل والنهار) أي يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما. (لا يفترون) أي لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس. قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا

فقلت: أما لهم شغل عن التسبيح؟ أما يشغلهم عنه شيء؟ فقال: من هذا؟ فقلت: من بني عبد المطلب، فضمني إليه وقال: يا بن أخي هل يشغلك شيء عن النفس؟! إن التسبيح لهم بمنزلة

النفس. وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الملائكة أفضل من بني آدم. وقد تقدم (١) والحمد لله.

قوله تعالى: (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد، أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الأحياء. وقيل: "أم" بمعنى "هل" أي هل أتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى. ولا تكون "أم" هنا بمعنى بل،

لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر "أم" مع الاستفهام فتكون "أم" المنقطعة

فيصح المعنى، قاله المبرد. وقيل: "أم" عطف على المعنى أي أفخلقنا السماء والأرض لعباء، أو هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة في الأرض يحيى الموتى فيكون موضع شبهة؟. وقيل: "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون" [الأنبياء: ١٠] ثم عطف عليه بالمعاقبة، وعلى هذين التأويلين تكون "أم" متصلة.

وقرأ الجمهور: "ينشرون" بضم الياء وكسر الشين من أنشر الله الميت فنشر أي أحياه فحيي.

وقرأ الحسن: بفتح الياء، أي يحيون ولا يموتون.

قوله تعالى: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله

رب العرش عما يصفون (٢٢) لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (٢٣)

أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي

وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون (٢٤)

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٩ فما بعد.

قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أي لو كان في السماوات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدتا. قال الكسائي وسيبويه: "إلا" بمعنى غير فلما جعلت إلا

في موضع غير أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير، كما قال: وكل أخ مفارقه أخوه* لعمر أبيك إلا الفرقدان وحكى سيبويه: لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكنا. وقال الفراء: "إلا" هنا في موضع سوى،

والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها. وقال غيره: أي لو كان فيهما إلهان لفسد

التدبير، لأن أحدهما إن أراد شيئاً والآخر ضده كان أحدهما عاجزا: وقيل: معنى " لفسدتا "

أي خربتاه وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء. (فسبحان الله رب

العرش عما يصفون) نزه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد. قوله تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) قاصمة للقدرية وغيرهم. قال ابن جريج المعنى. لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم، لأنهم عبيد. بين بهذا

أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للآلهية. وقيل: لا يؤاخذ على أفعاله

وهم يؤاخذون. وروي عن علي رضي عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين: أيحب ربنا أن

يعصى؟ قال: أفيعصي ربنا قهرا؟ قال: أرأيت إن منعتي. الهدى ومنحتي الردى أحسن إلي أم أساء؟ قال: إن منعتك حقت فقد أساء، وإن منعتك فضله فهو يؤتته من يشاء. ثم تلا الآية: " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ". وعن ابن عباس قال: لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت ألا تعصى ما عصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى فكيف

هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. قوله تعالى: (أم اتخذوا من دونه آلهة) أعاد التعجب في اتخاذ الآلهة من دون الله مبالغة في التوبيخ، أي صفتهم كما تقدم في الانشاء والاحياء، فتكون " أم " بمعنى هل على

ما تقدم، فليأتوا بالبرهان على ذلك. وقيل: الأول احتجاج من حيث المعقول، لأنه قال:

"هم ينشرون" ويحيون الموتى، هيهات! والثاني احتجاج بالمنقول، أي هاتوا برهانكم
من

(٢٧٩)

هذه الجهة، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن، أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟

(هذا ذكر من معي) بإخلاص التوحيد في القرآن (وذكر من قبلي) في التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب، فانظروا هل في كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة سواه؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت في الأوامر والنواهي. وقال

قتادة: الإشارة إلى القرآن، المعنى: " هذا ذكر من معي " بما يلزمهم من الحلال والحرام

" وذكر من قبلي " من الأمم ممن نجا بالايمان وهلك بالشرك. وقيل: " ذكر من معي " بما لهم من الثواب على الايمان والعقاب على الكفر. " وذكر من قبلي " من الأمم السالفة فيما

يفعل بهم في الدنيا، وما يفعل بهم في الآخرة. وقيل: معنى الكلام الوعيد والتهديد، أي أفعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء. وحكى أبو حاتم: أن يحيى بن يعمر وطلحة

ابن مصرف قرأ " هذا ذكر من معي وذكر من قبلي " بالتنوين وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه

لهذا. وقال أبو إسحاق الزجاج في هذه القراءة: المعنى، هذا ذكر مما أنزل إلي ومما هو معي

وذكر من قبلي. وقيل: ذكر كائن من قبلي، أي جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي. (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) وقرأ ابن محيص والحسن: " الحق " بالرفع بمعنى هو الحق

وهذا هو الحق وعلى هذا يوقف على " لا يعلمون " ولا يوقف عليه على قراءة النصب. (فهم معرضون) أي عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد.

قوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢٥)

قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه) (١) وقرأ حفص وحمزة والكسائي: " نوحى إليه " بالنون، لقوله: " أرسلنا ". (أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) أي قلنا للجميع لا إله إلا الله، فأدل العقل شاهدة أنه لا شريك له، والنقل عن جميع الأنبياء موجود، والدليل إما معقول وإما منقول. وقال قتادة: لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع

مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الاخلاص والتوحيد.

(١) (يوحي) بالياء قراءة (نافع).

(٢٨٠)

قوله تعالى: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون (٢٦) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (٢٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٨) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين (٢٩)

قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه) نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعا في شفاعتهم لهم. وروى معمر عن قتادة قال

قالت اليهود - قال معمر في روايته - أو طوائف من الناس: خاتن إلى الجن والملائكة من الجن، فقال الله عز وجل: " سبحانه " تنزيها له. (بل عباد) أي بل هم عباد (مكرمون) أي ليس كما زعم هؤلاء الكفار. ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل اتخذ

عبادا مكرمين. وأجازه الفراء على أن يرده على ولد، أي بل لم نتخذهم ولدا، بل اتخذناهم عبادا

مكرمين. والولد هنا للجمع، وقد يكون الواحد والجمع ولدا. ويجوز أن يكون لفظ الولد

للجنس، كما يقال لفلان مال. (لا يسبقونه بالقول) أي لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلمون

إلا بما يأمرهم. (وهم بأمره يعملون) أي بطاعته وأوامره. " يعلم ما بين أيديهم " أي يعلم

ما عملوا وما هم عاملون، قال ابن عباس. وعنه أيضا: " ما بين أيديهم " الآخرة " وما خلفهم "

الدنيا، ذكر الأول الثعلبي، والثاني القشيري. (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كل من رضي الله عنه، والملائكة يشفعون غدا في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره، وفي الدنيا أيضا، فإنهم يستغفرون

للمؤمنين ولمن في الأرض، كما نص عليه التنزيل على ما يأتي. (وهم) يعني الملائكة (من)

خشيته) يعني من خوفه (مشفقون) أي خائفون لا يأمنون مكره.

قوله تعالى: (ومن يقل منهم إني إله من دونه) قال قتادة والضحاك وغيرهما: عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشركة، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة، ولم يقل

أحد من الملائكة إني إله غيره. وقيل: الإشارة إلى جميع الملائكة، أي فذلك القائل (نجزيه جهنم). وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبدون، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال. وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء. وقد تقدم في "البقرة" (١). (كذلك نجزي

الظالمين) أي كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعهما.

قوله تعالى: أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (٣٠) وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون (٣١) وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون (٣٢) هو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (٣٣)

قوله تعالى: (أو لم ير الذين كفروا) قراءة العامة "أو لم" بالواو. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد "ألم تر" بغير واو وكذلك هو في مصحف مكة. "أو لم ير"

بمعنى يعلم. "الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا" قال الأخفش: "كانتا" لأنهما صنفان، كما تقول العرب: هما لقاحان أسودان، وكما قال الله عز وجل: "إن الله

يمسك السماوات والأرض أن تزولا" (٢) [فاطر: ٤١] قال أبو إسحاق: "كانتا" لأنه يعبر عن السماوات

بلفظ الواحد بسماء، ولأن السماوات كانت سماء واحدة، وكذلك الأرضون. وقال: "رتقا"

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦١ فما بعد.

(٢) راجع ج ١٤ ص ٣٥٦.

ولم يقل رتقين، لأنه مصدر، والمعنى: كانتا ذواتي رتق. وقرأ الحسن: " رتقا " بفتح التاء.

قال عيسى بن عمر: هو صواب وهي لغة. والرتق السد ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرتقه

فارتق أي التأم، ومنه الرتقاء للمنظمة الفرج. قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة: يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء. وكذلك قال كعب:

خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها (١) ففتحها بها، وجعل

السماوات سبعا والأرضين سبعا. وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح: كانت السماوات

مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة

ففتقها فجعلها سبعا. وحكاه القتيبي في عيون الاخبار له، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله

عز وجل: " أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " قال: كانت

السماوات مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها، ففتق من هذه سبع سماوات، ومن هذه سبع

أرضين، خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس، وشق فيها الأنهار وأنبت فيها الأثمار، وجعل فيها البحار وسماها رعاء، عرضها مسيرة خمسمائة عام، ثم خلق الثانية

مثلها في العرض والغلظ وجعل فيها أقواماً، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدي الناس، وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقنهم

الأرض إلى يأجوج ومأجوج، واسم تلك الأرض الدكماء، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام، ومنها هواء إلى الأرض. الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل

النار

مثل البغال السود، ولها أذنان مثل أذنان الخيل الطوال، يأكل بعضها بعضاً فتسلط على

بني آدم. ثم خلق الله الخامسة [مثلها] (٢) في الغلظ والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال

وقيود لأهل النار. ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد، فيها حجارة سود بهم، ومنها

خلقت تربة آدم عليه السلام، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود

العظيم، وهي
من كبريت تعلق في أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم، فذلك قوله
عز وجل:
" وقودها الناس والحجارة " (٣) [البقرة: ٢٤] ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها
عربية وفيها جهنم، فيها بابان اسم

(١) في ب و ج وك: توسطتها.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) راجع ج ١٨ ص ١٩٤.

الواحد سجين و [اسم] (١) الآخر الفلق (١)، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهي كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون، وأما الفلق (١) فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة. وقد مضى

في " البقرة " (٢) أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتي له في آخر " الطلاق " (٣)

زيادة بيان إن شاء الله تعالى. وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدي: إن السماوات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات، نظيره قوله عز وجل: " والسماء ذات الرفع والأرض ذات الصدع " (٤) [الطارق: ١١ - ١٢]. واختار هذا القول الطبري، لان بعده: " وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ".

قلت: وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة، ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية، ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء. وقيل: يهون عليهم إذا يغضبون * سحق العداة وإرغامها ورتق الفتوق وفتق الرتوق * ونقض الأمور وإبرامها وفي قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء، قاله قتادة. الثاني - حفظ حياة كل شيء بالماء. الثالث - وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي، قاله قطرب. " وجعلنا " بمعنى خلقنا. وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله! إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء، قال: (كل شيء خلق من الماء) الحديث، قال أبو حاتم قول أبي هريرة: " أنبئني عن كل شيء " أراد به عن كل شيء خلق من الماء " والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال: (كل شيء خلق من الماء) وإن لم يكن مخلوقا. وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السماوات والأرض رتقا. وقيل: الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله: " وأوتيت من كل شيء " (٥) [النمل: ٢٣]

(١) من ب و ج و ز وك.
(٢) راجع ج ١ ص ٢٥٨ فما بعد.

- (٣) راجع ج ١٨ ص ١٧٤.
- (٤) راجع ج ٢٠ ص ١٠.
- (٥) راجع ج ١٣ ص ١٨٤.

وقوله: " تدمر كل شئ " (١) [الأحقاف: ٢٥] والصحيح العموم، لقوله عليه السلام:
(كل شئ خلق من

الماء) والله أعلم. (أفلا يؤمنون) أي أفلا يصدقون بما يشاهدون، وأن ذلك لم يكن
بنفسه، بل لمكون كونه، ومدبر أوجده، ولا يجوز أن يكون ذلك المكون محدثا.
قوله تعالى: (وجعلنا في الأرض رواسي) أي جبالا ثوابت. (أن تميد بهم) أي
لئلا تميد بهم، ولا تتحرك ليتم القرار عليها، قاله الكوفيون. وقال البصريون: المعنى
كراهية

أن تميد. والميد التحرك والدوران. يقال: ماد رأسه، أي دار. ومضى في " النحل " (٢)
مستوفي. (وجعلنا فيها فجاجا) يعني في الرواسي، عن ابن عباس. والفجاج المسالك.
والفج الطريق الواسع بين الجبلين. وقيل: وجعلنا في الأرض فجاجا أي مسالك، وهو
اختيار الطبري، لقوله: (لعلهم يهتدون) أي يهتدون إلى السير في الأرض. (سبلا)
تفسير الفجاج، لان الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون. وقيل: ليهتدوا
بالاعتبار بها إلى دينهم.

قوله تعالى: (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أي محفوظا من أن يقع ويسقط على
الأرض، دليله قوله تعالى: " ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه " (٣)
[الحج: ٦٥]. وقيل:

محفوظا بالنجوم من الشياطين، قاله الفراء. دليله قوله تعالى: " وحفظناها من كل
شيطان رجيم " (٢) [الحجر: ١٧]. وقيل: محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه
أحد بحيلة. وقيل:

محفوظا فلا يحتاج إلى عماد. وقال مجاهد: مرفوعا. وقيل: محفوظا من الشرك
والمعاصي.

(وهم) يعني الكفار (عن آياتها معرضون) قال مجاهد: يعني الشمس والقمر. وأضاف
الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف الآيات إلى نفسه في مواضع، لأنه
الفاعل

لها. بين أن المشركين غفلوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلها ونهارها،
وشمسها

وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا
واعتبروا

لعلموا أن لها صناعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك.

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥ فما بعد.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٩٠ وص ١٠.

(٣) راجع ج ١٢ ص ٩٢ فما بعد.



(۲۸۵)

قوله تعالى: (وهو الذي خلق الليل والنهار) ذكرهم نعمة أخرى: جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم. (الشمس والقمر) أي وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، لتعلم الشهور والسنون والحساب، كما تقدم في " سبحان " (١) بيانه.

(كل) يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار (في فلك يسبحون) أي يجرون ويسيروا بسرعة كالسباح في الماء. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: " والسابحات (٢) سبحا " ويقال للفرس الذي يمد يده في الجري سباح. وفيه من النحو أنه

لم يقل: يسبحن ولا تسبح، فمذهب سيبويه: أنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل، أخبر عنهن بالواو والنون ونحوه قال الفراء. وقد تقدم هذا المعنى في " يوسف " (٣). وقال الكسائي: إنما قال: " يسبحون " لأنه رأس آية، كما قال

الله تعالى: " نحن جميع منتصر " (٤) [القمر: ٤٤] ولم يقل منتصرون. وقيل: الجري للفلك فنسب إليها.

والأصح أن السيارة تجري في الفلك، وهي سبعة أفلاك دون السماوات المطبقة، التي هي مجال

الملائكة وأسباب الملكوت، فالقمر في الفلك الأدنى، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس،

ثم المريخ، ثم المشتري ثم زحل، والثامن فلك البروج، والتاسع الفلك الأعظم. والفلك واحد أفلاك النجوم. قال أبو عمرو: ويجوز أن يجمع على فعل مثل أسد وأسد وخشب وخشب. وأصل الكلمة من الدوران، ومنه فلكة المغزل، لاستدارتها. ومنه قيل: فلك ثدي المرأة تفلিকা، وتفلك استدار. وفي حديث ابن مسعود: تركت فرسي كأنه يدور في فلك. كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم. قال ابن زيد: الأفلاك

مجاري النجوم والشمس والقمر. قال: وهي بين السماء والأرض. وقال قتادة: الفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء. وقال مجاهد: الفلك كهيئة حديد الرحي

وهو قطبها. وقال الضحاك: فلکها مجراها وسرعة مسيرها. وقيل: الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه، والله أعلم.

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧ فما بعد.

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٨٨.

(٣) راجع ج ٩ ص ١٢٢.

(٤) راجع ج ١٧ ص ١٤٥.

(٢٨٦)

قوله تعالى: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون (٣٤) كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥)

قوله تعالى: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أي دوام البقاء في الدنيا نزلت حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون. وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون: شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان، فقال الله تعالى: قد مات

الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك. (أفإن مت فهم الخالدون) أي أفهم، مثل قول الشاعر: (١)

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع * فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
أي أهم! فهو استفهام إنكار. وقال الفراء: جاء بالفاء ليدل على الشرط، لأنه جواب قولهم

سيموت. ويجوز أن يكون جئ بها، لان التقدير فيها: أفهم الخالدون إن مت! قال الفراء:

ويجوز حذف الفاء وإضمارها، لان "هم" لا يتبين فيها الاعراب. أي إن مت فهم يموتون

أيضا، فلا شماتة في الإمامة. وقرئ "مت" و "مت" بكسر الميم وضمها لغتان. قوله تعالى: (كل نفس ذائقة الموت) تقدم في (آل عمران) (٢) (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) "فتنة" مصدر على غير اللفظ. أي نختبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام،

فننظر كيف شكركم وصبركم. (وإلينا ترجعون) أي للجزاء بالاعمال.

قوله تعالى: وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون (٣٦)

(١) هو أبو خراش الهذلي ورفاه سكتته من الرعب يقول: سكتوني. اعتبر بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلا على ما في النفوس.

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٩٧ فما بعدها.

قوله تعالى: (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا) أي ما يتخذونك. والهزاء السخرية، وقد تقدم. وهم المستهزئون المتقدمو الذكر في آخر سورة "الحجر" (١)

في قوله: "إنا كفييناك المستهزئين" [الحجر: ٩٥]. كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون

لإلهية الرحمن، وهذا غاية الجهل (أهذا الذي) أي يقولون: أهذا الذي؟ فأضمر القول وهو جواب "إذا" وقوله: "إن يتخذونك إلا هزوا" كلام معترض بين "إذا" وجوابه. (بذكركم آلتهكم) أي بالسوء والعيب. ومنه قول عنترة.

لا تذكرني مهري وما أطعمته* فيكون جلدك مثل جلد الأجر (٢)
أي لا تعيبي مهري. (وهم بذكر الرحمن) أي بالقرآن. (هم كافرون) "هم" الثانية تؤكد كفرهم، أي هم الكافرون مبالغة في وصفهم بالكفر.

قوله تعالى: خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون (٣٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون (٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون (٤٠)

قوله تعالى: (خلق الانسان من عجل) أي ركب على العجلة فخلق عجولا، كما قال الله تعالى: "الله الذي خلقكم من ضعف" (٣) [الروم: ٥٤] أي خلق الانسان ضعيفا. ويقال: خلق الانسان

من الشر أي شريرا إذا بالغت في وصفه به. ويقال: إنما أنت ذهاب ومجئ. أي ذاهب جائي. أي طبع الانسان العجلة، فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضره. ثم قيل: المراد بالانسان آدم عليه السلام. قال سعيد بن جبير والسدي: لما دخل الروح في عيني

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٢.

(٢) قاله لامرأة له من بجيلة كانت تلومه في فرس كان يؤثره على خيله ويطعمه ألبان إبله.

(٣) راجع ج ١٤ ص ٤٦.

آدم عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ

الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة. فذلك قوله: " خلق الانسان من عجل ". وقيل: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميم نفخ الروح فيه

قبل غروب الشمس، قاله الكلبى ومجاهد وغيرهما. وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني:

العجل الطين بلغة حمير. وأنشدوا:

* والنخل ينبت بين الماء والعجل (١) *

وقيل: المراد بالانسان الناس كلهم. وقيل المراد: النضر بن الحرث بن علقمة بن كعدة بن عبد الدار

في تفسير ابن عباس، أي لا ينبغي لمن خلق من الطين الحقيق أن يستهزئ بآيات الله ورسله.

وقيل: إنه من المقلوب، أي خلق العجل من الانسان. وهو مذهب أبي عبيدة. النحاس: وهذا القول لا ينبغي أن يجاب به في كتاب الله، لان القلب إنما يقع في الشعر اضطرارا كما (٢) قال:

* كان الزناء فريضة الرجم *

ونظيره (٣) هذه الآية: " وكان الانسان عجولا " [الاسراء: ١١] وقد مضى في "

سبحان " (٣) [الاسراء: ١]. (سأوريكم آياتي فلا

تستعجلون) هذا يقوي القول الأول، وأن طبع الانسان العجلة، وأنه خلق خلقا لا يتمالك،

كما قال عليه السلام حسب ما تقدم في " سبحان ". والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد

عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طلبوه من العذاب،

فأرادوا الاستعجال وقالوا: " متى هذا الوعد " [يونس: ٤٨]؟ وما علموا أن لكل شئ أجلا مضروبا.

نزلت في النضر بن الحرث. وقوله: " إن كان هذا (٤) هو الحق " [الأنفال: ٣٢].

وقال الأخفش سعيد:

معنى " خلق الانسان من عجل " أي قيل له كن فكان، فمعنى " فلا تستعجلون " على هذا

القول أنه من يقول للشئ كن فيكون، لا يعجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات. (ويقولون

متى هذا الوعد) أي الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا أي مرجونا. وقيل: معنى " الوعد
هنا"
الوعيد، أي الذي يعدنا من العذاب. وقيل: القيامة. (إن كنتم صادقين) يا معشر
المؤمنين.

-
- (١) صدر البيت: * والنبع في الصخرة الصماء منبته *
(٢) البيت: للجعدي وصدرة: * كانت فريضة ما تقول كما *
(٣) في ب و ج وط وك وى: نظير هذه الآية. راجع ج ١٠ ص ٢٢٦.
(٤) راجع ج ٧ ص ٣٩٨.

قوله تعالى: (لو يعلم الذين كفروا) العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضي مفعولا ثانيا مثل " لا تعلمونهم (١) الله يعلمهم " [الأنفال: ٦٠]. وجواب " لو " محذوف، أي لو علموا الوقت الذي

(لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) وعرفوه لما استعجلوا الوعيد. وقال الزجاج: أي لعلموا صدق الوعد. وقيل: المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولآمنوا. وقال الكسائي: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أي لو علموه علم يقين

لعلموا أن الساعة آتية. ودل عليه (بل تأتيهم بغتة) أي فجأة يعني القيامة. وقيل العقوبة. وقيل: النار فلا يتمكنون حيلة (فتبتهم). قال الجوهري: بهته بهتا أخذه بغتة، قال الله تعالى: " بل تأتيهم بغتة فتبتهم ". وقال الفراء: " فتبتهم " أي تحيرهم، يقال: بهته يبهته إذا واجهه بشئ يحيره. وقيل: فتفجأهم. (فلا يستطيعون ردها) أي صرفها عن ظهورهم. (ولا هم ينظرون) أي لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار. قوله تعالى: ولقد استهزئ برسلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون (٤١)

قوله تعالى: (ولقد استهزئ برسلك من قبلك) هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له. يقول: إن استهزأ بك هؤلاء، فقد استهزئ برسلك من قبلك، فاصبر كما صبروا.

ثم وعده النصر فقال: (فحاق) أي أحاط ودار (بالذين) كفروا و (سخروا منهم) وهزءوا بهم (ما كانوا به يستهزئون) أي جزاء استهزائهم. قوله تعالى: قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون (٤٢) أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون (٤٣) بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون (٤٤٠)

قوله تعالى: (قل من يكلوكم) يحرسكم ويحفظكم. والكلاءة الحراسة والحفظ، كلاءه الله كلاء (بالكسر) أي حفظه وحرسه. يقال: اذهب في كلاءة الله، واكتلأت منهم أي احترست، قال الشاعر هو ابن هرمة:

إن سليمى والله يكلوها * ضنت بشئ ما كان يرزؤها
وقال آخر: (١) * أنخت بعيري واكتلأت بعينه *

وحكى الكسائي والفراء " قل من يكلوكم " بفتح اللام وإسكان الواو. وحكى " من يكلأكم "

على تخفيف الهمزة في الوجهين، والمعروف تحقيق الهمزة وهي قراءة العامة. فأما " يكلأكم "

فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس: أحدهما: أن بدل الهمزة إنما يكون في الشعر. والثاني:

أنهما يقولان في الماضي كليته.

ثم قيل: مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفي. وتقديره: قل لا حافظ لكم (بالليل) إذا نتم (و) ب (بالنهار) إذا قمتم وتصرفتم في أموركم. (من الرحمن) أي من عذابه وبأسه، كقوله تعالى: " فمن ينصرنى من الله " (٢) [هود: ٦٣] أي من عذاب الله. والخطاب لمن

اعترف منهم بالصانع، أي إذا أقررتم بأنه الخالق، فهو القادر على إحلال العذاب الذي تستعجلونه. (بل هم عن ذكر ربهم) أي عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربهم وقيل: عن معرفته. (معرضون) لا هون غافلون.

قوله تعالى: (أم لهم آلهة) المعنى: ألهم والميم صلة. (تمنعهم من دوننا) أي من عذابنا. (لا يستطيعون) يعنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون نصر

أنفسهم) فكيف ينصرون عابديهم. (ولا هم منا يصحبون) قال ابن عباس: يمنعون. وعنه: يجارون، وهو اختيار الطبري. تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، أي مجير

منه، قال الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذا * ليصحب منها والرماح دواني

(١) هو كعب بن زهير وعجزه. * وأمرت نفسي أي أمرى أفعال *

(٢) راجع ج ٩ ص ٥٨ فما بعد.

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: " ينصرون " أي يحفظون. قتادة:
أي لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل رحمته صاحباً لهم.
قوله تعالى: (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) قال ابن عباس: يريد أهل مكة. أي بسطنا
لهم ولآبائهم في نعيمها و (طال عليهم العمر) في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم،
فاغتروا

وأعرضوا عن تدبير حجج الله عز وجل. (أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من
أطرافها)

أي بالظهور عليها لك يا محمد أرضاً بعد أرض، وفتحها بلداً بعد بلد مما حول مكة،
قال معناه الحسن وغيره. وقيل: بالقتل والسبي، حكاه (١) الكلبي. والمعنى واحد. وقد
مضى

في " الرعد " (٢) الكلام في هذا مستوفى. (أفهم الغالبون) يعني كفار مكة بعد أن
نقصنا

من أطرافهم، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم.

قوله تعالى: قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء
إذا ما يندرون (٤٥) ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا
إنا كنا ظالمين (٤٦)

قوله تعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي) أي أخوفكم وأحذركم بالقرآن. (ولا يسمع
الصم الدعاء) أي من أصم الله قلبه، وختم على سمعه، وجعل على بصره غشاوة، عن
فهم

الآيات وسماع الحق. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميعة " ولا يسمع "
بياء

مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله " الصم " رفعا أي إن الله لا يسمعهم. وقرأ
ابن عامر

والسلمي أيضاً، وأبو حياة ويحيى بن الحرث " ولا تسمع " بتاء مضمومة وكسر الميم
" الصم "

نصباً، أي إنك يا محمد " لا تسمع الصم الدعاء "، فالخطاب للنبي صلى الله عليه
وسلم. ورد

هذه القراءة بعض أهل اللغة. وقال: وكان يجب أن يقول: إذا ما تنذرهم. قال النحاس:
وذلك جائز، لأنه قد عرف المعنى.

(١) في ج: (حكاه الثعلبي).

(٢) راجع ج ٩ ص ٣٣٣.

قوله تعالى: (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) قال ابن عباس: طرف. قال قتادة: عقوبة. ابن كيسان: قليل وأدنى شيء، مأخوذة من نفح المسك. قال: (١) وعمرة من سروات النساء * تنفح بالمسك أردانها ابن جريج: نصيب، كما يقال: نفح فلان لفلان من عطائه، إذا أعطاه نصيبا من المال. قال الشاعر: (٢)

لما أتيتك أرجو فضل نائلكم * نفحتني نفحة طابت لها العرب
أي طابت لها النفس. والنفحة في اللغة الدفعة اليسيرة، فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب. (ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أي متعددين. فيعرفون حين لا ينفعهم الاعتراف.

قوله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين (٤٧)
قوله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) الموازين جمع ميزان. فقيل: إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله، فتوضع الحسنات

في كفة، والسيئات في كفة. وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله، كما قال:
ملك تقوم الحادثات لعدله * فلكل حادثة لها ميزان
ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع. وخرج اللالكاني الحافظ أبو القاسم

في سننه عن أنس يرفعه: (إن ملكا موكلا بالميزان فيؤتي بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان

فإن رجع نادي الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف

نادي الملك شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا). وخرج عن حذيفة رضي الله عنه قال:

(صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام) وقيل: للميزان كفتان وحيوط ولسان والشاهين، فالجمع يرجع إليها. وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ذكر الميزان مثل وليس ثم

(١) هو قيس بن الخطيم الأنصاري.

(٢) هو للرماح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ميزان وإنما هو العدل. والذي وردت به الاخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول. وقد مضى في " الأعراف " (١) بيان هذا، وفي " الكهف " (٢) أيضا. وقد ذكرناه في كتاب " التذكرة "

مستوفى والحمد لله. و " القسط " العدل أي ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا.

و " القسط " صفة الموازين ووحيد لأنه مصدر، يقال: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازن قسط. مثل رجال عدل ورضا. وقرأت فرقة " القسط " بالصاد. " ليوم القيامة "

أي لأهل يوم القيامة. وقيل: المعنى في يوم القيامة. " فلا تظلم نفس شيئا " أي لا ينقص

من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مسيء. (وإن كان مثقال حبة من خردل) قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر " مثقال حبة " بالرفع هنا، وفي " لقمان " (٣) على معنى إن وقع أو حضر،

فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر الباقون " مثقال " بالنصب على معنى وإن كان العمل

أو ذلك الشيء مثقال. ومثقال الشيء ميزانه من مثله. (أتينا بها) مقصورة الألف قراءة الجمهور أي أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها. يجاء بها أي بالحبة ولو قال به أي بالمثقال

لجاز. وقيل: مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فهذا قال: " أتينا بها ". وقرأ مجاهد وعكرمة:

" أتينا " بالمد على معنى جازينا بها. يقال: آتي يؤاتي مؤاتاة. (وكفى بنا حاسبين) أي مجازين (٤) على ما قدموه من خير وشر. وقيل: " حاسبين " أي (٥) لا أحد أسرع حسابا منا.

والحساب العد. روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلا قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني

وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: (يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك

إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون

ذنوبهم كان فضلا لك وإن كان عقابك [إياهم] (٦) فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل) قال:

فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما تقرأ

كتاب الله تعالى
" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا " فقال الرجل: والله يا رسول
الله
ما أجد لي ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم. قال حديث
غريب.

-
- (١) راجع ج ٧ ص ١٦٥.
 - (٢) راجع ج ١٠ ص ٤١٨.
 - (٣) راجع ج ١٤ ص ٦٦ فما بعد.
 - (٤) كذا في الأصول.
 - (٥) كذا في ك. وفي غيرها من الأصول: إذ.
 - (٦) من ب و ج و ز و ط و ك.

قوله تعالى: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين (٤٨) الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون (٤٩) وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون (٥٠) قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء) وحكى عن ابن عباس وعكرمة " الفرقان ضياء " بغير واو على الحال. وزعم الفراء أن حذف الواو والمجئ بها واحد،

كما قال الله عز وجل: " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (١). وحفظا " [الصفات: ٦ - ٧] أي حفظا.

ورد عليه هذا القول الزجاج. قال: لان الواو تجئ لمعنى فلا تزداد. قال: وتفسير الفرقان "

التوراة، لان فيها الفرق بين الحرام والحلال. قال: " وضياء " مثل " فيه هدى ونور " (٢)

وقال ابن زيد: " الفرقان " هنا هو النصر على الأعداء، دليله قوله تعالى: " وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان " (٣) [الأنفال: ٤١] يعني يوم بدر. قال الثعلبي: وهذا القول أشبه بظاهر الآية، لدخول

الواو في الضياء، فيكون معنى الآية: ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التي هي الضياء

والذكر. (للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب) أي غائبين، لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا، يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم،

وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس. (وهم من الساعة) أي من قيامها قبل التوبة. (مشفقون) أي خائفون وجلون. (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) يعني القرآن (أفأنتم له) يا معشر العرب (منكرون) وهو معجز لا تقدرُونَ على الاتيان بمثله. وأجاز الفراء " وهذا

ذكر مبارك أنزلناه " بمعنى أنزلناه مباركا

قوله تعالى: ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به

عالمين (٥١) إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها

عاكفون (٥٢) قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين (٥٣) قال لقد كنتم أنتم

(١) راجع ج ١٥ ص ٦٤.

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٠٨.

(٣) راجع ج؟ ص ٢٠.

وآبائكم في ضلال مبين (٥٤) قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من
اللاعبين (٥٥) قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن
وأنا على ذلكم من الشاهدين (٥٦)

قوله تعالى: (ولقد آتينا إبراهيم رشده) قال الفراء: أي أعطيناه هداة. (من قبل)
أي من قبل النبوة، أي وفقناه للنظر والاستدلال، لما جن عليه الليل فرأى النجم
والشمس

والقمر. وقيل: " من قبل " أي من قبل موسى وهرون. والرشد على هذا النبوة. وعلى
الأول أكثر أهل التفسير، كما قال ليحيى: " وآتيناه الحكم صبيا " (١) [مريم: ١٢].
وقال القرظي: رشده

صلاحه. (وكننا به عالمين) أي إنه أهل لايتاء الرشد وصالح للنبوة.
قوله تعالى: (إذ قال لأبيه) قيل: المعنى أي أذكر حين قال لأبيه، فيكون الكلام
قد تم عند قوله: " وكننا به عالمين ". وقيل: المعنى، " وكننا به عالمين إذ قال " فيكون
الكلام

متصلا ولا يوقف على قوله: " عالمين ". " لأبيه " وهو آزر " وقومه " نمرود ومن
اتبعه.

(ما هذه التماثيل) أي الأصنام. والتمثال اسم موضوع للشئ المصنوع مشبها بخلق من
خلق
الله تعالى. يقال: مثلت الشئ بالشئ أي شبهته به. واسم ذلك الممثل تمثال. (التي أنتم
لها

عاكفون) أي مقيمون على عبادتها. (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أي نعبدها تقليدا
لأسلافنا. (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) أي في خسران بعبادتها، إذ هي
جمادات

لا تنفع ولا تضر ولا تعلم. (قالوا أجبثنا بالحق) أي أجهأ أنت بحق فيما تقول؟ (أم أنت
من

اللاعبين) أي لاعب مازح. (قال بل ربكم رب السماوات والأرض) أي لست بلاعب،
بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السماوات والأرض. (الذي فطرهن) أي خلقهن
وأبدعهن.

(وأنا على ذلكم من الشاهدين) أي على أنه رب السماوات والأرض. والشاهد يبين
الحكم،

ومنه " شهد الله " (٢) [آل عمران: ١٨] بين الله، فالمعنى: وأنا أبين بالدليل ما أقول.
قوله تعالى: وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧)
فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون (٥٨)

(١) راجع ص ٧٤ من هذا الجزء فما بعد.
(٢) راجع ج ٤ ص ٤٠ فما بعد.

قوله تعالى: (وتالله لأكيدن أصنامكم) أخبر أنه لم يكتف بالمحاجة باللسان بل كسر أصنامهم فعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذب عن الدين والتاء

في " تالله " تختص في القسم باسم الله وحده، والواو تختص بكل مظهر، والباء بكل مضمّر

ومظهر. قال الشاعر: (١)

تالله يبقى على الأيام ذو حيد * بمشمر به الضيان والآس
وقال ابن عباس: أي وحرمة الله لأكيدن أصنامكم، أي لأمكرن بها. والكيد المكر. كاده

يكيده كيدا ومكيدة، وكذلك المكيدة، وربما سمي الحرب كيدا، يقال: غزا فلان فلم يلق

كيدا، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده. (بعد أن تولوا مدبرين) أي منطلقين ذاهبين. وكان لهم في كل سنة عيد يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك

ديننا - روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانه في " والصفات " (٢) - فقال إبراهيم

في نفسه: " وتالله لأكيدن أصنامكم ". قال مجاهد وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم في سر من

قومه، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذي أفشاه عليه. والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان

ما أخبر به مما يرضى به غيره. ومثله " يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها

الأذل " (٢) [المنافقون: ٨]. وقيل: إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه.

وكان إبراهيم احتال في التخلف عنهم بقوله: " إني سقيم " (٢) [الصفات: ٨٩] أي ضعيف عن الحركة.

قوله تعالى: (فجعلهم جذاذا) أي فتاتا. والجذ الكسر والقطع، جذذت الشيء كسرتة وقطعته. والجذاذ والجذاذ ما كسر منه، والضم أفصح من كسره. قاله الجوهري.

الكسائي: ويقال لحجارة الذهب جذاذ، لأنها تكسر. وقرأ الكسائي والأعمش وابن محيصن:

" جذاذا " بكسر الجيم، أي كسرا وقطعا جمع جديذ وهو الهشيم، مثل خفيف وخفاف

وظريف وظراف. قال الشاعر:
جذذ الأصنام في محرابها* ذاك في الله العلي المقندر

-
- (١) هو مالك بن خالد الخناعي الهذلي. وحيد هنا (كعنب): كل نتوء في الجبل. والمشمخر: الجبل العالي.
والظبان: ياسمين البر. والمعنى: لا يبقى.
(٢) راجع ج ١٥ ص ٩٤.
(٣) راجع ج ١٨ ص ١٢٩.

الباقون بالضم، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. [مثل] (١) الحطام والرفات الواحدة جذاذة. وهذا

هو الكيد الذي أقسم به ليفعله بها. وقال: " فجعلهم "، لان القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية. وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال: " جذاذا " بفتح الجيم، والفتح والكسر لغتان كالحصاد والحصاد. أبو حاتم: الفتح والكسر والضم بمعنى، حكاة قطرب. (إلا كبير لهم) أي عظيم الآلهة في الخلق فإنه لم يكسره. وقال السدي ومجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه، ليحتج به عليهم. (لعلمهم إليه)

أي إلى إبراهيم دينه " يرجعون " إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: " لعلمهم إليه " أي إلى الصنم الأكبر " يرجعون " في تكسيرها.

قوله تعالى: قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين (٥٩) قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (٦٠) قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون (٦١)

قوله تعالى: (قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين) المعنى لما رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بالهتهم، قالوا على جهة البحث والانكار: " من فعل هذا بالهتنا إنه لمن

الظالمين ". وقيل: " من " ليس استفهاما، بل هو ابتداء وخبره " لمن الظالمين " أي فاعل هذا ظالم. والأول أصح لقوله: (سمعنا فتى يذكرهم) وهذا هو جواب " من فعل هذا ". والضمير في " قالوا " للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم، أو الواحد على ما تقدم.

ومعنى " يذكرهم " يعيهم ويسبهم فاعله الذي صنع هذا. واختلف الناس في وجه رفع إبراهيم، فقال الزجاج: يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم، فيكون [خبر مبتدأ] (٢) محذوف،

والجملة محكية. قال: ويجوز أن يكون رفعا على النداء وضمه بناء، وقام له مقام ما لم يسم

فاعله. وقيل: رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص،

بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة أي يقال له هذا القول وهذا اللفظ، [وهذا] (٣) كما تقول

(١) في الأصول: (أي) وهو تحريف.

(٢) في الأصول: (فيكون مبتدأ وخبره محذوف وهو تحريف).

(٣) من ب و ج و ز و ط و ك.



(۲۹۸)

زيد وزن فعل، أو زيد ثلاثة أحرف، فلم تدل بوجه الشخص، بل دلت بنطقك على نفس اللفظة وعلى هذه الطريقة تقول: قلت إبراهيم، ويكون مفعولا صحيحا نزلته منزلة قول وكلام، فلا يتعذر بعد ذلك أن يبني الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية في رفعه.

وقال الأستاذ أبو الحجاج الإشبيلي الأعمى: هو رفع على الإهمال. قال ابن عطية: لما رأى

وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذي قصدوه، ذهب إلى رفعه بغير شيء، كما قد يرفع التجرد

والعرو عن العوامل الابتداء. والفتى الشاب والفتاة الشابة. وقال ابن عباس: ما أرسل الله نبيا إلا شابا. ثم قرأ: "سمعنا فتى يذكرهم".

قوله تعالى: (قالوا فأتوا به على أعين الناس) فيه مسألة واحدة، وهي: أنه لما بلغ الخبر نمرود وأشرف قومه، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فقالوا: اتوا به ظاهرا بمرأى من الناس حتى يروه (لعلهم يشهدون) عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه.

وقيل: "لعلهم يشهدون" عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه. أو لعل قوما "يشهدون" بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو "لعلهم يشهدون" طعنه على آلهتهم ليعلموا

أنه يستحق العقاب.

قلت: وفي هذا دليل على أنه كان لا يؤخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدم، لقوله تعالى: "فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون" وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلاف فيه.

قوله تعالى: قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال

بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون (٦٣)

قوله تعالى (قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) فيه أربع مسائل:

الأولى - لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة استفهموه هل فعل أم لا؟ وفي الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا: أنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم

على جهة الاحتجاج عليهم: "بل فعله كبيرهم هذا" أي إنه غار وغضب من أن يعبد هو

ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك، إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلق فعل الكبير
بنطق الآخرين، تنبيها لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء.
وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله: " فاسألوهم إن كانوا ينطقون ". وقيل:
أراد

بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون. بين أن من لا يتكلم ولا يعلم ولا يستحق أن يعبد.
وكان

قوله من المعارض، وفي المعارض مندوحة عن الكذب. أي سلوهم إن نطقوا فإنهم
يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه
هو

الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه، فدل أنه خرج مخرج التعريض. وذلك
أنهم

كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: " يا أبت لم تعبد
ما لا يسمع ولا يبصر " (١) [مريم: ٤٢] - الآية - فقال إبراهيم: " بل فعله كبيرهم
هذا " ليقولوا إنهم

لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضررون، فيقول لهم فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة
منهم،

ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه،
فإنه

أقرب في الحجة وأقطع للشبهة، كما قال لقومه: " هذا ربي " (٢) وهذه أختي و " إني
سقيم " (٣)

و " بل فعله كبيرهم هذا " وقرأ ابن السميعة " بل فعله " بتشديد اللام بمعنى فاعل
الفاعل

كبيرهم. وقال الكسائي: الوقف عند قوله: " بل فعله " أي فعله من فعله، ثم يتندى
" كبيرهم هذا ". وقيل: أي لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر.
أي

من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلا، والمعنى: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم.
الثانية - روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: (لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث: " إني سقيم "

[الصفات: ٨٩] وقوله: لسارة

أختي وقوله: " بل فعله كبيرهم " لفظ الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح. ووقع
في الاسراء

في صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة إبراهيم قال: وذكر قوله
في الكوكب " هذا ربي ". فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام

قد

نفى تلك بقوله: (لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا في ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله:

(١) راجع ص ١١٠ من هذا الجزء.

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٥.

(٣) راجع ج ١٥ ص ١٩ فما بعد.

" إني سقيم " [الصفات: ٨٩] وقوله: " بل فعله كبيرهم " وواحدة في شأن سارة)
الحديث لفظ مسلم
وإنما يعد عليه قوله في الكوكب: " هذا ربي " [الانعام: ٧٨] كذبة وهي داخلة في
الكذب، لأنه -

والله أعلم - كان حين قال ذلك في حال الطفولية، وليست حالة تكليف. أو قال لقومه
مستفهما لهم على جهة التوبيخ الإنكار، وحذفت همزة الاستفهام. أو على طريق
الاحتجاج على قومه: تنبيهها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية. وقد تقدمت هذه الوجوه
كلها في " الانعام " (١) مبينة والحمد لله.

الثالثة - قال القاضي أبو بكر بن العربي: في هذا الحديث نكتة عظيمة تقصم الظهر،
وهي أنه عليه السلام قال: (لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات ثنتين ما حل بهما
عن

دين الله وهما قوله " إني سقيم " [الصفات: ٨٩] وقوله " بل فعله كبيرهم " ولم يعد
[قوله] (٢) هذه أختي

في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها
حظ

من صيانة فراشه وحماية أهله، لم يجعلها في ذات الله، وذلك لأنه لا يجعل في جنب
الله وذاته

إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا، والمعارض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت
للدين

كانت لله سبحانه، كما قال: " ألا لله الدين الخالص " [الزمر: ٣] (٣). وهذا لو صدر
منا لكان لله، لكن

منزلة إبراهيم اقتضت هذا. والله أعلم.

الرابعة - قال علماؤنا: الكذب هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه. والأظهر
أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعارض، وإن كانت معارض
وحسنات

وحججا في الخلق ودلالات، لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة،
واستحيا منها

قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة، فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم
إجلالا

لله، فإن الذي كان يليق بمرتبه في النبوة والخلة، أن يصدع بالحق ويصرح بالحق لأمر
كيفما كان،

ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة، والقصة ولهذا جاء في حديث
الشفاعة

(إنما أتخذت خليلاً من وراء وراء) بنصب وراء فيهما على البناء كخمسة عشر، وكما قالوا

-
- (١) راجع ج ٧ ص ٢٥ فما بعد.
(٢) الزيادة من (أحكام القرآن) لابن العربي.
(٣) راجع ج ١٥ ص ٢٣٢ فما بعد.

جاري بيت بيت. ووقع في بعض نسخ مسلم (من وراء من وراء) بإعادة من، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح، وإنما بيني كل واحد منهما على الضم، لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف، لأن ألفه للتأنيث، لأنهم قالوا في تصغيرها وريية، قال الجوهري: وهي شاذة. فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود " من " فيهما. والمعنى إني كنت خليلاً متأخراً عن غيري. ويستفاد من هذا أن الخلة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم.

وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم (٦٦) أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧)

قوله تعالى: (فرجعوا إلى أنفسهم) أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجتة، المتفطن لصحة حجة خصمه. (فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أي بعبادة من لا ينطق بلفظة،

ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس، من لا يرد عن رأسه الفأس.

قوله تعالى: (ثم نكسوا على رؤوسهم) أي عادوا إلى جهلهم وعبادتهم (١) فقالوا: " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " ف " - قال " قاطعاً لما به يهدون، ومفحماً لهم فيما يتقولون

" أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أف لكم " أي التثنية لكم " ولما

تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ". وقيل، (نكسوا على رؤوسهم) أي طأطأ رؤوسهم خجلاً من إبراهيم وفيه نظر لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف بل قال " نكسوا على رؤوسهم " أي ردوا على ما كانوا عليه في أول الأمر وكذا قال ابن عباس قال: أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم.

(١) كذا في ب و ج و ز و ي. وفي ا و ط: عبادتهم.

قوله تعالى: قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٦٨)

قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩)

قوله تعالى: (قالوا أحرقوه) لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة وقالوا حرقوه. روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس، أي من باديتها، قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج. ويقال: اسمه هيزر (١) فحسف الله

به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقيل: بل قاله ملكهم نمرود. (وانصروا آلهتكم) بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها. وجاء في الخبر: أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون

ذراعا وعرضه أربعون ذراعا. قال ابن إسحاق: وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها، واشتعلت

واشتدت، حتى أن كان الطائر ليمر بجنبتها فيحترق من شدة وهجها. ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه

في المنجنيق مغلولا. ويقال: إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ. فضجت السماوات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق، إلا الثقلين ضجة واحدة: ربنا! إبراهيم ليس

في الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا في نصرته. فقال الله تعالى: " إن استغاث

بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه "

فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خزان الماء - وهو في الهواء - فقالوا: يا إبراهيم إن أردت

أحمدنا النار بالماء. فقال: لا حاجة لي إليكم. وأتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيرت النار. فقال: لا. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: " اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل ". وروى أبي بن كعب

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك) قال: ثم رموا به

في المنجنيق من مضرب شاسع، فاستقبله جبريل، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: "

إليك فلا ". فقال جبريل: فاسأل ربك. فقال: " حسبي من سؤالي علمه بحالي ". فقال

(١) وقيل: اسمه (هيزن) كما في تاريخ الطبري وتفسيره. وقيل: (هيون).

الله تعالى وهو أصدق القائلين: (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) قال بعض العلماء:
جعل الله فيها بردا يرفع حرها، وحرا يرفع بردها، فصارت سلاما عليه. قال أبو العالية:
ولو لم يقل " بردا وسلاما " لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل " على إبراهيم " لكان
بردها باقيا على الأبد. وذكر بعض العلماء: أن الله تعالى أنزل زريبة (١) من الجنة فبسطها
في الجحيم، وأنزل الله ملائكة: جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة. وقال علي وابن
عباس: لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت
أنها تعني. قال السدي: وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته. وقال
كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن
يقرب من النار، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلي. وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم: " ما كنت
أياما قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار ". وقال كعب وقتادة والزهري:
ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه، فلذلك أمر رسول
الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة. وقال شعيب الحماني: ألقى إبراهيم
في النار وهو ابن ست عشرة سنة. وقال ابن جريج: ألقى إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين
سنة.

ذكر الأول الثعلبي، والثاني الماوردي، فالله أعلم. وقال الكلبي: بردت نيران الأرض
جميعا فما أنضجت كراعا، فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك
الظل.

فقال: نعم الرب ربك! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكف عنه.
قوله تعالى: وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأхسرين (٧٠) ونجيناه
ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين (٧١) ووهبنا له إسحاق
ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين (٧٢) وجعلناهم أئمة يهدون
بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا

لنا عابدين (٧٣)

(١) الزرية: الطنفسة وقيل: البساط ذو الحمل وزايتها مثلثة.

(٣٠٤)

قوله تعالى: (وأرادوا به كيدا) أي أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به (فجعلناهم الأخرسين) [أي] (١) في أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم بتسليطنا أضعف خلقنا. قال (٢) ابن عباس: سلط

الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت

لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه،

وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد. فأقام بهذا نحوًا من أربعمئة سنة.

قوله تعالى: (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) يريد نجينا إبراهيم ووطا إلى [الأرض] (١) أرض الشام وكانا بالعراق. وكان [إبراهيم] (٣) عليه السلام [عمه لوط] (٤)، قاله ابن

عباس. وقيل: لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنها معادن الأنبياء. والبركة ثبوت

الخير، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم ييرح. وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة. وقيل:

بيت المقدس، لان منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهي أيضا كثيرة الخصب والنمو، عذبة الماء،

ومنها يتفرق في الأرض. قال أبو العالية: ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة

التي ببيت المقدس، ثم يتفرق في الأرض. ونحوه عن كعب الأحبار. وقيل: الأرض المباركة مصر.

قوله تعالى: (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) أي زيادة، لأنه دعا في إسحاق وزيد يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة، أي زيادة على ما سأل، إذ قال: " رب هب لي من الصالحين " (٥) [الصفات: ١٠٠]. ويقال لولد الولد نافلة، لأنه زيادة على الولد. (و كلا جعلنا صالحين)

أي وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله. وجعلهم صالحين إنما يتحقق

بخلق الصلاح والطاعة لهم، وبخلق القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى.

قوله تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أي رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات. ومعنى " بأمرنا " أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والامر والنهي، فكأنه قال يهدون بكتابنا وقيل: المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق، ودعائهم

إلى التوحيد. (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) أي أن يفعلوا الطاعات. (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) أي مطيعين.

- (١) من ب و ج و ز و ط و ك و ي.
- (٢) سبق أن نبهنا على أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة.
- (٣) من ك.
- (٤) كذا في ك. وفي غيرها من النسخ: لوط. وهو خطأ.
- (٥) راجع ج ١٥ ص ٩٧ فما بعد.

قوله تعالى: ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين (٧٤) وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين (٧٥)

قوله تعالى: (ولوطا آتيناه حكما وعلما) " لوطا " منصوب بفعل مضمر دل عليه الثاني، أي وآتيناه لوط آتيناه. وقيل: أي واذكر لوطا. والحكم النبوة، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم. وقيل: " علما " فهما، والمعنى واحد. (ونجيناه من القرية

التي كانت تعمل الخبائث) يريد سدوم. ابن عباس: كانت سبع قرى، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقي واحدة للوط وعياله، وهي زغر التي فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد

الشراة (١)، ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز (٢). وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان:

أحدهما: اللواط على ما تقدم. والثاني: الضراط، أي كانوا يتضارطون في ناديهم ومجالسهم. وقيل: الضراط وحذف (٢) الحصي وسيأتي. (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) أي

خارجين عن طاعة الله، والفسوق الخروج وقد تقدم. (وأدخلناه في رحمتنا) أي في النبوة. وقيل:

في الاسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنى بالرحمة إنجاءه من قومه (إنه من الصالحين).

قوله تعالى: ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين (٧٧)

قوله تعالى: (ونوحا إذ نادى من قبل) أي واذكر نوحا إذ نادى، أي دعا. " من قبل " أي من قبل إبراهيم ولوط على قومه، وهو قوله: " رب لا تذر على الأرض من الكافرين

ديارا " (٤) [نوح: ٢٦] وقال لما كذبه: " أني مغلوب فانتصر " (٥) [القمر: ١٠]. (فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) أي من الغرق. والكرب الغم الشديد " وأهله " أي المؤمنين منهم. (ونصرناه من

(١) كذا في بوز وك. وهو الأشبه. والشراة جبل بنجد لطبي. وفي اوج وط: السراة بالمهملة: جبل من عرفات إلى حد نجران.

(٢) في ك: نجد بالحجاز.

(٣) كذا في ك: وفي بوج ووط: حذف. بالمهملة.

(٤) راجع ج ١٨ ص ٣١٢.
(٥) راجع ج ١٧ ص ١٣١.

(٣٠٦)

القوم الذين كذبوا بآياتنا) قال أبو عبيدة: " من " بمعنى على. وقيل: المعنى فانتقمنا له " من القوم الذين كذبوا بآياتنا ". فأغرقتناهم أجمعين " أي الصغير منهم والكبير. قوله تعالى: وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين (٧٨) ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين (٧٩) فيه ست وعشرون مسألة:

الأولى - قوله تعالى: (وداوود وسليمان إذ يحكمان) أي واذكرهما إذ يحكمان، ولم يرد بقوله " إذ يحكمان " الاجتماع في الحكم وإن جمعهما في القول، فإن حكمن على حكم واحد لا يجوز. وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده، وكان سليمان الفاهم لها بتفهم الله تعالى

إياه: " في الحرث " اختلف فيه على قولين: فقيل: كان زرعاً، قاله قتادة. وقيل: كرماً نبتت عناقيده، قال ابن مسعود وشريح (١). و " الحرث " يقال فيهما، وهو في الزرع أبعد من الاستعارة.

الثانية - قوله تعالى: (إذ نفشت فيه غنم القوم) أي رعت فيه ليلاً، والنفش الرعي بالليل. يقال: نفشت بالليل، وهملت بالنهار، إذا رعت بلا راع. وأنفشتها صاحبها.

وإبل نفاش. وفي حديث عبد الله بن عمرو: الحبة في الجنة مثل كرش البعير بيت نافشا،

أي راعياً، حكاه الهروي. وقال ابن سيده: لا يقال الهمل في الغنم وإنما هو في الإبل: الثالثة - قوله تعالى: (وكنا لحكمهم شاهدين) دليل على أن أقل الجمع اثنان وقيل: المراد الحاكم والمحكوم عليه، فلذلك قال " لحكمهم ".

الرابعة - قوله تعالى: (ففهمناها سليمان) أي فهمناه القضية والحكومة، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها. وفضل حكم سليمان حكم أبيه في أنه أحرز أن يبقى [ملك] (٢) كل واحد منهما

على متاعه وتبقى نفسه طيبة بذلك، وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب

الحرث. وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث، والحرث إلى صاحب الغنم.

(١) في ك: سعيد.

(٢) من ب و ج و ز و ط و ي.

(१०५)

قال ابن عطية: فيشبهه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أفسدت. وعلى القول

الثاني رآها تقاوم الحرث والغلة، فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذي

يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبي الله داود؟

فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث: فقال لعل الحكم غير هذا انصرفا معي: فأتى أباه فقال:

يا نبي الله أنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال:

ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث

إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم [فيه] (١) في السنة المقبلة،

رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك. وقضى

بما قضى به سليمان، قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما. قال الكلبي: قوم داود الغنم

والكرم الذي أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال

النحاس، قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث، لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما في حكم

سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضا. الخامسة - (وكلا آتينا حكما وعلما) تأول قوم أن داود عليه السلام

لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أوتي الحكم والعلم. وحملوا قوله: " ففهمناها سليمان " على

أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما

وعلما

يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأما في هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجود الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يقرون

عليه، وإن أقر عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك

مصيبا فقد أخطأت أنت، فأجابه الوليد " وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ
نفشت
فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ".
وقال قوم
كان داود وسليمان - عليهما السلام - نبين يقضيان بما يوحي إليهما، فحكم داود
بوحي،

(١) كذا في ك. وفي ب و ج و ز و ط و ي: عليه.

وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا " ففهمناها سليمان " أي بطريق الوحي

الناسخ لما أوحى إلى داود، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود، ولهذا قال: " وكلا آتينا حكما وعلما ". هذا قول جماعة من العلماء ومنهما ابن فورك. وقال الجمهور: إن حكمهما

كان باجتهاد وهي:

السادسة - واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم، وجوزه المحققون، لأنه ليس فيه استحالة عقلية، لأنه دليل شرعي فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء،

كما لو قال له الرب سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمي

فبلغه الأمة، فهذا غير مستحيل في العقل. فإن قيل: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص وهم لا يعدمونه. قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من

المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون

عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرهم ليس كذلك. كما ذهب الجمهور

في أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم. وذهب

أبو علي ابن أبي هريرة من أصحاب الشافعي إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم

في جواز الخطأ عليهم، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلظه،

ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلظه. وقد قيل:

إنه على العموم في جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ

على سواء إلا أنهم لا يقرون على إمضائه، فلم يعتبر فيه استدراك من بعدهم من الأنبياء. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سألته امرأة عن العدة فقال لها: (اعتدي حيث شئت) ثم قال لها: (امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله). وقال له رجل: أرأيت لو قتلت صبورا محتسبا أيجزني عن الجنة شيء؟ فقال: (لا) ثم دعاه فقال: (إلا الدين كذا أخبرني جبريل عليه السلام).

السابعة - قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده. وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا

اختلفوا، فقالت فرقة: الحق في طرف واحد عند الله، وقد نصب على ذلك أدلة،
وحمل
المجتهدين على البحث عنها، والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو
المصيب
على الاطلاق، وله أجران أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة، ومن لم يصادفها فهو
مصيب
في اجتهاده مخطئ في أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور. وهذا سليمان قد
صادف
العين المطلوبة، وهي التي فهم. ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم في خطئه وإن كان
غير معذور. وقالت فرقة: الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل (١)
[بل] (١) وكل
الامر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور ولم يتعبد
بإصابة
العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط. وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك
وأصحابه
رضي الله عنهم: إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب،
المطلوب
إنما هو الأفضل في ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه، والدليل على
هذه
المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع
الانحمال
على قوله دون قول مخالفه. ومنه رد مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حمل
الناس على
" الموطأ "، فإذا قال عالم في أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند
الله تعالى
وبكل من أخذ بقوله، وكذا في العكس. قالوا: وإن كان سليمان عليه السلام فهم
القضية
المثلى والتي أرجح فالأولى ليست بخطأ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام: (إذا
اجتهد
العالم فأخطأ) أي فأخطأ الأفضل.
الثامنة - روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ
فله

أجر) هكذا لفظ الحديث في كتاب مسلم (إذا حكم فاجتهد) فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد،
والامر بالعكس، فإن الاجتهاد مقدم على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد
بالاجماع.
وإنما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال: " فإذا قرأت القرآن فاستعد " (٢) [النحل: ٩٨] فعند

(١) في ج وز: دليلا بل.
(٢) راجع ج ١٠ ص ١٧٤.

ذلك أراد أن يجتهد في النازلة. ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون: إن المجتهد يجب عليه

أن يحدد نظرا عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم لامكان أن يظهر له

ثانيا
خلاف ما ظهر له أولا، اللهم إلا أن يكون ذاكرا لأركان اجتهاده، مائلا إليه، فلا يحتاج إلى استئناف نظر في أمانة أخرى.

التاسعة - إنما يكون يكون الاجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس،

وقضاء من مضي لان اجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الاثم فقط، فأما من

لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ في الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر.

يدل على ذلك حديثه الآخر، رواه أبو داود: (القضاة ثلاثة) الحديث. قال ابن المنذر:

إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى: " ففهمناها سليمان " الآية. قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذم داود.

العاشرة - ذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين وليس ذلك في أقاويل المختلفين، وبه قال أكثر الفقهاء. قال: وحكى ابن

القاسم
أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئ ومصيب، وليس الحق في جميع

أقاويلهم.
وهذا القول قيل: هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين. واحتج من قال

هذا
بحديث عبد الله بن عمرو، قالوا: وهو نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين

مخطئا ومصيبا،
قالوا: والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدي إلى كون الشيء حلالا حراما، وواجبا ندبا.

واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر.
قال: نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب (ألا لا يصلين

أحد العصر إلا في بني قريظة) فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قريظة، وقال الآخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت،

قال:
فما عنف واحدا من الفريقين، قالوا: فلو كان أحد الفريقين مخطئا لعينه النبي صلى الله

عليه
وسلم. ويمكن أن يقال: لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور،



(۳۱)

فاستغنى عن تعيينه. والله أعلم. ومسألة الاجتهاد طويلة متشعبة، وهذه النبذة التي ذكرناها

كافية في معنى الآية، والله الموفق للهداية.

الحادية عشرة - ويتعلق بالآية فصل آخر: وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول، فإن داود عليه السلام فعل ذلك. وقد اختلف في ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى، فقال عبد الملك ومطرف في " الواضحة ": ذلك له ما دام في ولايته،

فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة. وهذا هو ظاهر قول مالك رحمة الله في " المدونة ". وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره

مما رآه أصوب ليس له ذلك، وقاله ابن عبد الحكم. قالوا: ويستأنف الحكم بما قوي عنده.

قال سحنون: إلا أن يكون نسي الأقوى عنده في ذلك الوقت، أو وهم فحكم بغيره فله نقضه،

وأما وإن حكم بحكم هو الأقوى عنده في ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل

إلى نقض الأول، قاله سحنون في كتاب ابنه. وقال أشهب في كتاب ابن المواز إن كان رجوعه إلى الأصوب في مال فله نقض الأول، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه.

قلت: رجوع القاضي عما حكم القاضي إذا تبين له أن الحق في غيره ما دام في ولايته أولى.

وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما، رواها الدارقطني، وقد ذكرناها في " الأعراف " ولم يفصل، وهي الحجة لظاهر قول مالك. ولم يختلف العلماء أن القاضي

إذا قضى تجوزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود، إن كان على وجه الاجتهاد، فأما أن يتعقب

قاضي حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له لأن فيه مضرة عظيمة من جهة نقض الاحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعدم ضبط قوانين الاسلام، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر، وإنما كان يحكم بما ظهر له.

الثانية عشرة - قال بعض الناس: إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره. وقال آخرون: لم يكن حكما وإنما كانت فتيا.

(३१२)

قلت: وهكذا تقول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال: " بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنت. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتا، فقال: اتتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى:

لا - يرحمك الله - هو ابنها، فقضى به للصغرى، قال أبو هريرة: إن سمعت بالسكين قط إلا يومئذ، ما كنا نقول إلا المدية، أخرجه مسلم. فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو

ضعيف، لأنه كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتياه حكم. وأما القول الآخر فيبعد، لأنه تعالى قال: " إذ يحكمان في الحرث " فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم. وكذا

قوله في الحديث: فقضى به للكبرى، يدل على إنفاذ القضاء وإنجازه. ولقد أبعد من قال:

إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى، لان الكبر والصغر طرد

محض عند دعاوي كالتطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين

حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك. وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع. والذي

ينبغي أن يقال: إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها.

ولم يذكر في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه، فيمكن أن الولد كان بيدها، وعلم عجز الأخرى

عن إقامة البينة، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان. وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا

الحديث. وهو الذي تشهد له قاعدة دعاوي الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها. لا يقال:

فإن كان داود قضى بسبب شرعي فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه، فالجواب: أن سليمان عليه

السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض، وإنما احتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق الصغرى، وهي أنه لما قال: هات السكين أشقه بينكما، قالت الصغرى: لا، فظهر له من قرينه الشفقة في الصغرى، وعدم ذلك في الكبرى، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن

ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها. ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه. وقد
ترجم
النسائي على هذا الحديث " حكم الحاكم بعلمه ". وترجم له أيضا " السعة للحاكم أن
يقول

للشيء الذي لا يفعله أفعال ليستبين الحق ". وترجم له أيضا " نقض الحاكم لا يحكم به غيره

ممن هو مثله أو أجل منه ". ولعل الكبرى اعترفت بأن الولد للصغرى عندما رأت من سليمان الحزم والجد في ذلك، ففضى بالولد للصغرى، ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين،

فلما مضى ليحلف حضر من استخراج من المنكر ما أوجب إقراره، فإنه يحكم عليه بذلك الاقرار

قبل اليمين وبعدها، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول، لكن من باب تبدل الاحكام بحسب تبدل الأسباب. والله أعلم. وفي هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ

لهم الحكم بالاجتهاد، وقد ذكرناه. وفيه من الفقه استعمال الحكام الحيل التي تستخرج بها

الحقوق، وذلك يكون عن قوة الذكاء والفتنة، وممارسة أحوال الخلق، وقد يكون في أهل

التقوى فإساسة دينية، وتوسمات نورية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وفيه الحجة لمن يقول: إن الام تستلحق، وليس مشهور مذهب مالك، وليس هذا موضع ذكره. وعلى الجملة فقضاء سليمان في هذه القصة (١) تضمنها مدحه تعالى له بقوله: " ففهمناها سليمان "

الثالثة عشرة - قد تقدم القول في الحرث والحكم في هذه الواقعة في شرعنا: أن على أصحاب الحوائط حفظ حيواناتهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمان في المثل بالمثلات، وبالقيمة

في ذوات القيم. والأصل في هذه المسألة في شرعنا ما حكم به [محمد] (٢) نبينا صلى الله عليه وسلم

في ناقة البراء بن عازب. رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن محيصة: أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على

أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن (٣) على أهلها. هكذا رواه

جميع الرواة مرسلًا. وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب، إلا ابن عيينة فإنه

رواه عن الزهري عن سعيد وحرام بن سعد بن محيصة: أن ناقة، فذكر مثله بمعناه. ورواه

ابن أبي ذئب عن ابن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم، مثل حديث مالك

سواء، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره. قال أبو عمر: لم يصنع ابن أبي ذئب

-
- (١) في ك: القضية.
(٢) من ب و ج و ز و ط و ي.
(٣) ضامن بمعنى مضمون.

شيئا، إلا أنه أفسد إسناده. ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن محيصة
عن
أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع (١) عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه
قوله عن أبيه.

ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال: حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة
دخلت

في حائط قوم فأفسدت، فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يذكر أن الناقة
كانت للبراء. وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن محيصة، وعن سعيد
ابن المسيب، وعن أبي أمامة - والله أعلم - فحدث به عمن شاء منهم على ما حضره
وكلهم

ثقات. قال أبو عمر: وهذا الحديث وإن كان مرسلا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة،
وحدث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل
به،

وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث.
الرابعة عشرة - ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة
وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أفسدت
زرعا

في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء وأدخل فسادها في عموم قوله صلى الله عليه
وسلم:

(جرح العجماء جبار) فقاس جميع أعمالها على جرحها. ويقال: أنه ما تقدم أبا حنيفة
أحد

بهذا القول، ولا حجة له ولا لمن اتبعه في حديث العجماء، وكونه ناسخا لحديث
البراء ومعارضها

له، فإن النسخ شروطه معدومة، والتعاوض إنما يصح إذا لم يمكن استعماله أحدهما إلا
بنفي

الآخر، وحديث (العجماء جرحها جبار) عموم متفق عليه، ثم خص منه الزرع
والحوائط بحديث

البراء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد: العجماء جرحها
جبار نهارا

لا ليلا وفي الزرع والحوائط والحرث، لم يكن هذا مستحيلا من القول، فكيف يجوز
أن يقال

في هذا متعارض؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور في
الأصول.

الخامشة عشرة - إن قيل: ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال
الليث بن سعد: يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفسدت، ولا يضمن أكثر
من قيمة الماشية؟ قلنا: الفرق بينهما واضح وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى
إرسال

(١) في ز: لم يناع.

مواشيهم ترعي بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه
عمن أراده،
فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع، لأنه وقت التصرف في المعاش، كما قال
الله سبحانه
وتعالى: " وجعلنا النهار معاشا " (١) [النبأ: ١ ١] فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي
يرجع كل شئ إلى موضعه
وسكنه، كما قال الله تعالى: " من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه " (٢)
[القصص: ٧٢] وقال: " وجعل
الليل سكنا " (٣) [الانعام: ٩٦] ويرد أهل المواشي مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها،
فإذا فرط صاحب
الماشية في ردها إلى منزله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت
شيئا فعليه ضمان ذلك، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح، وكان ذلك أرفق بالفريقين
وأسهل
على الطائفتين، وأحفظ للمالين، وقد وضح الصبح لذي عينين، ولكن لسليم الحاستين،
وأما قول
الليث: لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم من أين قال هذا
الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على العبد الجاني لا يفتك بأكثر من قيمته ولا يلزم
سيده
في جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه، كذا قال في " التمهيد " وقال في "
الاستذكار "
فخالف الحديث في (العجماء جرحها جبار) وخالف ناقة البراء، وقد تقدمه إلى ذلك
طائفة من
العلماء منهم عطاء. قال ابن جريج قلت لعطاء: الحرث الماشية ليلا أو نهارا؟ قال:
يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حظرا أو لم يكن؟ قال نعم! يغرم. قلت:
ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته. وقال معمر عن ابن شبرمة: يقوم
الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهم. وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد
العزیز
رضي الله عنهما: يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تصح.
السادسة عشرة - قال مالك: ويقوم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء
والخوف. قال: والحوائط التي تحرس والتي لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر
سواء، يغرم
أهلها ما أصابت بالليل بالغا ما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها. قال: وإذا انفلتت دابة
بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا، وإنما هذا في الحائط والزرع

والحرث،
ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال
ربها،

(١) راجع ج ١٩ ص ١٧٠.

(٢) راجع ج ١٤ ص ٣٠٨.

(٣) راجع ج ٧ ص ٤٤.

وإن كان أضعاف ثمنها، لان الجناية من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد،
حكاه

سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم.

السابعة عشرة - ولا يستأني بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل في سن الصغير.
وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمته لو حل بيعه. وقال أشهب وابن نافع في المجموعة
عنه: وإن

لم يبد صلاحه. ابن العربي: والأول أقوى لأنها صفته فتقوم كما يقوم كل متلف على
صفته.

الثامنة عشرة - لو لم يقض للمفسد له بشئ حتى نبت وانجر فإن كان فيه قبل ذلك
منفعة رعى أو شئ ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان. وقال أصبغ:
يضمن، لان التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به.

التاسعة عشرة - وقع في كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي
هي حيطان محدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة، وبساتين كذلك،
فيضمن

أرباب النعم ما أفسدت من ليل أو نهار، كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان في مثل
هذه البلاد تعد، لأنها ولا بد تفسد. وهذا جنوح إلى قول الليث.

الموفية عشرين - قال أصبغ في المدينة: ليس لأهل المواشي أن يخرجوا مواشيهم
إلى قرى الزرع بغير ذواد، فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة
زرع،

أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تحتاج، وعلى أربابها
حفظها،

وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلا أو نهارا، وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذي
حرثه

فيها حفظه، ولا شئ على أرباب المواشي.

الحادية والعشرون - المواشي على قسمين: ضواري وحريسة وعليهما قسمها مالك.
فالضواري هي المعتادة للزرع (١) والثمار، فقال مالك: تغرب وتباع في بلد لا زرع
فيه، رواه

ابن القاسم في الكتاب وغيره. قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربها، وكذلك قال مالك
في الدابة التي ضررت في إفساد الزرع: تغرب وتباع. وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا
يؤمر صاحبه بإخراجه.

(١) في ك: الزروع.

(३१४)

الثانية والعشرون - قال أصبغ: النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضريت] (١)، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم. قال ابن العربي:

وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها. من أراد أن يتخذ ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مكن منه، وأما

انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيل إليه. قال عليه السلام: (لا ضرر ولا ضرار) وهذه الضواري عن ابن القاسم في المدينة لا ضمان على أربابها إلا بعد التقدم. ابن العربي:

وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضواري.

الثالثة والعشرون - ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شريح، فقال الشعبي: انظروه فإنه سيسألهم ليلا وقعت فيه

أو نهارا، ففعل. ثم قال: إن كان بالليل ضمن وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريح " إذ نفشت فيه غنم القوم " قال: والنفش بالليل والهمل بالنهار.

قلت: ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم (العجماء جرحها جبار) الحديث. وقال ابن شهاب: والجبار الهدر، والعجماء البهيمة، قال علماؤنا: ظاهر قوله: (العجماء جرحها جبار) أن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء، وهذا مجمع عليه. فلو كان معها

قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف، فإن كانت جناية

مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه، لان الدابة كالألة.

وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة. وفي الأموال الغرامة في مال الجاني.

الرابعة والعشرون - واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها، فلم يضمن مالك والليث والأوزاعي صاحبها، وضمنه الشافعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة. واختلفوا في الضارية فجمهورهم أنها كغيرها، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه.

الخامسة والعشرون - روى سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرجل جبار) قال الدارقطني: لم يروه

(١) في اوب و ج و ح و ز و ط و ك: (أضرت) والتصويب من (الموطأ).

(३१४)

غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن عيينة ويونس

ومعمر وابن جريج والزبيدي وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم رووه عن الزهري فقالوا:

(العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار) ولم يذكروا الرجل وهو الصواب. وكذلك رواه

أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن

أبي هريرة، ولم يذكروا فيه (والرجل جبار) وهو المحفوظ عن أبي هريرة. السادسة والعشرون - قوله: (والبئر جبار) قد روى موضعه (والنار جبار) قال الدارقطني:

حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدثنا حنبل بن إسحاق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل

يقول في حديث عبد الرزاق: حديث أبي هريرة (والنار جبار) ليس بشيء لم يكن في الكتاب

باطل ليس هو بصحيح. حدثنا محمد بن مخلد حدثنا أبو إسحاق (١) إبراهيم بن هانئ قال سمعت

أحمد بن حنبل يقول: أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير، يعني مثل ذلك. وإنما لقن عبد الرزاق (النار جبار). وقال الرمادي: قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وهما.

قال أبو عمر: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (النار جبار) وقال يحيى بن معين: أصله

البئر ولكن معمرًا صحفه قال أبو عمر: لم يأت ابن معين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا

ترد أحاديث الثقات. ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغساني قال:

أحرق رجل سافي قراح (٢) له فخرجت شرارة من نار حتى أحرقت شيئًا لجاره. قال: فكتب فيه

إلى عمر بن عبد العزيز ابن حصين فكتب إلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (العجماء جبار) وأرى أن النار جبار. وقد روي (والسائمة جبار) بدل العجماء فهذا ما

ورد

في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتب

الفقه.
قوله تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) قال وهب: كان داود يمر بالجبال
مسبحاً
والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال
فسبحت

(١) كذا في ب و ج و ز و ط و ك. وكذا في التهذيب.
(٢) قراح: مزرعة.

حتى يشناق، ولهذا قال: " وسخرنا " أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح.
وقيل:

إن سيرها معه تسبيحها، والتسبيح مأخوذ من السباحة، دليله قوله تعالى: " يا جبال أوبي
معه " (١) [سبأ: ١٠]. وقال قتادة: " يسبحن " يصلين معه إذا صلى، والتسبيح الصلاة.
وكل محتمل.

وذلك فعل الله تعالى بها، ذلك لان الجبال لا تعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى
عن

صفات العاجزين والمحدثين.

قوله تعالى: وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل
أنتم شاكرون (٨٠)
فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (وعلمناه صنعة لبوس لكم) يعني اتخاذ الدروع بإلانة الحديد
له، واللبوس عند العرب السلاح كله، درعا كان أو جوشنا أو سيفاً أو رمحاً. قال
الهدلي (٢) يصف رمحاً:

ومعي لبوس للبيس كأنه * روق بجبهة ذي نعاج محفل

واللبوس كل ما يلبس، وأنشد ابن السكيت: (٣)

ألبس لكل حالة لبوسها * إما نعيمها وإما بوسها

وأراد الله تعالى هنا الدرع، وهو بمعنى الملبوس نحو الركوب والحلوب. قال قتادة:
أول من

صنع الدروع داود. وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها.

الثانية - قوله تعالى: (ليحصنكم) (٤) ليحرزكم. (من بأسكم) أي من حربكم.
وقيل: من السيف والسهم والرمح، أي من آلة بأسكم فحذف المضاف. ابن عباس:
" من بأسكم " من سلاحكم. الضحاك: من حرب أعدائكم. والمعنى واحد. وقرأ
الحسن

(١) راجع ج ١٤ ص ٢٦٤ فما بعد.

(٢) هو أبو كبير الهدلي واسمه عامر بن الحلیم؟؟ من قصيدة أولها:

أزهير هل عن شبية من معدل * أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبيس: الشجاع. والروق: القرن. وذو نعاج: يعني ثورا والنعاج: البقر من الوحش.

(٣) البيت لبهس الفزاري.

(٤) (ليحصنكم) بالياء قراءة نافع.

وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح " لتحصنكم " بالتاء ردا على الصنعة (١). وقيل:
على

اللبوس والمنعة التي هي الدروع. وقرأ شيبه وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي
إسحاق:

" لنحصنكم " بالنون لقوله: " وعلمناه " وقرأ الباقر بالياء جعلوا الفعل لللبوس، أو
يكون

المعنى ليحصنكم الله. (فهل أنتم شاكرون) أي على تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل:
" هل أنتم شاكرون " بأن تطيعوا رسولي.

الثالثة - هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول
والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله
في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب من ذكرنا إلى
الضعف

وعدم المنة. وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع،
وكان

أيضا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثا، ونوح نجارا ولقمان
خياطا،

وطالوت دباغا. وقيل: سقاء، فالصنعة يكف بها الانسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن
نفسه الضرر والبأس. وفي الحديث: " إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف
المتعفف ويبغض

السائل الملحف ". وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة " الفرقان " (٢). وقد تقدم في
غير ما آية،
وفيه كفاية والحمد لله.

قوله تعالى: ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض
التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين (٨١) ومن الشياطين من
يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٨٢)
قوله تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة) أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، أي شديدة
الهبوب. يقال منه: عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصف وعصوف. وفي لغة
بني أسد: أعصفت الريح فهي معصف ومعصفة. والعصف التبن فسمي به شدة الريح،

(١) كذا في ب و ج و ز و ط و ك و ي، وهو الصواب.

(٢) راجع ج ١٣ ص ١٢ فما بعد وص ٧٢.

لأنها تعصفه بشدة تطيرها. وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمي وأبو بكر " ولسليمان
الريح "

برفع الحاء على القطع مما قبله، والمعنى ولسليمان تسخير الريح، ابتداء وخبر. (تجري
بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) يعني الشام. يروي أنها كانت تجري به وبأصحابه
إلى

حيث أراد، ثم ترده إلى الشام. وقال وهب: كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه
عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره. وكان امرأ غزاء لا
يقعد

عن الغزو، فإذا أراد أن يغزو أمر بنخشب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة
الحرب،

ثم أمر العاصف فأقلت ذلك، ثم أمر الرخاء فمرت (١) به شهرا في رواحه وشهرا في
غدوه، وهو

معنى قوله تعالى: " تجري بأمره رخاء حيث أصاب " (٢) [ص: ٣٦]. والرخاء اللينة.
(وكننا بكل شيء

عالمين) أي بكل شيء عملنا عالمين بتدبيره.

قوله تعالى: (ومن الشياطين من يغوصون له) أي وسخرنا له من يغوصون، يريد
تحت الماء. أي يستخرجون له الجواهر من البحر. والغوص النزول تحت الماء، وقد
غاص

في الماء، والهاجم على الشيء غائص. والغواص الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ،
وفعله

الغياصة. (ويعملون عملا دون ذلك) أي سوى ذلك من الغوص، قاله الفراء. وقيل: يراد
بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه. (وكننا لهم حافظين) أي
لاعمالهم. وقال

الفراء: حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم، أو يهيجوا أحدا من بني آدم في زمان
سليمان.

وقيل: " حافظين " من أن يهربوا أو يمتنعوا. أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. وقد
قيل: إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين.

قوله تعالى: وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم
الراحمين (٨٣) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله
ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين (٨٤)

(١) في ك: فمدت.

(٢) راجع ج ١٥ ص ١٩٨ فما بعد.



(۳۲۲)

قوله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه) أي واذكر أيوب إذ نادى ربه. (أني مسني الضر) أي نالني في بدني ضر وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى

في كل حال. وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم، وكان برا تقيا

رحيما بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، شاكرا لأنعم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخطبوه في أمر، فجعل أيوب يلين له

في القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضر في جسمه حتى تناثر

لحمه وتددود جسمه، حتى أخرجاه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه. قال

الحسن: مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر. فلما أراد الله أن يفرج عنه قال الله تعالى له:

"اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب" [ص: ٤٢] فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ومالك

وولدك ومثلهم معهم. وسيأتي في "ص" (١) ما للمفسرين في قصة أيوب من تسليط الشيطان

عليه، والرد عليهم إن شاء الله تعالى. واختلف في قول أيوب: "مسني الضر" على خمسة عشر قولاً: الأول: أنه وثب ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال: "مسني الضر" إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه، رواه أنس مرفوعاً. الثاني - أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافياً للصبر. الثالث - أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده في الإفصاح بما ينزل بهم. الرابع - أنه أجراه على لسانه لإلزاماً له في صفة الآدمي في الضعف

عن تحمل البلاء. الخامس - أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه فقال:

"مسني الضر". وهذا قول جعفر بن محمد. السادس - أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما انتهت إليه محوا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قدر، فاشتكى الضر في ذهاب الوحي والدين من أيدي الناس. وهذا مما لم يصح سنده. والله أعلم، قاله ابن العربي. السابع - أن دودة سقطت (٢) من لحمه فأخذها ورددها في موضعها

فعقرته فصاح "مسني الضر" فقيل: أعلينا تتصبر. قال ابن العربي: وهذا بعيد جدا

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٠٧.
(٢) في ك: سقطت من جلده فطلبها ليردها فلم يجدها. فسيأتي.

(٣٢٣)

مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده. الثامن - أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه، فقال: " مسني الضر " لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربي: وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة.

التاسع - أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب، أو تعذيب، أو تخصيص، أو تمحيص، أو ذخر أو طهر، فقال: " مسني الضر " أي ضر الاشكال في جهة أخذ البلاء. قال ابن العربي: وهذا غلو لا يحتاج إليه. العاشر - أنه قيل له سل الله العافية فقال: أقمت في النعيم سبعين سنة وأقيم في البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال: "

مسني

الضر ". قال ابن العربي: وهذا ممكن ولكنه لم يصح في إقامته مدة خبر ولا في هذه القصة. الحادي عشر - أن ضره قول إبليس لزوجته اسجدي لي فخاف ذهاب الايمان عنها

فتهلك ويبقي بغير كافل. الثاني عشر - لما ظهر به البلاء قال قومه: قد أضربنا كونه معنا

وقدره فليخرج عنا، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد، فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا: ليبعد بحيث لا نراه. فخرج إلى بعد من القرية، فكانت امرأته تقوم

عليه وتحمل قوته إليه. فقالوا: إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا. فأرادوا قطعها

عنه، فقال: " مسني الضر ". الثالث عشر: قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا البلاء، فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك

قال: " مسني الضر " ثم قال: " اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت شعبان قط وأنا أعلم مكان

جائع فصدقني " فنادى مناد من السماء " أن صدق عبدي " وهما يسمعان فخرا ساجدين.

الرابع عشر - أن معنى: " مسني الضر " من شماتة الأعداء، ولهذا قيل له: ما كان أشد عليك

في بلائك؟ قال شماتة الأعداء. قال ابن العربي: وهذا ممكن فإن الكليم قد سأله أخوه العافية

من ذلك فقال: " إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء " (١) [الأعراف: ١٥٠].

الخامس عشر - أن امرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لاحد

بسیبہ

(۱) راجع ج ۷ ص ۲۸۶ فما بعد.

(۳۲۴)

ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها في تصرفه وتنقله، فلما عدتها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر قال: " مسني الضر "

وقيل: إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس (١) [لعنه الله] (٢) في صفة رجل وقال له:

إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها. فحلف أيوب أن يجلدتها، فكانت المحنة على قلب

المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر - ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه

من البلاء، الحديث. وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال: يا نبي الله لقد أعجبني

أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغت ما ترى ألا يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنت ذنبا ما أظن

أحدا بلغه! فقال أيوب عليه السلام: " ما أدري ما يقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله - أو على النفر يتزاعمون - فأنقلب إلى أهلي

فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يآثم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق " فنأدى ربه " أنني

مسني الضر وأنت أرحم الراحمين " إنما كان دعاؤه عرضا عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره

بالذي بلغه، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث. وقول سابع عشر -

سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها فلم يجدها فقال:

" مسني الضر " لما فقد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يبقى له الاجر موفرا إلى

وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند. قال العلماء: ولم يكن قوله " مسني الضر "

جزعا، لان الله تعالى قال: " إنا وجدناه صابرا " (٣) [ص: ٤٤] بل كان ذلك دعاء

منه، والجزع في الشكوى
إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا
القاسم
ابن حبيب يقول حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسألت عن
هذه
الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية قد قال الله تعالى: " إنا وجدناه
صابرا " [ص: ٤٤]

-
- (١) في ج: الشيطان.
(٢) من ك.
(٣) راجع ج ١٥ ص ٢١٢ فما بعد.

فقلت: ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء، بيانه (فاستجبنا له) والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء. فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال: عرفه فاقه السؤال ليمن عليه بكرم النوال. (١)

قوله تعالى: (فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قال مجاهد وعكرمة: قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم: قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة

وإن شئت آتيناهم في الدنيا. قال مجاهد: فتركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم

في الدنيا. قال النحاس: والاسناد عنهما بذلك صحيح.

قلت: وحكاية المهدي عن ابن عباس. وقال الضحاك: قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا امرأته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر، وآتاه مثلهم معهم. وعن ابن عباس أيضا: كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم. وقاله قتادة وكعب الأحمري والكلبي وغيرهم. قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من

الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي نشروا له، وولدت [له] (٢) امرأته سبعة بنين وسبع بنات.

[قال] (٢) الثعلبي: وهذا القول أشبه بظاهر الآية.

قلت: لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه في سورة "البقرة" (٣) في قصة

"الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت" [البقرة: ٢٤٣]. وفي قصة السبعين الذين أخذتهم

الصعقة فماتوا ثم أحيوا (٤)، وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم، وكذلك هنا والله أعلم. وعلى قول

مجاهد وعكرمة يكون المعنى: " وآتيناه أهله " في الآخرة " ومثلهم معهم " في الدنيا. وفي الخبر:

إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء

حار (٥)، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان، وغاص في الماء غوصة فنبت لحمه

وعاد إلى منزله، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب. فقال له جبريل: أشبعت؟ فقال: ومن

- (١) في ك: كريم النوال.
- (٢) من ب و ج و ز و ط و ك.
- (٣) راجع ج ٣ ص ٢٣٠.
- (٤) راجع ج ١ ص ٤٠٤ و ج ٧ ص ٢٩٥.
- (٥) في ج: جار.

يشبع من فضل الله!. فأوحى الله إليه: قد أثبتت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء
وبعده،

ولولا أنني وضعت تحت كل شعرة منك صبورا ما صبرت. (رحمة من عندنا) أي فعلنا
ذلك به رحمة من عندنا. وقيل: ابتليناه ليعظم ثوابه غدا. (وذكرى للعابدين)
أي وتذكيرا للعباد، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل
زمانه

وظنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم
على إدامة

العبادة، واحتمال الضرر. واختلف في مدة إقامته في البلاء، فقال ابن عباس: كانت مدة
البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال. وهب: ثلاثين سنة. الحسن: سبع
سنين وستة أشهر. قلت: وأصح من هذا والله أعلم ثمانين سنة، رواه ابن شهاب
عن

النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره ابن المبارك وقد تقدم.

قوله تعالى: وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين (٨٥)

وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين (٨٦)

قوله تعالى: (وإسماعيل وإدريس) وهو أخنوخ وقد تقدم (وذا الكفل) أي

واذكرهم. وخرج الترمذي الحكيم في "نوادير الأصول" وغيره من حديث ابن عمر

عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: (كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع (١)

من ذنب

عمله فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارا [على أن يطأها] (٢) فلما قعد منها مقعد الرجل

من امرأته

ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أكرهتك

قالت لا ولكن حملني عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم

مات

من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذي الكفل) وخرجه أبو عيسى

الترمذي أيضا. ولفظه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه

وسلم

يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - [لم أحدث به]

(٣)

ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كان

- (١) في ج وز وك وى.
(٢) من ب.
(٣) الزيادة من صحيح الترمذي.

ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أأكرهتك

قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبي فهي لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً

على بابه إن الله قد غفر لذي الكفل قال: حديث حسن. وقيل إن اليسع لما كبر قال: لو استخلفت رجلاً على الناس حتى أنظر كيف يعمل. فقال: من يتكفل لي بثلاث: بصيام

النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضى؟ فقال رجل من ذرية العيص: أنا، فرده ثم قال مثلها من الغد، فقال الرجل: أنا، فاستخلفه فوفى فأثنى الله عليه فسمى ذا الكفل، لأنه

تكفل بأمر، قال أبو موسى ومجاهد وقتادة. وقال عمر (١) بن عبد الرحمن بن الحرث وقال

أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن ذا الكفل لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً

فتكفل بعمل رجل صالح عند موته، وكان يصلي لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه.

وقال كعب: كان في بني إسرائيل ملك كافر فمر ببلاده رجل صالح فقال: والله إن خرجت

من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام. فعرض عليه فقال: ما جزائي؟ قال: الجنة - ووصفها له - قال: من يتكفل لي بذلك؟ قال: أنا، فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر

وفيهما رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض: إن الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفى عن كفالة

فلان، فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك، ففعل ذلك فأمنوا كلهم فسمى ذا الكفل. وقيل: كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مظالمة فينجيه الله على يديه. وقيل: سمي ذا الكفل لأن

الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه. والجمهور على أنه ليس بنبي. وقال الحسن: هو نبي قبل إلياس. وقيل: هو زكريا بكفالة مريم. (كل من الصابرين) أي على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه. (وأدخلناهم

في رحمتنا) أي في الجنة (إنهم من الصالحين).

(١) في الأصول: عمرو بن عبد الله. والتصويب من التهذيب.

قوله تعالى: وذا النون إن ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه
فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من
الظالمين (٨٧) فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين (٨٨)
قوله تعالى: (وذا النون) أي واذكر " ذا النون " وهو لقب ليونس بن متى لا ابتلاع
النون إياه. والنون الحوت. وفي حديث عثمان رضي الله عنه أنه رأى صبيًا مليحًا فقال:
دسموا

نونته كي لا تصيبه العين. روى ثعلب عن ابن الأعرابي: النونة النقبة التي تكون في ذقن
الصبي
الصغير، ومعنى دسموا سودوا. (إن ذهب مغاضبا) قال الحسن والشعبي وسعيد بن
جبير:

مغاضبا لربه عز وجل. واختاره الطبري والقتيبي واستحسنه المهدوي، وروى عن ابن
مسعود.

وقال النحاس: وربما أنكره هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح. والمعنى: مغاضبا
من أجل

ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك. والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى.
وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: (اشترطي لهم
الولاء)

من هذا. وبالغ القتيبي في نصره هذا القول. وفي الخبر في وصف يونس: إنه كان ضيق
الصدر فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع (١) تحت الحمل الثقيل،
فمضى على وجهه

مضى الآبق الناد. وهذه المغاضبة كانت صغيرة. ولم يغضب على الله ولكن غضب لله
إذ رفع

العذاب عنهم. وقال ابن مسعود: أبق من ربه أي من أمر ربه حتى أمره بالعودة إليهم
بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان يتوعد قومه نزول العذاب في وقت معلوم، وخرج من
عندهم في ذلك الوقت، فأظلمهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم،
فلذلك

ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد. وقال الحسن: أمره الله تعالى
بالمسير

إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلًا ليلبسها فلم ينظر،
وقيل له:

الامر أعجل من ذلك - وكان في خلقه ضيق - فخرج مغاضبا لربه، فهذا قول. وقول

(١) الربيع: ما ولد من الإبل في الربيع.

(٣٢٩)

النحاس أحسن ما قيل في تأويله. أي خرج مغاضبا من أجل ربه، أي غضب على قومه من أجل كفرهم بربه. وقيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارا بنفسه، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم

من غير إذن من الله. روي معناه عن ابن عباس والضحاك، وأن يونس كان شابا ولم يحمل

أثقال النبوة، ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: " ولا تكن كصاحب الحوت " (١) [القلم: ٤٨]. وعن

الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه، لان قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل

كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل. وقالت

فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضبا للملك الذي كان على قومه. قال ابن عباس: أراد

شعيا النبي والملك الذي كان في وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى، وكان

غزا بني إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك

الزمان يوحى إليهم، والامر والسياسة إلى ملك قد اختاروه فيعمل على وحي ذلك النبي، وكان أوحى الله لشعيا: أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أميناً من بني إسرائيل فيبعثه

إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل فإني ملق في قلوب ملوكهم وجبارتهم التخلية

عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سماني لك؟ قال: لا. قال فيها هنا أنبياء أمناء أقوياء. فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه، فأتى

بحر الروم وكان من قصته ما كان، فابتلى بيطن الحوت لتركه أمر شعيا، ولهذا قال الله تعالى:

" فالتقمه الحوت وهو مليم " (٢) [الصفوات: ١٤٢] والمليم من فعل ما يلام عليه. وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك

الأولى. وقيل: خرج ولم يكن نبيا في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بني إسرائيل

أن يأتي نينوى، ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله،

فخرج مغاضبا للملك، فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به.
وقال
القشيري: والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه وبعد رفع العذاب
عن القوم بعد ما أظلمهم، فإنه كره رفع العذاب عنهم.

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٥٣.

(٢) راجع ج ١٥ ص ١٢١.

قلت: هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في " والصفات " (١) إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فحشي أن يقتل فغضب، وخرج فارا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر. فقال أهلها: أفيكم أبق؟

فقال: أنا هو. وكان من قصته ما كان، وابتلى ببطن الحوت تمحيصا من الصغيرة كما قال

في أهل أحد: " حتى إذا فشلتهم " [آل عمران: ١٥٢] إلى قوله: " وليمحص الله الذين آمنوا " (٢) [آل عمران: ١٤١] فمعاصي الأنبياء

مغفورة، ولكن قد يجري تمحيص ويتضمن ذلك زجرا عن المعاودة. وقول رابع: إنه لم يغضب ربه ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم غضب إذا أنف. وفاعل قد يكون من واحد، فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع

وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا. وينشد هذا البيت:
* وأغضب أن تهجي تميم بدارم *

أي أنف. وهذا فيه نظر، فإنه يقال لصاحب هذا القول: إن تلك المغاضبة وإن كانت من الانفة، فالأنفة لا بد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان؟!!

وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه!

قوله تعالى: (فظن أن لن نقدر عليه فنأدى في الظلمات) قيل: معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته. وهذا قول مردود مرغوب عنه، لأنه كفر.

روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي، والثعلبي عن الحسن. وذكر الثعلبي وقال عطاء

وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه: فظن أن لن نضيق عليه. قال الحسن: هو من قوله

تعالى: " الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر " (٣) [الرعد: ٢٦] أي يضيق. وقوله " ومن قدر عليه رزقه " (٤) [الطلاق: ٧].

قلت: وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن. وقدر وقدر وقتر وقتر بمعنى، أي ضيق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي. وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم،

أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، قاله قتادة ومجاهد والفراء. مأخوذ من القدر وهو الحكم

-
- (١) راجع ج ١٥ ص ١٢١.
(٢) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ فما بعد.
(٣) راجع ج ٩ ص ٣١٣ فما بعد.
(٤) راجع ج ١٨ ص ١٧٠.

دون القدرة والاستطاعة. وروي عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال في قول الله

عز وجل: " فظن أن لن نقدر عليه " هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قدر الله لك الخير يقدره قدرا، بمعنى قدر الله لك الخير. وأنشد ثعلب: فليست عشيات اللوى برواجع * لنا أبدا ما أورك السلم النضر ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى * تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر يعني ما تقدره وتقضى به يقع. وعلى هذين التأويلين العلماء. وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهري: " فظن أن لن نقدر عليه " بضم النون وتشديد الدال من التقدير. وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس. وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج: " أن لن يقدر عليه "

بضم الياء مشددا على الفعل المجهول. وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن وابن عباس أيضا: " يقدر عليه " بياء مضمومة وفتح الدال مخففا على الفعل المجهول. وعن الحسن أيضا: " فظن أن لن يقدر عليه ". الباقون " نقدر " بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير.

قلت: وهذان التأويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه (فوالله لئن قدر الله على) الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره: والله لئن

ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزاني على ذنوبي ليكون ذلك، ثم أمر أن يحرق بإفراط

خوفه. وعلى التأويل الثاني: أي لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم

على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيري. وحديثه

خرجه الأئمة في الموطأ وغيره. والرجل كان مؤمنا موحدا. وقد جاء في بعض طرقه (لم يعمل

خيرا إلا التوحيد) وقد قال حين قال الله تعالى: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب.

والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق، قال الله تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (١) [فاطر: ٢٨].

وقد قيل: إن معنى " فظن أن لن نقدر عليه " الاستفهام وتقديره: أظن، فحذف ألف الاستفهام إيجازا، وهو قول سليمان (٢) [أبو] المعتمر. وحكى القاضي منذر بن سعيد:

أن بعضهم
قرأ: " أفظن " بالألف.

(١) راجع ج ١٤ ص (٢) في الأصل (سليمان بن المعتمر) وهو تحريف والتصويب من (تهذيب التهذيب).

قوله تعالى: (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: " فنادى في الظلمات " اختلف العلماء في جمع الظلمات ما المراد

به، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت. وذكر

ابن أبي الدنيا حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق

عن عمرو بن ميمون قال حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى

في الظلمات ظلمات ثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر " أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " فنبذناه بالعراء وهو سقيم " (١) [الصفات: ١٤٥] كهيئة الفرخ

الممعوط الذي ليس عليه ريش. وقالت فرقة منهم سالم بن أبي الجعد: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأول. ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط، كما قال: " في غيابات (٢) الجب " [يوسف: ١٠] وفي كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ. وذكر

الماوردي: أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدة، وظلمة الوحدة.

وروى: أن الله تعالى أوحى إلى الحوت: " لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك " وروى: أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح

الحيتان في قعر البحر. وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا إسحاق (٣)

ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبي الحسن قال: لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجله فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلي

فقال في دعائه: " واتخذت لك مسجدا حيث لم يتخذه أحد ". وقال أبو المعالي: قوله صلى

الله عليه وسلم (لا تفضلوني على يونس بن متى) المعنى فإني لم أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقرب

إلى الله منه، وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا يدل على أن الباري سبحانه

وتعالى

(١) راجع ج ١٥ ص ١٢٧.

(٢) راجع ج ٩ ص ١٣٢.

(٣) كذا في الأصول،

ولعله (عبد الله بن إدريس) فإن عبد الله المذكور حدث عنه العبدي كما في (تهذيب التهذيب).

ليس في جهة. وقد تقدم هذا المعنى في " البقرة " (١) و " الأعراف " (٢). " أن لا إله إلا أنت

سبحانك إني كنت من الظالمين " يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم.

وقيل: في الخروج من غير أن يؤذن له. ولم يكن ذلك من الله عقوبة، لان الأنبياء لا يجوز

أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصا. وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان، ذكره

الماوردي. وقيل: من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب. وقد دعا نوح على قومه فلم

يؤاخذ. وقال الواسطي في معناه: نزهه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافا واستحقاقا. ومثل هذا قول آدم وحواء: " ربنا ظلمنا أنفسنا " (٢) [الأعراف: ٢٣] إذ كانا السبب في وضعهما

أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه.

الثانية - روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (دعاء ذي النون في بطن الحوت " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " لم يدع

به رجل مسلم في شئ قط إلا استجيب له) وقد قيل: إنه اسم الله الأعظم. ورواه سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الخبر: في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه

وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: " وكذلك ننجي المؤمنين " وليس هاهنا صريح دعاء وإنما هو

مضمون قوله: " إني كنت من الظالمين " فاعترف بالظلم فكان تلويحا.

قوله تعالى: (و كذلك ننجي المؤمنين) أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم. وذلك قوله: " فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون " (٣)

[الصفات: ١٤٣ - ١٤٤] وهذا حفظ من

الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبه، وحفظ ذمام ما سلف له من الطاعة. وقال الأستاذ أبو إسحاق: صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون،

فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده! لا يظن به ذلك. " من الغم " أي من بطن الحوت.

قوله تعالى: " وكذلك ننجي المؤمنين " قراءة العامة بنونين من أنجي ينجي. وقرأ ابن عامر " نجي " بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضي وإضمار

المصدر
أي وكذلك نجي النجاء المؤمنين، كما تقول: ضرب زيدا بمعنى ضرب الضرب زيدا
وأشد:

-
- (١) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ فما بعد.
(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٣ فما بعد وص ١٨٠.
(٣) راجع ج ١٥ ص ١٢١.

ولو ولدت قفيرة (١) جرو كلب * لسب بذلك الجرو الكلابا
أراد لسب السب بذلك الجرو. وسكنت يائه على لغة من يقول بقى ورضى فلا يحرك
الياء.

وقرأ الحسن " وذروا ما بقى من الربا " (٢) [البقرة: ٢٧٨] استثقلا لتحريك ياء قبلها
كسرة. وأنشد:

خمر الشيب لمتي تحميرا * وحدا بي إلى القبور البعيرا
ليت شعري إذا القيامة قامت * ودعى بالحساب أين المصيرا
سكن الياء في دعي استثقلا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب، أي وحدا
المشيب

البعير، ليت شعري المصير أين هو. هذا تأويل الفراء وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه
القراءة. وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا: هو لحن، لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله،
وإنما

يقال: نجى المؤمنون. كما يقال: كرم الصالحون. ولا يجوز ضرب زيدا بمعنى ضرب
الضرب

زيدا، لأنه لا فائدة [فيه] (٣) إذ كان ضرب يدل على الضرب. ولا يجوز أن يحتج
بمثل ذلك

البيت على كتاب الله تعالى. ولأبي عبيد قول آخر - وقاله القتيبي - وهو أنه أدغم النون
في الجيم.

النحاس: وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين، لبعد مخرج النون من مخرج
الجيم

فلا تدغم فيها، ولا يجوز في " من جاء بالحسنة " (٤) " مجاء بالحسنة " قال النحاس:
ولم أسمع

في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان. قال: الأصل ننجي فحذف إحدى
النونين،

لاجتماعهما كما تحذف إحدى التاءين، لاجتماعهما نحو قوله عز وجل: " ولا تفرقوا
" (٥) [آل عمران: ١٠٣] والأصل

تتفرقوا. وقرأ محمد بن السميع وأبو العالية: " وكذلك نجى المؤمنين " أي نجى الله
المؤمنين،

وهي حسنة.

قوله تعالى: وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدرنى فردا وأنت خير

الوارثين (٨٩) فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم

كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين (٩٠)

-
- (١) قفيرة (كجهينة): أم الفرزدق. والبيت لجريير من قصيدة يهجو بها الفرزدق.
(٢) راجع ج ٣ ص ٣٦٢.
(٣) الزيادة من (إعراب القرآن) للنحاس.
(٤) راجع ج ٧ ص ١٥٠.
(٥) راجع ج ٤ ص ١٥٨.

قوله تعالى: (وزكريا إذ نادى ربه) أي واذكر زكريا. وقد تقدم في " آل عمران " (١) ذكره. (رب لا تذرني فردا) أي منفردا لا ولد لي وقد تقدم. (وأنت خير الوارثين) أي خير من يبقى بعد كل من يموت، وإنما قال " وأنت خير الوارثين " لما تقدم من قوله:

" يرثني " [مريم: ٦] أي أعلم أنك لا تضيع دينك ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التي هي القيام بأمر

الدين عن عقبى. كما تقدم في " مريم " (٢) بيانه.

قوله تعالى: (فاستجبنا له) أي أجبنا دعاءه: (ووهبنا له يحيى). تقدم ذكره مستوفى: (وأصلحنا له زوجه) قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها كانت عاقرا فجعلت

ولودا. وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق.

قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا. " إنهم " يعني الأنبياء المسمين في هذه السورة. (كانوا يسارعون في الخيرات). وقيل: الكناية راجعة إلى زكريا وامرأته ويحيى.

قوله تعالى: (ويدعوننا رغبا ورهبا) فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: (ويدعوننا رغبا ورهبا) أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحال الشدة. وقيل: المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف،

لان الرغبة والرغبة متلازمان. وقيل: الرغب رفع بطون الألف إلى السماء، والرهب رفع ظهورها، قاله خصيف، وقال ابن عطية: وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين

بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه، إذ هو

موضع إعطاء أو بها يتملك، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك، والإشارة

إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه.

الثانية - روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى

الله

عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يسمح بهما وجهه وقد مضى في " الأعراف " (٣)

- (١) راجع ج ٤ ص ٧٤ فما بعد.
(٢) راجع ص ٨١ من هذا الجزء.
(٣) راجع ج ٧ ص ٢٢٤ فما بعد.

الاختلاف في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك. وعلى القول بالرفع فقد اختلف

الناس في صفته وإلى أين؟ فكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما حدو صدره ويطونهما إلى وجهه، روى عن ابن عمر وابن عباس. وكان علي يدعو بباطن كفيه، وعن أنس مثله،

وهو ظاهر حديث الترمذي. وقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا سألتكم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم). وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري، قال: وقف رسول الله صلى الله

عليه وسلم بعرفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه، ورفعهما فوق ثدييه وأسفل

من منكبيه. وقيل: حتى يحاذي بهما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه. قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال: إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة

غير مختلفة المعاني، وجائز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء

كما قال ابن عباس: إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الاخلاص وإذا رفع يديه حدو صدره فهو (١) الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهاال.

قال الطبري: وقد روى قتادة عن أنس قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه

وباطنهما. و " رغبا ورهبا " منصوبان على المصدر، أي يرغبون رغبا ويرهبون رهبا. أو على المفعول من أجله، أي للرغب والرهب. أو على الحال. وقرأ طلحة بن مصرف: " ويدعونا " بنون واحدة. وقرأ الأعمش: بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السقم والبخل،

والعدم والضرب لغتان وابن وثاب والأعمش أيضا " رغبا ورهبا " بالفتح في الراء والتخفيف

في الغين والهاء، وهما لغتان مثل: نهر ونهر وصخر وصخر. ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو.

(وكانوا لنا خاشعين) أي متواضعين خاضعين.

قوله تعالى: والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين (٩١)

(١) في ك: ألة الدعاء. لعله الأصل.

قوله تعالى: (والتي أحصنت فرجها) أي واذكر مريم التي أحصنت فرجها. وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتم ذكر عيسى عليه السلام ولهذا قال: " وجعلناها وابنها آية للعالمين " ولم يقل آيتين لان معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين.

وقال الزجاج: إن الآية فيهما واحدة، لأنها ولدته من غير فحل وعلى مذهب سيبويه التقدير:

وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنا آية للعالمين ثم حذف. وعلى مذهب الفراء: وجعلناها آية

للعالمين وابنها، مثل قوله جل ثناؤه: " والله ورسوله أحق أن يرضوه " (١). وقيل: إن من آياتها

أنها أول امرأة قبلت في النذر في المتعبد. ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبده. وقيل: إنها لم تلقم ثديا قط. و " أحصنت " يعني عفت

فامتنت من الفاحشة. وقيل: إن المراد بالفرج فرج القميص، أي لم تعلق بثوبها ربية، أي إنها طاهرة الأثواب. وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل. قال السهيلي:

فلا يذهب وهمك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية لان القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظاً،

وألطف إشارة، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح

القدس بأمر القدوس، فأضف القدس إلى القدوس، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب

والحدس. " فنفخنا فيها من روحنا " يعني أمرنا جبريل حتى نفخ في درعها، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها. وقد مضى هذا في " النساء " (٢) و " مريم " فلا معنى للإعادة.

" آية " أي علامة وأعجوبة للخلق، وعلمنا لنبوة عيسى، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

قوله تعالى: إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (٩٢)

قوله تعالى: (إن هذه أمتكم أمة واحدة) لما ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الاسلام، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

فأما المشركون فقد خالفوا الكل. (وأنا ربكم) أي إلهكم وحدي. (فاعبدوني) أي أفردوني بالعبادة. وقرأ عيسى بن عمر وأبن أبي إسحاق: " إن هذه أمتكم أمة واحدة "

ورواها

(١) راجع ج ٨ ص ١٩٣ فما بعد.

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٢ فما بعد.

حسين عن أبي عمرو. الباقر " أمة واحدة " بالنصب على القطع بمجئ النكرة بعد تمام الكلام،
قاله الفراء. الزجاج: انتصب " أمة " على الحال، أي في حال اجتماعها على الحق، أي هذه
أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف
الحق
من جملة أهل الدين الحق، وهو كما تقول: فلان صديقي عفيفا أي ما دام عفيفا فإذا
خالف
العفة لم يكن صديقي. وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من " أمتكم " أو على
إضمار مبتدأ،
أي إن هذه أمتكم، هذه أمة واحدة. أو يكون خبرا بعد خبر. ولو نصبت " أمتكم "
على
البدل من " هذه " لجاز ويكون " أمة واحدة " خبر " إن ".
قوله تعالى: وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون (٩٣) فمن
يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون (٩٤)
قوله تعالى: (وتقطعوا أمرهم بينهم) أي تفرقوا في الدين، قال الكلبي. الأخصف:
اختلفوا فيه. والمراد المشركون، ذمهم لمخالفتهم الحق، واتخاذهم آلهة من دون الله.
قال
الأزهري: أي تفرقوا في أمرهم، فنصب " أمرهم " بحذف " في ". فالمتقطع على هذا
لازم وعلى الأول متعدد. والمراد جميع الخلق، أي جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً
وتقسموه
بينهم، فمن موحد، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابد ملك أو صنم. (كل إلينا
راجعون) أي إلى حكمتنا فنجازيهم.
قوله تعالى: (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) " من " للتبويض لا للجنس
إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات [كلها] (١) فرضها ونفلها، فالمعنى: من
يعمل شيئاً من
الطاعات فرضاً أو نفلاً وهو موحد مسلم. وقال ابن عباس: مصدقاً بمحمد صلى الله
عليه وسلم.
(فلا كفران لسعيه) أي لا جحود لعمله، أي لا يضيع جزأه ولا يغطي والكفر ضده
الايمان. والكفر أيضاً جحود النعمة، وهو ضد الشكر. وقد كفره كفوراً وكفرانا. وفي
حرف
ابن مسعود " فلا كفر لسعيه ". (وإنا له كاتبون) لعمله حافظون. نظيره " أني لا أضيع
عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى " (٢) [آل عمران: ١٩٥] أي كل ذلك محفوظ

ليجازي به.

(١) كذا في ب و ج و ط و ي.

(٢) راجع ج ٤ ص ٣١٨.

قوله تعالى: وحرام على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون (٩٥) حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون (٩٦) واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين (٩٧)

قوله تعالى: (وحرام على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون) قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة: " وحرام " وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وأهل الكوفة " وحرم " ورويت

عن علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. وهما لغتان مثل حل وحلال. وقد روى

عن ابن عباس وسعيد بن جبير " وحرم " بفتح الحاء والميم وكسر الراء. وعن ابن عباس أيضا وعكرمة وأبي العالية: " وحرم " بضم الراء وفتح الحاء والميم. وعن ابن عباس أيضا

" وحرم " وعنه أيضا " وحرم "، " وحرم ". وعن عكرمة أيضا " وحرم ". وعن قتادة ومطر الوراق " وحرم " تسع قراءات. وقرأ السلمي " على قرية أهلكتها ". واختلف في " لا "

في قوله: " لا يرجعون " ف قيل: هي صلة، روى ذلك عن ابن عباس، واختاره أبو عبيد، أي وحرام على قرية أهلكتها أن يرجعوا بعد الهلاك. وقيل: ليست بصلة، وإنما هي ثابتة ويكون الحرام بمعنى الواجب، أي وجب على قرية، كما قالت الخنساء:

وإن حراما لا أرى الدهر باكيا * على شجوه إلا بكيت على صخر
تريد أخاها، ف " - لا " ثابتة على هذا القول. قال النحاس: والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة وابن علي وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان (١) بن

حيان ومعلّى عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله عز وجل: " وحرام على قرية أهلكتها " قال: وجب انهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون. قال أبو جعفر: واشتقاق هذا بين في اللغة، وشرحه: أن معنى حرم الشيء حظر ومنع منه، كما أن معنى أحل أبيض ولم يمنع منه، فإذا كان " حرام " و " حرم " بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

(١) في الأصول: سليم بن حيان وكذا في التهذيب بالفتح ولعل صوابه: سليمان كما في التهذيب أيضا إذ هو الراوي عن ابن أبي هند. والله أعلم.



(۳۴۰)

منه ومنع فقد دخل في باب المحظور بهذا، فأما قول أبي عبيدة: إن " لا " زائدة فقد رده عليه جماعة، لأنها لا تزداد في مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا، لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكتها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تحرم. وقيل: في الكلام إضمار أي وحرام على قرية حكمتنا باستئصالها، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون، قاله الزجاج وأبو علي، و " لا " غير زائدة. وهذا هو معنى قول ابن عباس رضي الله عنه.

قوله تعالى: (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) تقدم القول فيهم. وفي الكلام حذف، أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل " واسأل القرية " (١) [يوسف: ٨٢]. (وهم من كل

حذب ينسلون) قال ابن عباس: من كل شرف يقبلون، أي لكثرتهم ينسلون من كل ناحية. والحذب ما ارتفع من الأرض، والجمع الحداب مأخوذ من حدبة الظهر، قال عنتره:

فما رعشت يداي ولا ازدهاني * تواترهم إلي من الحداب
وقيل: " ينسلون " يخرجون، ومنه قول امرئ القيس:
* فسلي ثيابي من ثيابك تنسل (٢) *

وقيل: يسرعون، ومنه قول النابغة: (٣)

عسلان الذئب أمسى قاربا (٤) * برد الليل عليه فنسل

يقال: عسل الذئب يعسل عسلا وعسلانا إذا أعنق وأسرع. وفي الحديث: (كذب عليك

العسل) أي عليك بسرعة المشي. وقال الزجاج: والنسلان مشية الذئب إذا أسرع، يقال:

نسل فلان في العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا، أي أسرع. ثم قيل في الذين

ينسلون من كل حذب: إنهم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر، وهو قول ابن مسعود وابن عباس. وقيل: جميع الخلق، فإنهم يحشرون إلى أرض الموقف، وهم يسرعون من كل

-
- (١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فما بعد.
(٢) البيت من معلقته وصدره:
* وإن تك قد ساءتكم منى خليقة *
(٣) وقيل: هو للبيد كما في (اللسان) مادة (عسل).
(٤) القارب: السائر ليلاً.

صوب. وقرئ في الشواذ " وهم من كل جدث ينسلون " أخذنا من قوله: " فإذا هم من الأجداث إلى ربهم (١) ينسلون " [يس: ٥١]. وحكى هذه القراءة المهدوي عن ابن مسعود والثعلبي عن مجاهد وأبي الصهباء.

قوله تعالى: (واقترب الوعد الحق) يعني القيامة. وقال الفراء والكسائي وغيرهما: الواو زائدة مقحمة، والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق " فاقترب " جواب " إذا ". وأنشد الفراء (٢):

* فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي *
أي انتحي، والواو زائدة، ومنه قوله تعالى: " وتله للجبين (١). وناديناها " [الصفات: ١٠٣ - ١٠٤] أي للجبين ناديناها.

وأجاز الكسائي أن يكون جواب " إذا " " فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا " ويكون

قوله: " واقترب الوعد الحق " معطوفا على الفعل الذي هو شرط. وقال البصريون: الجواب محذوف والتقدير: قالوا يا ويلنا، وهو قول الزجاج، وهو قول حسن. قال الله تعالى: " والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " (١) [الزمر: ٣] المعنى:

قالوا ما نعبدهم، وحذف القول كثير.

قوله تعالى " فإذا هي شاخصة " هي " ضمير الابصار، والابصار المذكورة بعدها تفسير لها كأنه قال: فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجئ الوعد. وقال الشاعر: لعمر أبيها لا تقول ظعيتي * ألا فر عني مالك بن أبي كعب فكنى عن الظعينة في أبيها ثم أظهرها. وقال الفراء: " هي " عماد، مثل. " فإنها لا تعمى الابصار " (٣) [الحج: ٤٦]. وقيل: إن الكلام تم عند قوله: " هي " التقدير: فإذا هي، بمعنى القيامة بارزة

واقعة، أي من قربها كأنها آتية حاضرة ثم ابتداء فقال: " شاخصة أبصار الذين كفروا " على تقديم الخبر على الابتداء، أي أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم، أي من هوله

لا تكاد تطرف، يقولون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا، ووضعنا العبادة في غير موضعها.

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٩ فما بعده وص ٩٩ فما بعد وص ٢٣٢ فما بعد.

(٢) البيت لامرئ القيس وهو من معلقته وتماحه: * بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل *

(٣) راجع ج ١٢ ص ٧٦ فما بعد.

قوله تعالى: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (٩٨) فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: " إنكم وما تعبدون " قال ابن عباس: آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوا (١) فلا يسألون عنها، فقيل: وما هي؟ قال:

" إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون " لما أنزلت شق على كفار

قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزبيري وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه. قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبد اليهود تعبد عزيزاً أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت قريش من مقالته، ورأوا أن محمداً قد خصم، فأنزل الله تعالى: " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون " [الأنبياء: ١٠١] وفيه نزل

" ولما ضرب ابن مريم مثلاً " [الزخرف: ٥٧] يعني ابن (٢) الزبيري " إذا قومك منه يصدون " [الزخرف: ٥٧] بكسر الصاد، أي يضحجون، وسيأتي.

(٣)

الثانية - هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صيغاً مخصوصة، خلافاً لمن قال: ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها، فهذا عبد الله بن الزبيري قد فهم " ما " في جاهليته جميع من عبد، ووافق على ذلك قريش

وهم العرب الفصحاء، واللسن البلغاء، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها، وقد وجد

ذلك فهي للعموم وهذا واضح.

الثالثة: قراءة العامة بالصاد المهملة أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم، قاله ابن عباس. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها. وقرأ

علي ابن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما: " حطب جهنم " بالطاء. وقرأ ابن عباس " حضب "

بالضاد المعجمة، قال الفراء: يريد الحضب. قال: وذكر لنا أن الحضب في لغة أهل

(١) كذا في ط وك: جهلوا. وفي غيرهما: جهلوا.

(٢) في ك: يا بن الزبيري.

(٣) راجع ج ١٦ ص ١٠٢.

(٣٤٣)

اليمن الحطب، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حضب، ذكره الجوهري.
والموقد محضب. وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: " حسب جهنم " كل ما ألقيته في
النار

فقد حصبتها به. ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام
حطب

لجهنم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: " فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة " [البقرة: ٢٤]. وقيل:

إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت، على ما تقدم في " البقرة " (١) وأن النار لا
تكون على الأصنام

عذابا ولا عقوبة، لأنها لم تذب، ولكن تكون عذابا على من عبدها: أول شيء
بالحسرة،

ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار، ثم يعذبون بها. وقيل: تحمى فتلصق
بهم

زيادة في تعذيبهم. وقيل: إنما جعلت في النار تبكيها لعبادتهم.

الرابعة: قوله تعالى: " أنتم لها واردون " أي فيها داخلون. والخطاب للمشركين
عبدة الأصنام، أي أنتم واردوها مع الأصنام. ويجوز أن يقال: الخطاب للأصنام
وعبدها،

لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنائيات الآدميين. وقال العلماء: لا
يدخل

في هذا عيسى ولا عزيز ولا الملائكة صلوات الله عليهم، لأن " ما " لغير الآدميين. فلو
أراد

ذلك لقال: " ومن ". قال الزجاج: ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون
غيرهم.

قوله تعالى: لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون (٩٩)

لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون (١٠٠)

قوله تعالى: (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) أي لو كانت الأصنام آلهة لما ورد
عابدها النار. وقيل: ما وردها العابدون والمعبودون، ولهذا قال: " وكل فيها خالدون
".

قوله تعالى: (لهم فيها زفير) أي لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين،
فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها، هل يحييها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو
لا؟

قولان: والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب. وقد تقدم في " هود " (٢).
(وهم فيها

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٥ فما بعد.
(٢) راجع ج ٩ ص ٧٨ فما بعد.

لا يسمعون) قيل: في الكلام حذف، والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئاً، لأنهم يحشرون

صما، كما قال الله تعالى: " ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً " (١) [الاسراء: ٩٧]. وفي سماع

الأشياء روح وأنس، فمنع الله الكفار ذلك في النار. وقيل: لا يسمعون ما يسرهم، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية. وقيل: إذا قيل لهم " اخسئوا فيها ولا تكلمون " (٢) [المؤمنون: ١٠٨] يصيرون حينئذ صماً بكماً، كما قال ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار في جهنم جعلوا في تواييت من نار، ثم جعلت التواييت في تواييت أخرى فيها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحد منهم أن في النار من يعذب غيره.

قوله تعالى: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (١٠١) لا يسمعون حسيستها وهم في ما اشتتت أنفسهم خالدون (١٠٢) لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون (١٠٣)

قوله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) أي الجنة (أولئك عنها) أي عن النار (مبعدون) فمعنى الكلام الاستثناء، ولهذا قال بعض أهل العلم: " إن " هاهنا بمعنى " إلا " وليس في القرآن غيره. وقال محمد بن حاطب: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن عثمان منهم).

قوله تعالى: (لا يسمعون حسيستها) أي حس النار وحركة لهبها. والحسيس والحس الحركة. وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحروري لابن عباس: " لا يسمعون حسيستها " فقال ابن عباس: أمجنون أنت؟ فأين قوله تعالى: " وإن منكم إلا واردها " (٣) وقوله تعالى: " فأوردتهم النار " (٤) [هود: ٩٨] وقوله: " إلى جهنم وردا " (٣) [مريم: ٨٦]. ولقد كان من دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة فائزاً. وقال أبو عثمان النهدي:

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٣٣.

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٥٣.

(٣) راجع ص ١٣٥.

وص ١٥٢ ص ١٤٩ من هذا الجزء.

(٤) راجع ج ٩ ص ٩٣ فما بعد.

(٣٤٥)

على الصراط حياة تلسع أهل النار فيقولون: حس حس. وقيل: إذا دخل أهل الجنة الجنة [الجنة] (١)

لم يسمعوا حس أهل النار وقبل ذلك يسمعون، فالله أعلم (وهم فيما اشتتت أنفسهم خالدون) أي دائمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وقال " ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون " (٢) [فصلت: ٣١].

قوله تعالى: (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وقرأ أبو جعفر وابن محيصة " لا يحزنهم " بضم الياء وكسر الزاي. الباقيون بفتح الياء وضم الزاي. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، وقد قرئ بهما. والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث، عن ابن عباس.

وقال الحسن: هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار. وقال ابن جريج وسعيد بن جبيرة والضحاك:

هو إذا أطبقت النار على أهلها، وذبح الموت بين الجنة والنار وقال ذو النون المصري: هو

القطيعة والفراق. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة يوم القيامة في كتيب من المسك

الأذفر ولا يحزنهم الفزع الأكبر رجل أم قوما محتسبا وهم له رضوان ورجل أذن لقوم محتسبا

ورجل ابتلى برق الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه). وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: مررت

برجل يضرب غلاما له، فأشار إلى الغلام، فكلمت مولاه حتى عفا عنه، فلقيت أبا سعيد الخدري فأخبرته، فقال: يا بن أخي من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر.

سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. (وتلقاهم الملائكة) أي تستقبلهم الملائكة

على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم: (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وقيل: تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور عن ابن عباس " هذا يومكم "

أي ويقولون لهم، فحذف. " الذي كنتم توعدون " فيه الكرامة.

قوله تعالى: (يوم تطوي السماء) قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والأعرج والزهري " تطوي " بناء مضمومة " السماء " رفعا على ما لم يسم فاعله. مجاهد " يطوي "

(١) من ب و ج وط وز وك.
(٢) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧.

على معنى يطوى الله السماء. الباقون " نطوي " بنون العظمة. وانتصاب " يوم " على
البدل

من الهاء المحذوفة في الصلة، التقدير: الذي كنتم توعدونّه يوم نطوي السماء. أو يكون
منصوباً بـ " - نعيد " من قوله " كما بدأنا أول خلق نعيده ". أو بقوله: " لا يحزنهم "
أي لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذي نطوي فيه السماء. أو على إضمار واذكر،
وأراد

بالسماوات الجنس، دليله: " والسماوات مطويات بيمينه " (١) [الزمر: ٦٧]. " كطي
السجل للكتاب " (٢) قال

ابن عباس ومجاهد: أي كطي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى " على ". وعن ابن
عباس

أيضاً: اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوي، لأن كتاب رسول الله
صلى الله

عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم، ولا في أصحابه من اسمه السجل. وقال ابن عباس
أيضاً

وابن عمر والسدي: " السجل " ملك، وهو الذي يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه.
ويقال: إنه في السماء الثالثة، ترفع إليه أعمال العباد، يرفعها إليه الحفظة الموكلون
بالخلق

في كل خميس واثنين، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت. والسجل
الصك،

وهو اسم مشتق من السجالة وهي الكتابة، وأصلها من السجل وهو الدلو، تقول:
ساجلت

الرجل إذا نزعت دلوها ونزع دلوها، ثم استعيرت فسميت المكاتب والمراجعة مساجلة.
وقد

سجل الحاكم تسجيلاً. وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

من يساجلني يساجل ماجدا * يملا الدلو إلى عقد الكرب (٣)

ثم بني هذا الاسم على فعل مثل حمر وطمر وبلي. وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير:
كطي

السجل " بضم السين والجيم وتشديد اللام. وقرأ الأعمش وطلحة: " كطي السجل "
بفتح

السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام. قال النحاس: والمعنى واحد إن شاء الله تعالى.
والتمام

عند قوله: " للكتاب ". والطي في هذه الآية يحتمل معنيين: أحدهما: الدرج الذي
هو ضد النشر، قال الله تعالى: " والسماوات مطويات بيمينه " [الزمر: ٦٧]. والثاني:

الاخفاء

والتعمية والمحو، لان الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها.

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٧٧ فما بعد.

(٢) (الكتاب) بالافراد قراءة نافع.

(٣) الكرب: حبل يشد على عراقي الدلو ثم يشنى ثم يثلث ليكون هو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير.

قال الله تعالى: إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت " (١) [التكوير: ١ - ٢] " وإذا السماء كَشِطَتْ " [التكوير: ١١]. " للكتاب " وتم الكلام. وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ويحيى وخلف: " للكتب " جمعا ثم استأنف الكلام فقال: " كما بدأنا أول خلق نعيده "

أي نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بدأوا في البطون. وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام - ثم قرأ - " كما بدأنا أول خلق نعيده " أخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: (يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا " كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين "

ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام) وذكر الحديث. وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب " التذكرة " مستوفى. وذكر سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال: يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت منه لحماتهم وجسماتهم كما تنبت الأرض بالثرى. وقرأ " كما بدأنا أول خلق نعيده " .

وقال ابن عباس: المعنى نهلك كل شيء ونفيه كما كان أول مرة (٢)، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله: " يوم نطوي السماء " أي نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا. وقيل: نفني السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها، كقوله: " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات " (٣) [إبراهيم: ٤٨] والقول الأول أصح وهو نظير قوله: " ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة " (٤) [الانعام: ٩٤] وقوله عز وجل: " وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة " (٥). " وعدا " نصب على المصدر، أي وعدنا وعدا " علينا " إنجازه والوفاء به

أي من البعث والإعادة ففي الكلام حذف: ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه: " إنا كنا فاعلين " قال الزجاج: معنى " إنا كنا فاعلين " إنا كنا قادرين على ما نشاء. وقيل " إنا كنا

فاعلين " أي ما وعدناكم وهو كما قال: " كان وعده مفعولا " (١) [المزمل: ١٨].
وقيل: " كان " للاخبار
بما سبق من قضاائه. وقيل: صلة.

-
- (١) راجع ج ١٩ ص ٢٢٥. وص ٤٧.
(٢) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألويسي.
(٣) راجع ج ٩ ص ٣٨٣.
(٤) راجع ج ٧ ص ٤٢.
(٥) راجع ج ١٠ ص ٤١٧.

قوله تعالى: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون (١٠٥) إن في هذا لآياتاً لقوم عابدين (١٠٦) قوله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور والكتاب واحد، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور. زبرت أي كتبت وجمعه زبر. وقال سعيد بن جبير: "الزبور" التوراة والإنجيل والقرآن. (من بعد الذكر) الذي في السماء (أن الأرض) أرض الجنة (يرثها عبادي الصالحون) رواه سفیان عن الأعمش عن سعيد بن جبير. الشعبي: "الزبور"

زبور داود، و "الذكر" توراة موسى عليه السلام. مجاهد وابن زيد: "الزبور" كتب الأنبياء عليهم السلام، و "الذكر" أم الكتاب الذي عند الله في السماء. وقال ابن عباس:

"الزبور" الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه، و "الذكر" التوراة المنزلة على

موسى. وقرأ حمزة "في الزبور" بضم الزاي جمع زبر "أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"

أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير، لان الأرض في الدنيا قال قد ورثها الصالحون وغيرهم. وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وقال مجاهد وأبو العالية:

ودليل هذا التأويل قوله تعالى: "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض" (١) [الزمر: ٧٤]

وعن ابن عباس: أنها الأرض المقدسة. وعنه أيضاً: أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد

صلى الله عليه وسلم بالفتوح. وقيل: إن المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله تعالى: "وأورثنا

القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها" (٢) [الأعراف: ١٣٧] وأكثر المفسرين

على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقرأ حمزة "عبادي الصالحون"

بتسكين الياء. (إن في هذا) أي فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه. وقيل:

إن في القرآن (لبلاغاً لقوم عابدين) قال أبو هريرة وسفيان الثوري: هم أهل الصلوات الخمس. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "عبدين" مطيعين. والعباد المتذلل الخاضع. قال

القشيري: ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل، لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق، وهو

بحيث
لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة. وقال ابن عباس أيضا: هم أمة محمد
صلى الله
عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان. وهذا هو القول
الأول بعينه.

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد.

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٢.

قوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١٠٧) قل إنما يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فهل أنتم مسلمون (١٠٨) فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون (١٠٩)
قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سعد، ومن لم يؤمن به

سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق. وقال ابن زيد: أراد بالعالمين المؤمنين خاصة.

قوله تعالى: (قل إنما يوحى إلي أنما إليكم إله واحد) فلا يجوز الاشراف به. (فهل أنتم مسلمون) أي منقادون لتوحيد الله تعالى، أي فأسلموا، كقوله تعالى: " فهل أنتم منتهون " (١) [المائدة: ٩١] أي انتهوا.

قوله تعالى: (فإن تولوا) أي إن عرضوا عن الاسلام (فقل آذنتكم على سواء) أي أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا، كقوله تعالى: " وإما تخافن من قوم خيانة

فانبذ إليهم على سواء " (٢) [الأنفال: ٥٨] أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا، أي استويت أنت وهم فليس لفريق عهد ملتزم في حق الفريق الآخر. وقال الزجاج: المعنى أعلمتكم بما يوحى إلي على استواء في العلم به، ولم أظهر لاحد شيئا كتمته عن غيره. (وإن أدري) " إن " نافية بمعنى " ما " أي وما أدري.

(أقريب أم بعيد ما توعدون) يعني أجل يوم القيامة لا يدرىه أحد لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، قاله ابن عباس. وقيل: آذنتكم بالحرب ولكني لا أدري متى يؤذن لي في محاربتكم.

قوله تعالى: إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون (١١٠) وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين (١١١) قل رب أحكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون (١١٢)

قوله تعالى: (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أي من الشرك وهو المجازي عليه. (وإن أدري لعله) أي لعل الامهال (فتنة لكم) أي اختبار ليرى كيف صنيعكم

(١) راجع ج ٦ ص ٢٨٥ فما بعد.

(٢) راجع ج ٨ ص ٣١.

(३००)

وهو أعلم. (ومتاع إلى حين) قيل: إلى انقضاء المدة. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية في منامه يلون الناس، فخرج الحكم من عنده فأخبر بني أمية بذلك، فقالوا له:

ارجع فسله متى يكون ذلك. فأنزل الله تعالى " وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون " " وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين " يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك. قوله تعالى: (قل رب أحكم بالحق) ختم السورة بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتفويض الامر إليه وتوقع الفرج من عنده، أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرتني

عليهم. روى سعيد عن قتادة قال: كانت الأنبياء تقول: " ربنا افتح بيننا. وبين قومنا بالحق " (٢) [الأعراف: ١٨٩] فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: " رب أحكم بالحق " فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل " رب أحكم بالحق " أي أفض به. وقال

أبو عبيدة: الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير: رب أحكم بحكمك الحق. و " رب " في موضع نصب، لأنه نداء مضاف. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن:

" قل رب أحكم بالحق " بضم الباء. قال النحاس: وهذا لحن عند النحويين، لا يجوز عندهم رجل أقبل، حتى تقول يا رجل أقبل أو ما أشبهه. وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب:

" قال ربي أحكم بالحق " بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة. أي قال محمد ربي أحكم بالحق من كل حاكم. وقرأ الجحدري " قل ربي أحكم " على معنى أحكم الأمور بالحق.

(وربنا المستعان على ما تصفون) أي تصفونه من الكفر والتكذيب. وقرأ المفضل والسلمي " على ما يصفون " بالياء على الخبر. الباقي بالتاء على الخطاب. والله أعلم.

تحقيق أبي إسحاق إبراهيم أطفيش
تم الجزء الحادي عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني عشر وأوله: (سورة الحج)

(١) (قل) على صيغة الامر قراءة نافع.

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٠ فما بعد.

(३०१)